سامي الدروبي
ماذا يبقى منه للتاريخ

عندما شرع الدكتور سامي الدروبي في ترجمة الاعمال الادبية الكاملة لتولستوي ، والتي نشرت منها وزارة الثقافة ثلاثة مجلدات حتى الآن ، تساءل الكثيرون عما إذا كانت الحياة سوف تطول بالمترجم بحيث يتمكن من انجاز هذا المشروع الادبي الضخم ، مثلما فعل مع دوستويفسكي حين قام بترجمة أعماله الادبية الكاملة في ثمانية عشر مجلداً نشرت في القاهرة ابتداء من عام ١٩٦٧ . وكان التساؤل مشروعاً ، خصوصاً وان اصدقاء سامي الدروبي كانوا يعرفون الكثير عن المرض العضال الذي امسك بقلبه منذ سنوات ، والذي انتهى به الى نوبة قلبية أفلحت هذه المرة في انهاء حياته التي استمرت ستة وخمسين عاماً ، قبل أن ينجز مشروعه الحضاري الماثل في نقل مؤلفات تولستوي الادبية الى اللغة العربية ، بعد ان انجز مشروعه الحضاري الأول بترجمة الاعمال الادبية الكاملة لدوستويفسكي .

وعلى الرغم من أن سامي الدروبي كان يعرف كل شيء عن مرضه ، فان صراعه ضد الموت كان يبدو ماثلا في عدة مشروعات أدبية ضخمة عزم على انجازها ، ومن بينها مشروع بترجمة الأعمال الفلسفية الكاملة لبرغسون ، وهو مشروع كان يمكن فيما لو تحقق ، أن يضيف الى المكتبة الفلسفية العربية رصيداً ضخماً ، وان يجعل قامة هذه المكتبة ترتفع عاليا . ولا أعرف ما اذا كان الدكتور الدروبي قد انجز شيئاً من هذا المشروع ، وان كنت قد فهمت بأنه قطع شوطاً لا بأس به في هذا المضمار.

ماذا يبقى من سامي الدروبي للتاريخ ؟ .

يبقى منه الشيء الكثير . يكفي سامي الدروبي انه ترجم الاعمال الادبية الكاملة لدوستويفسكي . يكفيه انه اضاف الى المكتبة الادبية والروائية العربية هذه الثروة التي لاتقدر بثمن . يكفيه انه اتاح لمن لا يستطيع أن يقرا دوستويفسكي بلغته الأصلية ، او بأية لغة اجنبية ، أن يقراه باللغة العربية منقولا نقلا اميناً ودقيقاً وباسلوب بالغ النصاعة والنقاوة لايستطيع معه القارىء الا أن يعجب بهذه القدرة الهائلة على تمثل روح دوستويفسكي ونقلها الى النص العربي كما لو كان دوستويفسكي قد كتب ذلك كله باللغة العربية اساساً ، على الرغم من ان سامي الدروبي ترجم هذه الأعمال عن النص الفرنسي وليس عن النص الروسي .

وقد قرات في تقديم الترجمة العربية لأعمال دوستويفسكي الادبية الكاملة عبارة أحسب انها تعبر عن هذه المزايا جميعها وهي ان الكاتب العربي الذي سيجيء في المستقبل مؤهلا باتقان اللغتين الروسية والعربية لنقل امهات كتب الأدب الروسي ، سوف يشعر حين يضاهي بين هذه الترجمة وبين الأصل الروسي ، انه ليس عليه ان يعيد الترجمة ، وانه لا يحتاج الى اكثر من تنقيحات يسيرة يجري بها قلمه على كلمة هنا او جملة هناك .

انني لا أستطيع ان اتأمل في المكتبة العربية فاجدها خالية من مؤلفات دوستويفسكي الكاملة ، أو من أعمال تولستوي الادبية . ولا أستطيع أن اتخيل جيلنا يمضي دون ان يقرا هذين العملاقين قراءة كاملة . وقد كتب البير كامو ذات يوم أن تولستوي ودوستويفسكي قد اعطيا اعظم وأحسن ماكانت تملكه روسيا ، والروح السلافية لايمكن ان تفهم جيداً بدون قراءة هذين العملاقين ، والتواصل بين الشعوب والحضارات يبدأ أولا من الأدب والفن . وبهذا المعنى يمكن وصف ترجمة سامي الدروبي لدوستويفسكي وتولستوي بأنها عمل حضاري بمعنى الكلمة .

هناك أشياء كثيرة أخرى تبقى من سامي الدروبي . يبقى منه استاذ الجامعة ، ويبقى منه السياسي ، ويبقى منه الديبلوماسي ، ويبقى منه المفكر . وقبل ذلك كله وبعده ، يبقى منه الانسان .

رئيس التحرير

قضايا قومية

قوميتنا عروبتنا

جورج صدقني

«العربي سيد قدره» .

زكي الأرسوزي

«إنني أعرف وجهك أيها العربي : إنك الانسان!»

انطون دوسانتكزوبري

«نحن قوميون عرب اشتراكيون ، والقومية حقيقة خالدة» .

حافظ الأسد

لا أظن أنني أذيع سراً إذا قلت إن عدداً من المفاهيم المتداولة في مجال الفكر القومي لاتزال حتى الآن غير واضحة المعالم ، بل يكتنفها الكثير من الغموض ، حتى انها تتداخل فيما بينها تداخلاً يجعل التمييز بينها تمييزاً حاسماً عملاً معقداً او مربكاً على الاقل ، ويجعل ـ في الوقت نفسه ـ مهمة إزالة الالتباسات وتحديد معنى واضح ودقيق لكل مفهوم من هذه المفاهيم مهمة « قومية » تتصف بقدر عظيم من الاهمية ، كما يتصف التصدي لهذه المهمة بقدر عظيم من المشقة .

من هذه المفاهيم مفهوم (القومية) ومفهوم (الامة) : ان جمهور «المثقفين » مازال يخلط بين هذين المفهومين حتى الان : فلاهما مفهومان مترادفان تماما في أذهانهم ؛ ولا الحدود الفاصلة بينهما حدود واضحة وصريحة . ومايصدق على القومية والامة يصدق على القومية والوطنية ؛ وعلى القومي والوطني ؛ وعلى الأمة والشعب ؛ وربما صدق على عدد من المفاهيم الأخرى في هذا المجال . وإذا كانت مقالتنا هذه تتناول مفهومي (القومية) و (الامة) بالتحليل في محاولة لتحديدهما تحديداً دقيقاً قدر الامكان ؛ فإننا نأمل ان نتمكن من تخصيص مقالة أو أكثر في المستقبل القريب لتحليل المفاهيم الاخرى وتحديدها تحديداً أقرب مايكون إلى الدقة والوضوح .

إن هذا الخلط بين المفاهيم خطير بل خطر ،، وهو سلاح أساسي في كل ما شهده الفكر السياسي في الوطن العربي على مدى مايقرب من خمسين سنة من محاولات محدودة النجاح لنفي الفكر القومي بحجة انه « فكر رجعي بالضرورة » . وما كان لهذه المحاولات ان تحقق أي قدر من النجاح لوكانت المفاهيم واضحة ودقيقة . إنها محاولات عاشت على الغموض وفي الظلام ، وهي لاتستطيع أن تستمر على قيد الحياة في النور الساطع لأنه يفضحها ويعريها .

ومن قديم الزمان ـ منذ أيام اليونان ، كان الفيلسوف اليوناني العظيم سقراط يقول ان سوء الفهم أوسوء التفاهم بين الناس يرجع في الاصل إلى عدم وضع «حدود» واضحة ودقيقة للمفاهيم . كان لنجري حواراً حول « العدالة » قبل ان نتفق على تحديد « مفهوم » العدالة ، عندئذ يدور الحوار في الواقع حول « مفاهيم متعددة » للعدالة ، لاحول مفهوم واحد ، وعندئذ يتحول الحوار إلى مانسميه « حوار الطرشان » ، فكل يتحدث عن « عدالته » لاعن العدالة ، وكل يغني على ليلاه لاعلى ليلى .

هذه الفكرة السقراطية ـ التي تبدو فكرة بسيطة أو « ساذجة » للوهلة الاولى ـ هي حجر الزاوية في بنيان الحضارة الحديثة برمته . إن الحضارة الحديثة حضارة عقلانية ، أي تقوم على أساس العقل ، والعلوم الحديثة كلها قائمة على أساس الرياضيات الحديثة ، أو على أساس منطق عقلي رياضي صارم . وفي هذا المنطق كل مفهوم يجب ان يكون له « حد » أو « تعريف » منذ البداية : فالنقطة في الهندسة المستوية هي... ، والسرعة في علم الحركة (الميكانيك) هي ... ، والشدة في الكهرباء هي ... ، والمادة هي ... ، والالكترون هو ... ، وهكذا دواليك في كل علم وفي كل مجال . إن نقطة الانطلاق في كل علم هي وضع تعريفات للمفاهيم الاساسية فيه ؛ تكون بمثابة القاعدة التي يشاد عليها بناء العلم كله .

بعد هذا كله ، لا أتردد في القول بأن الفكرة السقراطية التي أشرنا إليها هي في أساس كل ماحققته العلوم الحديثة من تقدم ، بل في أساس التكنولوجيا الحديثة وغزو

الفضاء . ومن الواضح ، بعد هذا كله ، أن تحديد معاني المفاهيم القومية الأساسية يصبح « ضرورة » قومية ، لامهمة قومية وحسب .

ولعله من الجدير بنا أن نشير هنا إلى أننا – في هذه المقالة والمقالات التي قد تليها – لانطمح إلى وضع أسس « علم » للقومية ، وليس بوسعنا – حتى لوخامرتنا مثل هذه الفكرة – ان نقوم بذلك ، بسبب من طبيعة الموضوع على الاقل . مانرمي إليه – في هذه المقالة وفي المقالات الآتية – هو ان نقوم باستقراء سريع للمعاني المختلفة والمتباينة التي تتخذها بعض المفاهيم القومية (او تسبغ عليها) ، وان نحاول القيام باعادة ترتيب شامل قدر الامكان في هذا المجال ، من اجل الخروج من حالة تداخل المفاهيم الراهنة .

* * *

في بدايات القرن العشرين وقبل الحرب العالمية الاولى ، كان المناضلون العرب في سبيل حرية العرب واستقلالهم عن السلطنة العثمانية يستخدمون ، في اغلب الاحيان ، تعبير « العروبة » بدلا من تعبير « القومية العربية » في أدبياتهم السياسية ، أوكانوا – على الاقل – يستخدمون التعبيرين على حد سواء ، وبالمعنى نفسه . ومن جهة أخرى كانت « العروبة » شحنة من الحماسة والعاطفة أكثر مما كانت « مفهوما » عقليا واضح الدلالة ، بل إن « العروبة » كانت تستخدم للدلالة على معان متعددة ، ولكنها – على أية حال – معان غير محددة تحديدا تاما واضحا ودقيقا .

ولكن معنى « العروبة » كان يكتسب وضوحا متزايدا مع تعاظم النضال العربي في سبيل الحرية والاستقلال ، وكان يزداد غنى وشمولا باغتناء الثورة العربية وازدياد خبرتها النضالية . وبوجه عام يمكن القول ان « العروبة » كانت في البداية – وفي مواجهة سياسة « التتريك » المعروفة – تعبيرا عن رفض الانصهار في البوتقة التركية ، فاتخذت معنى الصفات التي تميز العرب عن الاتراك ، او الصفات التي تجعل العرب أمة غير الاتراك ، أي تجعل انتماءهم القومي انتماء مختلفا . ولا ريب في أن تطور الاحداث السياسية أخذ يضفي على « العروبة » معاني جديدة ، ويحملها دلالات اضافية ، فصارت تشير – على نحو ما – الى المطالبة بالحكم الذاتي أو الاستقلال . ومع اندلاع (الثورة العربية) في عام ١٩١٦ ، بات من الواضح أن « العروبة » لم تعد تعبيراً عن واقع معين يميز العرب عن غيرهم (عن الاتراك بوجه خاص) وحسب ، بل اصبحت تعني أكثر من ذلك : لقد أصبحت تعني – بالاضافة الى الانتماء الى الامة العربية – الاعتزاز بهذا الانتماء والاعتداد بـه .

ومع نهاية الحرب العالمية الاولى او بعدها بقليل ، كانت (الثورة العربية) قد أخفقت على الصعيد العملي في تحقيق هدفها المعلن (إقامة دولة عربية مستقلة في أقطار آسية

العربية) ، وكان الاستعمار الغربي قد نجح في تحقيق مخططاته (اتفاقية سايكس ـ بيكو)، وتم اقتسام « الولايات » العربية على النحو المعروف بين الدول الاستعمارية الغربية . وهكذا بدأت مرحلة جديدة ، امتدت على طول الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، تميزت باتساع التجزئة وشمولها الوطن العربي بأسره ، واتسمت بانعكاس وضع التجزئة الشامل على الفكر القومي العربي الوليد ـ في آسية العربية بوجه خاص ـ فانحصر هذا الفكر انحصاراً واضحاً في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، تارة لحساب فكر لا قومي ، وتارة لحساب فكر قومي مزيف هو في ظاهره فكر قومي ولكنه في حقيقته فكر اقليمي صرف . كذلك انحصر النضال القومي العربي لحساب النضال « الوطني » الهادف الى الحصول على الاستقلال « الوطني » . ولعل هذه الفترة بالذات هي التي شهدت بداية استخدام تعبيري « الوطني » و « الوطنية » في آسية العربية ، بعد ان كان استخدامهما مقتصراً على الاقطار العربية في افريقية ، ولا سيما في مصر .

إن هذه الفترة ـ فترة ما بين الحربين العالميتين ـ هي الفترة التي شهدت بداية تداخل المفاهيم القومية ـ هذا التداخل الذي اشرنا اليه في مستهل هذه المقالة ـ وشهدت كذلك رسوخ هذا التداخل وتحوله الى « واقع » يفرض على الفكر أن يتعامل معه وأن يأخذه بعين الاعتبار . وقد ساعد على هذا التداخل أمران :

الأول هو استقطاب الفكر السياسي في معظم هذه الفترة بين اتجاهين متصارعين احدهما اتجاه لا قومي أو أممي ، والآخر اتجاه اقليمي ، ولم يكن أي من هذين الاتجاهين حريصاً على ترسيخ المفاهيم القومية الصحيحة وجعلها جلية واضحة .

والامر الثاني هو أن هذه الفترة شهدت نشاطاً مكثفاً في ترجمة الفكر السياسي الغربي، وكانت هذه الترجمة مسؤولة الى حد كبير عن التداخل الذي اشرنا اليه ، فقد ترجمت المفاهيم القومية ترجمة موفقة حيناً ، وترجمت ترجمة غير موفقة أحياناً اخرى . ولا بد من الاعتراف ، على كل حال ، بأنه لم يكن من الميسور أن تكون الترجمة موفقة دائماً ، أولا بسبب الصعوبة العامة التي تعاني منها كل ترجمة لاختلاف طبيعة كل لغة عن الاخرى ولأن لكل لغة عبقريتها الخاصة ، وثانياً لأن هذه المفاهيم المترجمة تعبر في الأصل عن الفكر السياسي الاوروبي ، الذي يعد انعكاساً للواقع الاوروبي المختلف اختلافاً جذرياً عن واقع شعبنا العربي ، وهذا مادفع المترجمين أحياناً الى اشتقاق الفاظ لا تعبر عن المعنى المقابل في اللغات الاجنبية ، ولكنها تعبر ـ في ظنهم ـ عن الواقع عندنا ، أو تعبر عن اغراضهم السياسية : اي ان الترجمة كانت ، في بعض الاحيان ، ترجمة قسرية تريد إيجاد تطابق بين أمرين غير متطابقين ، وكانت ، في أحيان اخرى ، ترجمة سياسية تحمل في طياتها غرضاً سياسياً .

* * *

ولعله من المفيد ان نستعرض هنا بعضا من هذه المفاهيم القومية ؛ لنستجلي الوان الغموض واللبس التي لحقت بها عن طريق الترجمة .

١ ـ القوميـة :

يبدو هذا المفهوم للوهلة الأولى واضحا لا يعتريه اي لبس او غموض . ولكننا ؛ اذا امعنا النظر قليلا ، وجدنا أن كلمة (القومية) لا تستخدم الآن في العربية بمعنى واحد ؛ بل تستخدم بمعنيين مختلفين . وسبب ذلك أن المترجمين استخدموا كلمة (القومية) ليدلوا بها على المعنى المقابل لكلمة (Nationalisme) ؛ واستخدموا كلمة (القومية) في الوقت نفسه للدلالة على المعنى المقابل لكلمة (Nationalité) .

الفرق بين المعنيين دقيق ، ولكنه فرق أساسي : فالكلمة الاولى (Nationalisme) تدل على النزعة القومية التي تحرك الأمم والشعوب ، وتعبر عن الوجه الحركي في القومية. إنها لا تعبر عن « وجود » معين ، بل انها فكرة ووعي ونزوع ومحرك ودافع وشعور ورابطة وحركة . القومية الالمانية ـ بهذا المعنى ـ ادت الى الوحدة الالمانية في القرن التاسع عشر، وكذلك القومية الايطالية . والقومية العربية ـ بهذا المعنى ـ حركة هادفة الى القضاء على التجزئة وتحقيق الوحدة العربية . والقومية ـ بهذا المعنى ايضا ـ ادت لدى الأمم الاوروبية الى الصراعات القومية وإلى الحروب ؛ بل أدت الى الاستعمار والعدوان والتوسع على حساب الأمم المستضعفة . وبالمقابل ، فان القومية العربية ـ بهذا المعنى ايضا ـ حركة تحرر قومي تناضل للقضاء على الاستعمار والخلاص من السيطرة الأجنبية.

ونود أن نشير هنا عابرين الى أن القومية ؛ بهذا المعنى ؛ ليست فكرة رجعية بالضرورة . فالقومية بالذات ليست رجعية ولا تقدمية : إنها حركة ذات اتجاه وأهداف ؛ تكون رجعية عندما يكون اتجاهها نحو العدوان والتوسع واستعمار الأمم الاخرى أو السيطرة عليها ، وتكون تقدمية عندما يكون اتجاهها نحو مقاومة العدوان والتوسع ونحو القضاء على الاستعمار والتحرر من السيطرة الأجنبية ؛ وهذا ينطبق على حركات التحرر القومي في العالم الثالث بأسرها . وهذا يعني أن القومية يمكن أن تكون رجعية قائمة على التعصب والعنصرية ؛ ويمكن أن تكون ـ على العكس من ذلك ـ حركة تحررية تقدمية . وبالتالي فان عملية إضفاء صفات العنصرية والتعصب و « الشوفينية » والعدوانية والرجعية على كل نزعة قومية ـ بحجة أن بعض النزعات القومية تتصف بهذه الصفات بالفعل ـ عملية ليس لها اي مسوغ منطقي .

اما الكلمة الثانية (Nationalité) فتعبر عن الوجه السكوني للقومية ، أي انها تدل على وجود قومي معين ، أو على واقع قومي معين . انها تدل على وحدة الانتماء الواقعية الموضوعية لأبناء الأمة ؛ لا على شعورهم الذاتي بالانتماء . انها تدل على الصفات المميزة لكل قومية ، تلك الصفات التي تجعل ـ على سبيل المثال ـ العرب عربا والفرنسيين

فرنسيين ، وتجعل العرب مختلفين موضوعيا عن الفرنسيين . القومية بهذا المعنى اقرب الى مدلول « الامة » . وبهذا المعنى نقول ان الاتحاد السوفييتي ليس مؤلفا من قومية واحدة ، بل هو مؤلف من قوميات (بالجمع) متعددة ؛ وكذلك يوغوسلافيا . ونعني بهذا أن الاتحاد السوفييتي (أو يوغوسلافيا) ليس مؤلفا من أمة واحدة ، بل هو اتحاد بين أمم متعددة .

وهكذا أصبحت (القومية) تدل ، في لغتنا العربية المعاصرة ، على معنيين مختلفين ، وأصبح على القارىء العربي أن يستخلص من السياق المعنى الذي يقصد اليه الكاتب ، هذا اذا كان الفرق بين المعنيين واضحا في ذهن الكاتب ، أما إذا لم يكن هذا الفرق واضحاً في ذهنه أصبح الالتباس أعظم وغدا الغموض أشد خطرا .

ومن جهة أخرى ، زاد الامر تعقيدا ان كلمة (Nationalité) ترجمت في أحوال أخرى بكلمة (الجنسية) ـ مشتقة من الجنس بمعنى الأصل الاتنولوجي ـ . والكلمة الاجنبية تدل على هذا المعنى بالفعل ، ولكن لم تكن هناك ضرورة للتفريق بين الجنسية والقومية لولا واقع التجزئة العربية ، فكان المترجمين أرادوا أن يعكسوا هذا الواقع ويعبروا عنه . إن اللغات الاجنبية جميعا تعبر عن هذين المعنيين (الجنسية والقومية) بلفظ واحد لتطابقهما ، ولانهما عندهم معنى واحد ، نظرا لتطابق الانتماء الرسمي القانوني مع الانتماء القومي في الأحوال الطبيعية ، فقولنا عن فرنسي ان جنسيته فرنسية يتطابق مع قولنا عنه إن قوميته فرنسية ، والعكس صحيح . ولكن الحال مختلف عندنا نحن العرب : فانتماؤنا القومي هو للامة العربية ، للعروبة ، للقومية العربية ، اما انتماؤنا الرسمي القانوني فهو موزع على الدول العربية او الكيانات السياسية التي فرضتها ارادةالاجنبي، اي اننا موزعون في الواقع على جنسيات سورية وعراقية واردنية ومصرية الخ .. ولكن هذا الواقع واقع عرضي وموقت ومصيره الى الزوال ، فلا يمكن له ان يجعل المعنى الواحد يتحول في نهاية المطاف الى معنيين . إن انتمائي الرسمي القانوني هو جنسيتي السورية ، ولكن هذه الجنسية لا تعبر عن حقيقتي او حقيقة انتمائي ، ذلك أن هذا الانتماء انتماء شكلي بالقياس الى انتمائي الجوهري الحقيقي .

إن انتمائي الحقيقي هو لامتي العربية ، لعروبتي ، لقوميتي العربية . وجنسيتي التي تحقق لنفسي سلامها الداخلي ، وتجعلني أتطابق مع حقيقتي العميقة هي جنسيتي العربية ؛ أي أن جنسيتي هي قوميتي ، وقوميتي هي عروبتي . وهكذا نجد اننا عدنا الى الاصل ، وتأكد لنا ان الجنسية الطبيعية هي والقومية شيء واحد .

أما « العروبة » فهي ليست غير « القومية العربية » بمعنييها الحركي والسكوني اللذين سبقت الاشارة اليهما ، وان كان تعبير « العروبة » سابقا زمنيا على تعبير القومية العربية ، وفي أواخر الثلاثينات من هذا القرن اكتسبت كلمة « العروبة » معاني اكثر عمقا على يدي زكي الارسوزي ـ الذي يمكن أن نطلق عليه بحق اسم فيلسوف العروبة ـ

ومن خلال النضال العربي المجيد في لواء الاسكندرونة ، فقد أصبحت تعني ، بالاضافة الى المعاني السابقة كلها ، حركة تهدف الى « بعث » القيم والمثل العليا العربية الاصيلة، والى اعادة خلق الانسان العربي خلقا جديدا ، كي يصبح قادرا على حمل راية هذهالقيم والمثل العليا ، ويصبح أهلا للتصدي لهذه المسؤولية التاريخية الخطيرة .

هنا ينتصب أمامنا التباس معاكس : فاذا كانت كلمة « العروبة » على بساطتها تحمل في نظر العربي هذه المعاني كلها ؛ واذا كانت هذه المعاني واضحة وشفافة أمام ناظرية ، فان الامر ليس على هذا النحو لدى الاجانب . والواقع أن الاجانب ترجموا هذه الكلمة الى لغاتهم ترجمات مختلفة أدت الى حدوث نوع من الالتباس . فمنهم من ترجمها بكلمة Pan - Arabisme . وارجح الظن انهم ترجموها على هذا النحو مدفوعين بنيتهم السيئة في الاساءة الى معنى العروبة ، لاننا لو أعدنا ترجمة هذه الكلمة مرة أخرى الى العربية ، لما وجدنا لها مقابلا أفضل من « النزعة التوسعية العربية » !! ومنهم من ترجمها بكلمة Arabisme لكي يخلصها من صفة النزعة التوسعية . ولكن هذه الترجمة مع ذلك ظلت تواجه مشكلة حقيقية : فهي ـ فضلا عن أنها لا تؤدي من معاني العروبة الا المعنى الحركي ـ توحي للقارىء الاجنبي بانها نزعة توسعية ايضا ، لانها تذكره بالنزعة الجرمانيةGermanisme ، التي عانت الشعوب الاوروبيةمنها الامرّين .

وفي الآونة الاخيرة بدأت بعض الاوساط تستخدم كلمة Arabité للدلالة على معنى « العروبة » (المستشرق الفرنسي جاك بيرك ، المطران جورج خضر عندما يكتب بالفرنسية، ولا سيما عن « عروبة » الكنيسة الشرقية ، والاب يواكيم مبارك في خماسيته عن المسيحية والاسلام) .

وفي راينا ان هذه الكلمة افضل من سابقتيها للدلالة على معنى العروبة ، لانها تخلصها في نظر الاجانب من سمة التوسع والعدوان المزعومة ، وتشير بوضوح الى أن العروبة جملة من الصفات الموضوعية المميزة تحدد انتماء معينا هو العروبة . ولكن هذه الترجمة تعاني من نقص أساسي هو عجزها عن التعبير عما تحمله العروبة في طياتها من معنى حركي ، باعتبارها حركة نضالية تحررية .

بيد أنه لابد لنا من الاعتراف في نهاية المطاف بأنه يستحيل العثور على كلمة اجنبية تترجم كل ما في كلمة « العروبة » من ثراء وغنى ترجمة دقيقة لا يكتنفها لبس ولا غموض . هذا مستحيل ؛ فالعروبة لا تعبر عنها تعبيرا مطابقا إلا كلمة « العروبة » . ولذا فاني لعلى مثل اليقين بانه سوف يأتي يوم تنتقل فيه هذه الكلمة الى اللغات الاجنبية بلفظها كما هو لكي تعبر عن نفسها بنفسها .

٢ ـ الامة :

يحق لنا ألا نتوقع حصول اي التباس في مفهوم الامة ؛ ذلك انه مفهوم بسيط وواضح،

واذا طرحته على رجل الشارع نفسه فهم منه أنه يعني مجموع الناس الذين ينتمون الى قومية Nationalité واحدة . ولكن الالتباس وقع مرة اخرى بسبب ترجمة المفاهيم الاجنبية .

لقد رأى المترجمون ان كلمة Nation تقابلها كلمة « امة » في العربية . هذا صحيح؛ اوليس خطأ على الاقل . ولكن الخطأ حصل عندما ظن المترجمون ان Nation تعني « امة » دائما ، وفي كل الاحوال ، وانها لاتعني شيئا اخر ، في حين أن المطلعين على خفايا اللغة الفرنسية يعرفون أنها ، في كثير من الاحيان ، تعني « الامة ـ الدولة » أو « الدولة ـ الامة » أو الامة التي أصبحت دولة ، أنها تعني « الدولة القومية » . وعلى سبيل المثال : ان اسم منظمة الامم المتحدة باللغات الاجنبية يدل على أنها مؤلفة من Nations؛ فترجم اسم المنظمة الى العربية على مألوف العادة ؛ فقيل انها منظمة مؤلفة من « أمم » . ولا يخفى على احد ـ بصرف النظر عن اعتبارات سياسية تفصيلية وهامشية لا تهمنا الآن ـ ان عضوية المنظمة لا تمنح للامم ، بل للدول .

ان لغتنا العربية تفصل مفهوم « الامة » عن مفهوم « الدولة » فصلا تاما ، فهذا مفهوم؛ وذاك مفهوم آخر . وواقعنا العربي ينسجم مع هذا الفصل : ذلك ان الامة العربية مجزأة الى دول متعددة . ولكن كثيراً من اللغات تنطلق من الحالة المثالية : ففي الحالة المثالية يجب أن يكون لكل امة دولة ، او يجب أن تكون الدولة متطابقة مع الامة ، ولهذا فان الكلمة التي تدل على معنى الامة ، تدل في الوقت نفسه على معنى « الدولة القومية » كما هو الامر في كلمة Nation ومثيلاتها في عدد من اللغات . أما اذا كان الكلام منصرفا الى « الدولة » من حيث هي كيان سياسي صرف ، أو شكل قانوني دستوري فيعبر عنها بكلمة Etat بالفرنسية ، وكلمة State بالانجليزية ، وما يقابلهما في اللغات الاخرى .

هذا الفرق الجوهري بين اللغة العربية وبين عدد من اللغات الاوروبية في هذا المجال أدى الى التباسات تتسم بالطرافة في بعض الاحيان في بعض الكتب العربية التقليدية التي تتناول موضوع « الامة » والنظريات المختلفة في « عوامل تكوين » الامم .

وهذه الكتب متشابهة ، فهي تلجأ عادة الى عرض النظرية الالمانية التي ترى في اللغة عاملا حاسما للتمييز بين الامم ، ثم تعترف بان للغة دورا هاما في « تكوين » الامة ، وتقرر بان اللغة وحدها لاتكفي ثم تنتقل عادة الى عرض نظرية رينان الفرنسية التي تقول بأن « الامة هي ارادة العيش المشترك » (La nation est la volonté de vivre en commun) ثم تنتقد النظرية الفرنسية فتقول انها تنطبق على الدولة اكثر مما تنطبق على الامة ، ثم تنتقل بعد ذلك الى « البرهان » على وجود الامة العربية الواحدة ، فتشير الى أن العرب ـ بالاضافة الى ان لهم لغة واحدة والى أنهم يملكون ارادة العيش المشترك ـ لهم تاريخ واحد وآلام وآمال مشتركة وعادات وتقاليد واحدة وثقافة واحدة ومصالح اقتصادية مشتركة و ... و ... الخ .

هذا العرض التقليدي لموضوع (الامة) في معظم الكتب العربية يثير الملاحظتين التاليتين :

الاولى ـ ان النقد الموجه الى نظرية رينان نقد يسقط من تلقاء نفسه في الفراغ ، لان هذه النظرية لاتتناول مفهوم الامة بمعزل عن مفهوم الدولة ، بل هي تتناول المفهومين معا . انها ، في الواقع ، تقول بان « الدولة القومية (او الامة ـ الدولة) هي ارادة العيش المشترك » .

الثانية ـ أن وجود الامة العربية وكون العرب امة واحدة لايحتاج الى برهان ، ولا يحتاج بالتالي الى حشد العوامل والعناصر التي تؤكد وحدة الامة العربية . كان الاستاذ زكي الارسوزي يردد دائما أن « الامة فعل بديهي » ، أي ان الامة مبدأ نبدأ منه ولانتهي اليه ، أي لانستنتجه استنتاجا ولانستدل عليه بالاستدلالات والبراهين المنطقية. ومن الامور التي لها مغزى عظيم في هذا المجال ان « المبدأ » الاول من المبادىء الاساسية في دستور حزب البعث العربي الاشتراكي ، الذي اقره المؤتمر التاسيسي في ٧ نيسان عام ١٩٤٧ ، ينص منذ السطر الاول على أن « العرب امة واحدة » .

كانت هذه البراهين تثير الاستاذ الارسوزي ، وكان يرفض النظر فيها رفضا قاطعا ، وكان يعلق عليها فيقول : هل سمع احدكم ان الفرنسيين يبرهنون أنهم فرنسيون او انهم امة فرنسية ؟ ! هل سمع احدكم غيرهم يفعل ذلك ؟ !

واذكر انه قيل له مرة ـ في اواخر الاربعينات او اوائل الخمسينات ـ : ان هذه البراهين تأخذ الواقع بعين الاعتبار ، لان أتباع بعض النظريات الاقليمية ينكرون العروبة. تقول لهم انا عربي ، فينكرون عليك هويتك ، ويقولون كلا ، أنت سوري ، برهن انك عربي. ان شأننا في البرهان على العروبة شأن من أنكر القاضي عليه اسمه ، فاستعان بشهود يعرفونه للاثبات .

فاجاب : أولا لو سألت اي فلاح في ابعد قرية « هل انت سوري أم عربي ؟ » لاستغرب السؤال وضحك عليك . ثانيا لا يحتاج الى اثبات الهوية الا من كان نكرة . عندما أطل السيد المسيح على جموع الشعب قال : هل تعرفونني ؟ قالت الجموع : انت هو . قال : نعم ، أنا هو . ثالثا الامة العربية ليست نكرة بين الامم . لقد كانت حاضرة في الماضي ، وعندما ترفع رأسها سيعرفها العالم كله .

* * *

هنا نجد انفسنا في مواجهة سؤال ملح يفرض نفسه ويفرض علينا ان نجد له الجواب. هذا السؤال يمكن تلخيصه على النحو التالي : إذا كان وجود الامة العربية مبدا نبدا منه ولانتهي إليه ، ومسلمة نسلم بها ولاتحتاج إلى برهان ، وإذا كانت المنطلقات النظرية لحزب البعث العربي الاشتراكي تقرر ان الوحدة العربية « ليست ... نظرية بحاجة إلى إثبات ، بل هي واقع يحرك أعماق الجماهير العربية من الخليج إلى المحيط » ، اي ان كون العرب امة واحدة واقع لايحتاج إلى برهان أيضا ، إذا سلمنا بهذا كله ، فانه يبقى علينا ان نسأل : من هم ابناء الامة العربية ؟ من هم الأفراد الذين يؤلفون بمجموعهم الامة

العربية ؟ من ينتسب إلى القومية العربية أو ينتمي إليها ؟ ما المعايير التي نستطيع بها أن نميز العرب من غيرهم ؟ بعبارة أخرى من هو العربي ؟ ماتعريف العربي ؟

يجيب فكر حزب البعث العربي الاشتراكي عن هذا السؤال المتعدد الصيغ ببساطة رائعة لاتعادلها إلابساطة القول بأن وجود الأمة العربية ووحدتها لايحتاجان إلى برهـان . تقول المادة العاشرة من المبادىء العامة في دستور حزب البعثالعربي الاشتراكي : «العربي هو من كانت لغته العربية ، وعاش في الأرض العربية أو تطلع إلى الحياة فيها ، وآمن بانتسابه للأمة العربية » .

هذا التعريف واضح لايحتاج إلى تحليل أو تعليق ، ومع ذلك لعله يزداد وضوحاً وجلاء بالملاحظات التالية :

١ ـ يستبعد هذا التعريف كل ما من شأنه أن يشوه إنسانية العروبـة أو يشـوب القومية العربية بأية شائبة من التعصب والتمييز العنصري . فالعروبة في هذا التعريف ليست أصلا عرقيا ، وليست نقاوة دم ، وليست حسبا ونسبا . إن العروبة في هذا التعريف لاتميز بين أبنائها لافي الأصل ، ولافي العقيدة الدينية ، ولافي اللون ، ولافي الجنس ، ولافي الانتماءات الاقليمية أو الطائفية ، ولافي أي شيء من هذا القبيل . إن هذا التعريف تقدمي لأنه إنساني ، وهو تعريف إنساني لأنه يعامل العربي إنسانا .

٢ ـ لايستمد هذا التعريف عناصره من الماضي بقدر مايوجه الانظار نحو واقع الأمة العربية ونحو مستقبلها ، إنه تعريف واقعي ومستقبلي بمعنى أنه يحاول أن يعرف بأبناء الأمة العربية المؤهلين في الحاضر للقيام بواجباتهم القومية ، وبمعنى أنه يحاول أن يعرف المواطن في الدولة العربية المنشودة .

٣ ـ ليس هذا التعريف نظرية في « عوامل تكوين » الامة أو القومية ، ومع ذلك فهو يتضمن العناصر الثابتة والأساسية في إقامة الدولة القوميـة Nation . إنه يلخص هذه العناصر في ثلاثة : اللغة ـ باعتبارها أداة التفاهم والتعبير ، ووعاء فكر الامة وثقافتها وتراثها ـ والارض ـ باعتبارها شرطاً لازما لا غنى عنه لإنشاء الدولة ـ والشعور بالانتماء ، الذي يستطيع أي تحليل سريع أن يكشف لنا أنه يتضمن إرادة العيش المشترك. إن هذا التعريف يأخذ بعين الاعتبار تطور الفكر المعاصر في هذا المجال ، ويقـدم توفيقـا لاتشوبه شائبة بين النظرية الالمانية ونظرية رينان الفرنسية .

• • •

إن قوميتنا هي عروبتنا ، وقوميتنا تقدمية وإنسانية لأنها حركة تاريخية معاصـرة تناضل من أجل تحرير العرب واستخلاص حقهم الطبيعي في أن تكون لهم دولتهم الموحدة الحرة المستقلة الديمقراطية الاشتراكية ـ باعتبار أن إقامة هذه الدولة شرط لازم لقيام العرب بدورهم في بناء الحضارة الانسانية ـ معتمدة في ذلك على نضال أبنائها المؤمنين بانتمائهم إليها ، والمعتزين بهذا الانتماء ، والذين هم على يقين من أن « القومية حقيقـة حيـة خالدة » .

السياسة الخارجية الأمريكية والصراع العربي الاسرائيلي

محيي الدين شاهر

اشارت الاوساط الامريكية الى انها لم تكن تتوقع ان يكون ما حدث ظهرة السادس من تشرين الاول عام ١٩٧٣ على ما كان عليه من حيث التأثير او من حيث النتائج . لذلك لم تكد تصل التقارير الاولى الى الولايات المتحدة ، حتى دعا الدكتور كيسنجر لجنة خاصة من كبار المسؤولين في الخارجية الامريكية ، تدعى عادة في حالات الطوارىء الى عقد اجتماع طارىء ، كما اجتمع مع رئيس أركان القوات المشتركة لدراسة الوضع في الشرق الاوسط . ووجهت الخارجية الامريكية باسم الرئيس نيكسون دعوة الى وزيري خارجية مصر واسرائيل (١) ، لاجراء مباحثات عاجلة معهما ، حول اندلاع الحرب في الشرق الاوسط .

واثر تلقيه الاخبار المقلقة عن الوضع الاسرائيلي في ساحات القتال ، طلب نيكسون يوم (٧) تشرين الأول من كيسنجر دعوة مجلس الأمن للانعقاد . وفي الوقت ذاته بادرت الولايات المتحدة الى اقامة جسر جوي مع اسرائيل ، عبر قاعدة (لاجيس) الامريكية في جزر الازور . وقد قدر عدد الطائرات التي مرت عبر هذه القاعدة خلال (٤٨) ساعة بـ ٦٠٠ طائرة من طراز كالاكاس وبوينغ (٧٠٧) .

---

(١) ادعى الدكتور هنري كيسنجر انه له يتمكن من الاتصال بوزير خارجية الجمهورية العربية السورية .

وفي ١٧ تشرين الأول صعّد العرب معركتهم ، حيث قرر وزراء النفط العرب خفض انتاج النفط بنسبة ٥ ٪ تزداد شهريا بالنسبة ذاتها الى ان يتم استعادة حقوق شعب فلسطين ثم رفعت نسبة التخفيض العامة الى ٢٥ ٪ مع الابقاء على التخفيض الشهري (١)، وقطع النفط كلية عن الولايات المتحدة وهولندا . وكان الاستمرار بتخفيض الانتاج العربي للنفط يعني توقف الانتاج العربي كلية بعد (٢٠) شهرا ، اذا لم تنهض دول العالم الى تحمل مسؤولياتها كاملة حيال الحق العربي العادل . ولقد جاء القرار العربي بحظر النفط مميزا بين ثلاث فئات من الدول :

الاولى : هي المعادية للعرب ، ويطبق عليها الحظر الكلي .

والثانية : هي الدول المحايدة وتحصل على كميات النفط المعتادة ، ولكنها تخضع الى التخفيض الشهري الى أن تتبنى وجهات النظر العربية .

أما الثالثة : فهي الدول الصديقة، وتحصل على الكميات المعتادة وبنسب ماقبل الحرب.

ولقد حاول الرئيس نيكسون اثر اعلان حظر النفط في حديث متلفز ، طمأنة الامريكيين الى أن مضايقات النفط مؤقتة . ثم لم يلبث أن دعا خبراء الطاقة الامريكيين الى اجتماع انفض عن نصائح باتخاذ عدة اجراءات داخلية للتقنين .

وفي (١٩) تشرين الاول طار الدكتور كيسنجر الى موسكو لاجراء مشاورات مع ليونيد بريجينيف أعقبها تبني الدولتين لقرار قدم في (٢١) تشرين الاول ، ويقضي بوقف اطلاق النار ، وبقاء القوات المتحاربة في مواقعها ، اثناء اصداره . غير أن اسرائيل لم تستجب لذلك بل دخلت مغامرات لكسب اقاليم جديدة ، تحاول بها تغيير نتائج الحرب وتدعيم موقفها التفاوضي . لذا أقر مجلس الامن مشروع قرار امريكي روسي ليلة (٢٣ — ٢٤) تشرين الاول يقضي بوقف اطلاق النار فورا ، كما طالب الامين العام باتخاذ اجراءات فورية لارسال مراقبين للاشراف على وقف اطلاق النار .

ولقد التقى وزراء خارجية السعودية والجزائر والكويت والمغرب يوم (١٧) تشرين الأول مع الرئيس نيكسون ، وجاءت نتائج اللقاء مخيبة لآمالهم لذا قدموا النصيحة

---

(١) قررت في الفترة ذاتها عشر دول منتجة رفع أسعار النفط .

لدولهم بضرورة التمسك بوحدة العمل العربي ، ومواصلة النضال بالوسائل كلها ، والضغط الى اقصى حد ممكن ، بالسلاح وبالبترول ، وبالنفوذ السياسي ، حتى يمكن احداث تأثير اكبر على الموقف الامريكي .

ولم تنس الولايات المتحدة القوة أيضا ، فازاء مفاجأة السادس من تشرين الاول ، اطلق الرئيس نيكسون تهديداته بالتدخل المباشر . ثم أعلن المتحدث الرسمي (١) باسم البنتاغون ان القواعد العسكرية في الولايات المتحدة واوروبا الغربية بما فيها القواعد النووية قد وضعت في حالة التأهب رقم (٣) في ساعة مبكرة من صباح (٢٥) تشرين الاول ١٩٧٣ وصدرت الأوامر الى حاملة الطائرات (جون كنيدي) بالاتجاه الى المتوسط ، ووضع الاسطول الاطلسي هو الآخر في حالة التأهب رقم (٣) إلا أن الولايات المتحدة قد اضطرت ازاء استياء الاتحاد السوفياتي وغضب حلفائها الاوروبيات الى التراجع عن استعراض للقوة روع العالم دون أي مسوغ ظاهري جدي يبرره إلا اذا اخذنا بعين الاعتبار قلق الولايات المتحدة من أن تفقد السيطرة على الاحداث الدائرة في الشرق الأوسط وما يشكل ذلك من خطر على مصالحها .

بيد أن القصد من التحرك الامريكي السياسي النشط ومن كثافة ارساليات الأسلحة التي مد بها الجهد العسكري الاسرائيلي ، كان محاولة ضبط الأحداث ضمن حدود معينة دون أي اكتراث بارادات القوى المتحاربة في المنطقة كما يهدد بتعكير جو الوفاق بين الدولتين لان استمرار القتال يحمل مخاطر متعددة لاسرائيل ، وللمصالح الامريكية في المنطقة كما يهدد بتعكير جو الوفاق بين الدولتين الكبيرتين . ولقد كان وقف اطلاق النار أول علامة ايجابية لهذا القصد ، تبعه تحرك سريع للدكتور كيسنجر . ففي السادس من تشرين الثاني استقبل كيسنجر في القاهرة وفي السابع من الشهر ذاته أعلنت الحكومتان المصرية والامريكية عن استئناف العلاقات بينهما على مستوى سفارة ، كان سيسكو في الوقت ذاته يزور اسرائيل ولقد جاء الاعلان عن استئناف العلاقات بين مصر والولايات المتحدة العلاقة الايجابية الثانية على نجاح هذا القصد الامريكي وفي التاسع من تشرين الأول أرسل الدكتور كيسنجر الى الأمين العام

---

(١) يذكر الاستنفار النووي الذي قصد منه استغلال الرعب والترويع بسياسة حافة الهاوية التي كان قد هندسها دالاس .

للامم المتحدة يخبره بالوصول الى اتفاق من ست نقاط بين جمهورية مصر العربية واسرائيل ، ولقد حمل هذا الاتفاق مدلولات خطيرة أهمها :

١ ـ ان مرحلة ضبط الاحداث قد وصلت الى ذروتها .

٢ ـ ان المساعي الامريكية راحت تباشر مرحلة جديدة ، هي مرحلة التدخل في الاحداث بقصد تسييرها وتوجيهها في منحى ترضى عنه الولايات المتحدة واسرائيل معا .

٣ ـ ان الولايات المتحدة الامريكية ، تحركت منفردة ، ودون مشاركة جدية من اية جهة دولية اخرى . وهذا يعكس خطرا كبيرا على المصالح العربية . لان تاريخ الولايات المتحدة في المنطقة ومصالحها غير المشروعة وفعالية القوى الصهيونية في التاثير على الرسميين الامريكيين ، كأسباب تجعلها غير جديرة بالقيام باية وساطة موضوعية وغير متحيزة .

٤ ـ ان مصر قبلت بمبدأ الاتصالات المنفردة ، في المستويين العربي والدولي ، كما ارتضت بالحل المنفرد . وهذا يفصح عن قبول مصر بتجزئة المسألة العربية اولا ، وبتراجع الحكومة المصرية الضمني عن التبني الجدي للاجزاء الاخرى من المسألة الواحدة ، مما يهدد القضية العربية ككل ، وفعالية الموقف المصري الرسمي ذاته في اية مفاوضات جارية او مقبلة .

ورافق ذلك كله مزاعم عن تطور نسبي في موقف الولايات المتحدة ، حيث اعلن كيسنجر: « ان صورة العالم قد تغيرت نتيجة لاحداث الربع الاخير من عام ١٩٧٣ وفي مقدمتها حرب تشرين وهذا يتطلب اعادة تقييم السياسة الخارجية الامريكية تقييما جذريا » . والحقيقة ان هذا التطور النسبي ، واعتراف الدكتور كيسنجر بتأثير حرب تشرين ، لم يصدر عن رغبة الولايات المتحدة الامريكية . بل الأصح أن نقول ان الولايات المتحدة الامريكية قد اضطرت اليه اضطرارا تكتيكيا بفعل نشاط عدد من المتغيرات .

١ ـ لقد جاء حجم حرب تشرين على صورة مفاجأة كبيرة للتكهنات السياسية

الامريكية (١) ، فهي لم تتوقع في ضوء خبرتها بالعسكرية الاسرائيلية أولا ، وفي ضوء معرفتها بكمية الاسلحة ونوعيتها والتي كانت قد قدمتها للعسكرية الاسرائيلية ثانيا ، وفي ضوء نتائج عدوان ١٩٦٧ ثالثا ، لم تتوقع مطلقا أن يقدر العرب على ما استطاعوه في تشرين الأول عام ١٩٧٣ من انجازات عسكرية ، اعتبرها المعتدلون انها نصف نصر عسكري للعرب ونصف هزيمة عسكرية لاسرائيل ، بيد أن أهم ما أنتجته حرب تشرين كان أعظم من مجرد انتصار او نصف انتصار عسكري . كما عرفه الرئيس حافظ الاسد في خطاب متلفز القاه يوم (٢٩) تشرين الأول : « لقد حررنا ارادتنا من كل قيد » و « حررنا صورتنا من كل ما لحق بها من زيف وتشويه » . بالاضافة الى هذا فان حرب تشرين قد رفعت من مستوى التضامن العربي ، الذي أدى على الرغم من أنه لم يعط المردود الكامل المتوقع منه ، الى نتائج عالية الاهمية ، على صعيد العلاقات العربية الذاتية ، وعلى صعيد علاقات الصراع العربي الاسرائيلي مع العالم الخارجي .

٢ ـ لم تكن تتوقع الولايات المتحدة الامريكية أي استخدام عربي لسلاح البترول ، يؤكد ذلك بيان جوزيف سيسكو أمام الكونغرس (أن البلاد العربية المنتجة للبترول خاصة المملكة العربية السعودية ودول الخليج لن تستخدم سلاح البترول ، ان مصالحها الوطنية تأتي قبل تأييدها للنزاع العربي ـ الاسرائيلي) . لذا وعند اعلان حظر النفط باشرت الولايات المتحدة والصهيونية أعنف حرب اعلامية ضده وادعت امريكا ان نسبة اعتمادها على البترول العربي لا تزيد عن ٣ ٪ ثم عادت فرفعتها الى ٧ ٪ وانه من الممكن تعويض هذا النقص من مصادر أخرى متعددة . إلا أن أزمة النفط أدخلت البيت الامريكي في صميم أزمة الشرق الاوسط ، الأمر الذي كاد أن يجعل منها ازمة امريكية خاصة ؛ ثم كشف الرئيس نيكسون في أواخر كانون الاول عام ١٩٧٣ عن مدى أهمية النفط العربي للولايات المتحدة ، عندما هاجم قرار مجلس وزراء النفط العرب الذي اتخذ خلال الشهر ذاته ، والذي أبقى الحظر على الدول المساندة لاسرائيل ، واستغنى عن التخفيض الشهري بتخفيض ١٥ ٪ دفعة واحدة .

---

(١) يؤكد هذا ما قاله كيسنجر قبل الحرب : ان القتال أمر غير محتمل الى درجة انه ليس هناك فرصة تسمح به .

٣ — لم تكن الولايات المتحدة تنتظر هذا التطور في الموقف الدولي من القضية العربية والذي تكشفت عنه الحرب الرابعة بين العرب واسرائيل ، واذا كان قد اعترف الساسة الامريكيون بسبب واحد للتغيير في الموقف الدولي هو حظر النفط ، فهم تجاهلوا اربعة اسباب اخرى :

الاول : عدالة القضية العربية وقوة الموقف العربي اللذان يستندان الى الشرعية الدولية وميثاق الامم المتحدة .

الثاني : ان صورة العربي المستكين الى وقائع (الاوضاع الراهنة) ، كانت صورة مزيفة ، وان العرب في حقيقتهم يملكون بالاضافة الى عدالة الاهداف الارادة القادرة على مباشرة الفعل مهما كثرت التضحيات ، انتصارا لهذه الاهداف . وهذا يعني ان عدوان ١٩٦٧ لم يهزم العرب بالشكل الذي ارادته الصهيونية والولايات المتحدة .

الثالث : ان العرب ماضون في الصراع الى ان تتحقق اهدافهم ، وهذا يعني بالدرجة الاولى ان بؤرة الشرق الاوسط مستمرة الغليان ، وان بانت عليها بعض الجمود في بعض الاحيان . الامر الذي يهدد السلام العالمي ويوجه البشرية اليه . والمسؤولية في هذا الصدد لاتقع على عاتق العرب ، بل على عاتق العدوانية التوسعية الاسرائيلية ، والتي اضطرت كيسنجر ذاته الى التصريح :

« ان امريكا ملتزمة بالدفاع عن امن اسرائيل ولكنها غير ملتزمة بالدفاع عن فتوحاتها » .

الرابع : ان العرب قد ابتدأوا يظهرون على العالم في صورة حد ادنى من التضامن في القول والفعل ، كما انهم راحوا يمارسون نشاطهم السياسي في ضوء خبراتهم الماضية على نهج واقعي متفهم لمتغيرات الواقع الدولي وعوامل التأثير فيه .

ولقد لعبت هذه الاسباب مجتمعة ادوارا متفاوتة التأثير في زرع بذور التغيير في الموقف الدولي ، ولقد تبين ذلك في اوضح صورة في اوروبا الغربية وافريقية .

صرح ميشيل جوبير وزير الخارجية الفرنسية السابق :

« لايمكننا ان نلوم اناسا يريدون العودة الى ديارهم »

واعلنت الخارجية الاسبانية بأن التسهيلات التي تمنحها اسبانيا الى الولايات المتحدة لاستخدامها القواعد العسكرية المشتركة لايسرى مفعولها الا عند وقوع خطر خارجي يهدد امن الغرب . وان استخدام هذه القواعد ليس ممكنا في نزاع محلي كنزاع الشرق الاوسط . ثم تصاعد التذمر الاوروبي رافضا ان تكون الارض الاوروبية معبرا للسلاح الامريكي الى اسرائيل . وشن السياسيون والاعلام الاوروبي الغربي حملة عنيفة ضد استنفار الولايات المتحدة لقواعدها في اوروبا الغربية دون مشورة الحلفاء الاوروبيين . ولقد اعتبر ويلسون هذا القرار الامريكي ، وكان في المعارضة انذاك « اهانة تدعو الى اقصى درجات الغضب » ثم اصدرت دول السوق المشتركة بيانا في السادس من تشرين الثاني (اعرب فيه المجتمعون على اعتقادهم بأن عدم السماح بالاستيلاء على الأراضي عن طريق القوة وانهاء حالة احتلال اسرائيل للاراضي العربية التي تحتفظ بها اسرائيل منذ حزيران ١٩٦٧ ، ومنح الفلسطينيين حقوقهم المشروعة ، هي مرتكزات اساسية للسلام في الشرق الاوسط) .

ولقد اعتبرت الولايات المتحدة هذا البيان ينم عن الجبن والتهيب وقد شاع عن كيسينجر قوله انه (مشمئز من موقف الحلفاء الاوروبيين) .

وفي المستوى الافريقي ، قامت القارة الافريقية بتظاهرة سياسية فريدة من نوعها ؛ حيث بادرت ٢٩ دولة افريقية خلال شهر واحد الى قطع علاقاتها السياسية مع اسرائيل .

واصدر في ١٩٧٣/١٠/١٠ رؤساء وفود دول عدم الانحياز ، المجتمعون في الامم المتحدة بيانا ادانوا فيه اسرائيل ، واعربوا عن تأييدهم التام للشعب العربي . ثم توالت برقيات التأييد ، من الصين التي تدعم — كما جاء في برقية السيد شو ان لاي الى الرئيس حافظ الاسد — (الشعب العربي في نضاله العادل) . ومن دول اوروبا الشرقية ؛ ومن كوريا وفيتنام الديمقراطية ، وكوبا ، والهند والباكستان .

بيد ان التغيير في الموقف الامريكي لم يكن استراتيجيا على أي حال بل كان يستهدف الانتقال الى مرحلة السيطرة على الاحداث كلية ، ومن ثم احتواء الارادات، الامر الذي يسهل مسألة المفاوضات اولا ؛ ويبرز الدور الامريكي فيها ثانيا . وبحيث تقف الولايات المتحدة امام دول المنطقة ودول العالم اجمع ، لتعلن انها صانعة السلام وان المبادرة تبقى في يد الولايات المتحدة في اي منحى ارادت ان توجه خطاها .

« ٢ »

قدم الرئيس انور السادات مفاجأته الاولى بمشروع للسلام اثناء اشتعال الجبهتين وكان ذا اثر تاكتيكي مقلق . لاسيما وان الجندي الذي يصارع الموت من اجل النصر ، لم يكن من المناسب له ، اي حديث من السلام ، بل قد يدفعه الى الريبة من حقيقة اهداف تضحياته ، ثم أصدر الرئيس السادات يوم ١٩٧٣/١٠/٢٢ قرارا يقضي بوقف اطلاق النار مشروطا بالانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، واعطاء الشعب العربي الفلسطيني حقوقه في أن مصر عادت وأصدرت البيان العسكري رقم (٥٥) حيث كانت اسرائيل قد دفعت بدباباتها الى منطقة الدفرسوار (١) مستغلة وقف اطلاق النار بغية تحقيق كسب جغرافي جديد يقوي من مركزها التفاوضي . وما ان طبق وقف اطلاق النار حتى انتقلت النشاطات المصرية كلية الى الموائد السياسية ماشية على مسارين ، الاول معلن والاخر سري ، وخرجت القضية الى البعد الدولي ، بعد ان ابتدا البعد المحلي يتراجع تدريجيا . ونشطت جهود اسرائيل والولايات المتحدة في منحى تمييع النتائج العسكرية ، فعملتا على الخلط بين جانبي المسألة العسكري والسياسي ، واجتهدتا ان تتم اية خطوة من خلال عملية مقايضة جغرافية (الانسحاب من الضفة الغربية للقناة مقابل انسحاب مصر من الضفة الشرقية) وارادتا الوصول الى نتائج تتجاهل الانتصار المصري العسكري وتستند الى ان الحرب قد انتهت الى (لاغالب ولا مغلوب) ودخل الطرفان في لعبة الاقتراح المضاد ، الى ان وصلت المباحثات الى الطريق المسدود حيث سارع الدكتور كيسينجر فانقذها ، وكرس الدور الامريكي المنفرد .

وعلى الرغم من المكاسب الجغرافية التي حصلت عليها مصر ، فانها من خلال معالجتها لمسألة الرجوع الى خطوط ٢٢ تشرين الاول ومباحثات الكيلومتر (١٠١) والمباحثات غير المباشرة التي قام بها كيسينجر بين الرئيس السادات وغولدا مائير قد دفعت بالاحداث الى نتائج سلبية كادت تقلب الموقف العام رأسا على عقب ، ومن اهم هذه النتائج السلبية :

١ ـ انها فتحت اوسع المجالات امام السياسة الامريكية ، لتظهر بسمة جديدةتختلف عن واقع نشاطها فبدت وكأنها انتقلت من حال راعية العدوان الى حال راعية السلام . كما

---

(١) ان حقيقة الخرق مازال مثار تساؤل كواقعة عسكرية ويميل بعضهم الى وصفه بانه عمل سياسي ودعائي اكثر مما كان عملا عسكريا . وكان المقصود منه اعداد الاسباب للتوازن التفاوضي والسياسي في مرحلة مابعد وقف اطلاق النار .

انها كادت لولا استمرار موقف الاتحاد السوفياتي ، ان تخل بتوازن الموقف في الشرق الاوسط على المستوى الدولي . اذ ابعدت بصورة مهينة الاتحاد السوفياتي عن أية مشاركة جدية ، على الرغم من مساندته ودعمه للموقف العربي الامر الذي قد يوفر للولايات المتحدة الانفراد بمعالجة المسألة على المستوى الدولي كما هو الحال على مستوى ادارة المفاوضات .

٢ ـ ضربت التنسيق القائم مع الجمهورية العربية السورية ، وتنكرت لشراكة الدم والمصير في حرب تشرين ، وانفردت بالعمل السياسي من أجل الجبهة المصرية ، الامر الذي كاد يهدد وحدة موقف القطرين ، ويفرط عقد التضامن العربي .

٣ ـ اعطت الحكومة المصرية الافضلية في المواجهة للعمل السياسي ، الامر الذي يعني اندفاعا ملحوظا نحو الولايات المتحدة ، واندفاعا جديدا للولايات المتحدة في المنطقة .

٤ ـ وضعت العراقيل امام اية معركة عسكرية مقبلة قد يضطر العرب الى خوضها بسبب من استمرار التعنت الاسرائيلي واحجامه بالتالي عن تنفيذ قرارات الامم المتحدة . وتتوضح هذه العراقيل في هبوط مستوى جاهزية الجيش المصري بسبب من موقف الحكومة المصرية من الاتحاد السوفياتي والتكاسل على توريد الاسلحة الى مصر وفي بذر الريبة في جدية اخلاص الحكومة المصرية لاي عمل مشترك بين سورية ومصر .

وفي اطار هذه الوقائع السلبية ، اضطرت الجمهورية العربية السورية الى التفكير بما من شأنه أن يعيد المبادرة مرة أخرى الى الارادة والمصالح العربية . قبلت (١) بقرار وقف اطلاق النار . لاسيما وان المتلاقين قد تحركا بسرعة تقدما مشروعا مشتركا يقضي بوقف اطلاق النار فورا ، بيد ان حكومة الجمهورية العربية السورية على الرغم من التطمينات التي تلقتها وعلى الرغم من نتائج المشورة العربية ، كانت على أشد القلق مما يجري في المنطقة ، فالسياسة الامريكية ، حققت نجاحات ملحوظة ، حيث انفردت مع كيسينجر في محاولة واضحة للعبث بكل ايجابيات حرب تشرين . اذ استطاعت اولا ان تدفع تدريجيا

(١) قال الرئيس حافظ الاسد في حديث متلفز مساء ٢٩ تشرين الاول : كان صدور هذا القرار ـ ويعني به قرار مجلس الامن القاضي بوقف القتال ـ مفاجاة لنا ، بل اننا لم نعلم بوجود مشروع القرار ، وبدعوة مجلس الامن للانعقاد الا بعد ان تناقلته دور الاذاعةووكالات الانباء .

بالعلاقات المصرية ـ السوفياتية مرة اخرى الى سوء التفاهم على الرغم من التحسن الذي طرا عليها خلال الحرب ، وابعدت ثانيا ، الاتحاد السوفياتي عن مساعي السلام ، ودفعت ثالثا ، بمصر الى الاخلال بالاستخدام المتوازن للنضال في الميدان العسكري والسياسي ، ونجحت رابعا ، في تفتيت ارادة القتال على الجبهتين الى ارادتين قد يسهل معهما فرض الارادة الامريكية الاسرائيلية .

وكان هذا يعني في الحقيقة ان الدكتور كيسينجر قد مضى بعيدا في الانتقال الى مرحلة (تسيير الاحداث) تمهيدا لاحتواء الارادات المتصارعة ، وفرض الموقف الامريكي ، فالنتيجة على المفاوضات ، الامرالذي يعنيبالضرورة تفريغحرب تشرين منمبرراتها ونتائجها ، وقصرها على الوقوف عند حدود محاولة لتحريك الاحداث الراكدة منذ عدوان حزيران١٩٦٧ ،اضف الى هذا ، ان الفصل على الجبهة المصرية قد تم دون اي حديث جدي عن الجبهة السورية، باستثناء قلة من التصريحات القائلة بصعوبة اجراء الفصل ، او المتعلقة بالاسرى ، واهمية الجولان لامن اسرائيل .

وبمعنى ادق ان الموقف قد تجمد على ما كان عليه عند وقف اطلاق النار . بادرت الجمهورية العربية السورية الى مابعيد الاحداث باتجاه المصلحة العربية ، فباشرت حرب استنزاف مكثفة وثقيلة ، استمرت في صورة قتال عنيف فوق قمم جبل الشيخ والجولان لمدة /٨٢/ يوما . وقد اضطرت مصر الى الاعلانرسميا عن ان اسرائيل وحدها المسؤولة عنتصعيد العمليات العسكرية في الجولان كما اعلن القائد العام للقوات المصرية (ان حرب الاستنزاف التي تجري حاليا على الجبهة السورية ، في حال ان يصبح الموقف حرجا .. فان مصر سوف تشارك بالقتال بلا شك) .. واعربت وزارة الدفاع الامريكية عن خشيتها من انه لا يمكنتجنب احتمال حدوث مواجهة عسكرية اخرى بين سورية واسرائيل . ولقد نجحت سورية من خلال حرب الاستنزاف في تحقيق عدد من النتائج الهامة :

١ ـ حافظت علىمبدأية المطالب العربية ، واكدت علىانها مطالب كاملة لايمكنالتفريط باي جزء منها . وبمعنى ادق حافظت على جوهر بواعث المبادرة التي اطلقتها الارادة العربية ظهر السادس من تشرين ١٩٧٣ ، وبذلك ، اوقفت تدهور الموقف العربي ، واعادت له توازنه . لا سيما وان العالم كان قد ابتدا يتفهم شرعية النضال العربي على أساس تحرير الاراضي المحتلة كلها واستعادة الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني .

٢ ـ فاجأت حسابات الولايات المتحدة الامريكية ، والمخططات التي رسمتها مع اسرائيل لترتيب الاوضاع من جديد . لاسيما وان سهولة التحول التي تمت في الموقف المصري(حرارة الاندفاع وراء الحل السياسي ، والقبول بتجزىء الجبهات وتجزىء النضال ، والعمل المنفرد) قد اوحيا للرسميين الامريكيين والاسرائيليين بان شرارة تحريك الاحداث قد انتقلت كلية من الايدي العربية ، سيما وان الاعتقاد كان قد ساد بأن الموقف العربي مختصر بالموقف الرسمي المصري ، بمعنى ان تغيير الموقف المصري يستتبع بالضرورة تغيير الموقف العربي .

٣ ـ اعادت الدكتور كيسنجر الى الواقع بعد طفرة النجاح مع مصر ، مما جعله على خشية من مدى صلابة النتائج التي حصل عليها . فالارادة العربية لم تزل قادرة على الحركة، بعيدا عن المناورة او التطويع ، وبعيدا عن الثقة التي اعطتها مصر له من دون جدارة .لاسيما وان الاعتبارات العربية قد تضطر رسميي مصر مرة اخرى الى الاستجابة لجوهر الصراع ، الامر الذي قد يهدم الهرم الكبير الذي بني بوقت قصير جدا ، ويفجع المفاوض الامريكي بنجاحاته كلها .

٤ ـ اعادت الى الموقف العربي شيئا من التلاحم ، وبالتالي شيئا من القوة ، واعادت من ثم القضية الى المنطقة ، بحرارتها وتوترها ، بعد ان بدا انها رجعت من جديد الى دهاليز العمل السياسي . وقد ايد العرب الموقف العربي السوري ، حيث حيا مجلس الجامعة العربية الوزاري المنعقد في تونس (٢٥ ـ ٢٨) اذار ١٩٧٤ القوات العربية السورية ، واكد على ضرورة تنفيذ مقررات القمة العربي السادس المنعقد في الجزائر التي طالبت بمواصلة معركة التحرير مهما طال امدها ، بالوسائل كلها ؛ الى ان يتحقق السلام العادل . وغيرخاف ان احياء التضامن العربي وحشده لصالح القضية العربية ، في اطار من الصراع العسكري قد يدفع بالعرب الى مواقع متقدمة (١) لا تنسف كل النقاط التي نجح كيسنجر في كسبها ، وحسب بل سوف تزيد منخطورة وضع اسرائيل ، ومن تورط وتعقيد موقف الولايات المتحدة. لاسيما وان مصر قد اضطرت على لسان رسمييها من العسكريين الى الاعلان بان مصر لاتستطيع الا المشاركة في حالة دخول القتال مرحلة حرجة .

---

(١) اشارت بعض الصحف الغربية انذاك ،الى انالرئيس أنورالسادات قدتعهدلكيسنجر بالتوسط لدى الدول العربية المنتجة للنفط ، كيما ترفع الحظر على النفط ، وقد رفع الحظر بالفعل اثناء معارك الجولان وجبل الشيخ .

٥ ـ على الرغم من الجو السياسي العربي والدولي الذي دارت فيه معارك الجولان وجبل الشيخ ، فانها قد ألقت بعض الاضواء على وقائع حرب تشرين ، لاسيما فيما يتعلق بالجانب العسكري من هذه الوقائع ، وبخاصة على الجبهة الغربية ، فمن جهة اولى وضعت نهائيا الجندي الاسرائيلي في حجمه الحقيقي ، واكدت للجندي العربي حقيقة ما هو عليه في الواقع ومن جهة ثانية كشفت ابعاد الخرق الذي تم في الجبهة الغربية ، سواء فهمناه على انه مغامرة عسكرية صرفة او فهمناه على انه عمل ارادته الولايات المتحدة الامريكية للحفاظ على توازن النتائج العسكرية لحرب تشرين .

٦ ـ كشفت معارك الجولان وجبل الشيخ بنتائجها العسكرية والسياسية ، أهمية النضال العسكري لتحقيق المطالب العربية . كما كشفت فساد المساعي الدعائية الاسرائيلية، التي راحت تنشرها اثر وقف اطلاق النار عن قوتها العسكرية ، وعن هزيمة العرب الساحقة فيما لو استمر القتال .

وفي الجو الساخن لمعارك الاستنزاف ، نشطت الاتصالات بين اسرائيل والولايات المتحدة، وبين سورية والولايات المتحدة ، وكذلك بين سورية والاتحاد السوفياتي ، والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، بشأن اجراء فصل مماثل على الجبهة السورية . فاسرع الدكتور كيسينجر الى المنطقة واستطاع عبر مفاوضات صعبة وبطيئة اضطرته الى أن يزور القطر العربي السوري / ١٢ / مرة ، الوصول الى اتفاق لفصل القوات على الجبهة العربية السورية ، جاء كما يؤكد الدكتور جمال حمدان ، نصرا للارادة العربية السورية على ارادة العدو (١) ، وتعبيرا عن النصر الحقيقي الذي حققته سورية في حرب تشرين ،وعن موازين القوى الجديدة بعدها .

ولقد اعلن الرئيس نيكسون في بيان متلفز في ٢٩ ايار ١٩٧٤ عن التوصل الى اتفاق ، على الجبهة السورية وصفه بانه كسب دبلوماسي كبير ، وانه يمثل خطوة واسعة نحو احلال السلام العادل في منطقة الشرق الاوسط . كما أرسل السيد ليونيد بريجنيف رسالة الى الرئيس الاسد قال فيها :

---

(١) ٦ اكتوبر في الاستراتيجية العالمية ـ الدكتور جمال حمدان صفحة ٢٢١

(ان هذا الاتفاق هو فاتحةتحرير الاراضي السوريةالتي يغتصبها المحتلونالاسرائيليون وهو حصيلة النضال الباسل لسورية والذي يلقى الدعم المتواصل من الاتحادالسوفياتي، والدول الاخرى الصديقة لسورية) .

ولقد اعتبرت الجمهورية العربية السورية ان اتفاقية الفصل هي اتفاق عسكريصرف يتعلق بالفصل بين القوات العسكرية . كما اكد السيد عبد الحليم خدام نائب رئيسمجلس الوزراء وزير خارجية الجمهورية العربية السورية ان اتفاق الفصل (خطوة لتنفيذ القرار ٣٣٨ وضمان حقوق الشعب الفلسطيني) .

وتتميز اتفاقية الفصل على الجبهة العربية السورية بانها :

١ - ليست اتفاقية سلام بل هي خطوة نحو تنفيذ مضمون القرار رقم /٣٣٨/ وبما يقود الى الانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

٢ - ان هذه الاتفاقية قد تمت بالتنسيق مع الاتحاد السوفياتي حيثكان السيداندريه غروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتي قد اعلن في ٢٩ ايار انه قد تم تبادل الاراء حول مسألة فصل القوات « وان القيادتين العربية السورية والسوفياتية تقومان باتصالات حول هذا الموضوع كما تتفقان موقفا موحدا من هذا الموضوع ، واثناء اجتماعاتنا التي عقدناها تم التقاء في وجهات النظر » وبذلك تكون سورية قد اعادت التوازن الاستراتيجي الدولي في بذل مساعي السلام . بعد ان كان الرسميون المصريون قد خلخلوه ، بالقبول بالانفراد الامريكي في معالجة المسألة .

٣ - انها جاءت بعد /٨٢/يوما من المعارك ، اضطرت الولايات المتحدة واسرائيل الى احترام الشروط العربية السورية .

٤ - لقد فشلت مساعي كيسينجر في تقييد نشاط الفدائيين الامر الذييهدد باستمرار بتعقيد الاوضاع . لاسيما وان الفدائيين بنشاطهم يرتبطون جذريا بالقضية الفلسطينيةالتي تملك قداسة خاصة بالنسبة للوجدان العربي .

وعلى الرغم من ان دولتي المواجهة ، قد اعلنتا عن اتفاقيتي الفصل على انهما مجرد اتفاقيتين عسكريتين ، لاتحملانهما اية اشتراطات او تنازلات سياسية فان الولايات المتحدة قد نظرت الى هاتين الاتفاقيتين ، بمنظار مختلف ، فرات فيهما :

١ ـ بعض التعديل في الموقف العربي السابق ، والذي كان يرفض اي شكل من اشكال المفاوضة ، او اي مؤتمر يجمعهم مع اسرائيل . وهذا يعني ان الاتفاقتين قد غيرتا الكثير من (المواقف الصلبة) ، « واحلتا مبدأ الوساطة وامكان التسوية محل الاعتبار بعد ان كان محل الاستحالة او الاستبعاد » .

٢ ـ لقد كان ثمة تعارض حاد بين دول القوتين العربيتين : الاقتصادية والعسكرية قبل الحرب ، ولقد كانت الولايات المتحدة تخشى تنامي اي تفاهم بين القوتين العربيتين لاسيما وان حرب تشرين قد اظهرت امكان تنامي مثل هذا التفاهم .

٣ ـ ان الاتفاقيتين قد فتحتا المجال امام توازنات جديدة في المنطقة ، ومن دون ان تخلا بالانفراج التراحمي بين العملاقين . والولايات المتحدة بناء على ذلك تملك الفرصة الكبيرة لان تكون القوة الاكثر تأثيرا على الوقائع الجديدة ، وبخاصة في مسالة النفط العربي .

« ٣ »

لقد بانت التطورات السريعة التي اعقبت تشرين ، عن ان حركة الواقع تسير في منحى الصالح العربي ، سيما وان العرب بمعونة حرارة جو الحرب ونتائجها قد استطاعوا فرض حظر النفط ورفع سعره . حيث تدعمت قوتهم الاقتصادية وتزايد دورهم العالمي وهم اذا ما حافظوا على زمام المبادرة ، واحسنوا الاستفادة من وضعهم الجديد على المستويين الذاتي والدولي ، فسوف يهددون الدور العالمي للولايات المتحدة على الاقل في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، لذا كان عليها ان تتحرك وهي تواجه واحدا من احتمالين :

الاول : ان تجابه نتائج تشرين بمباشرة جولات من العنف ، قد تزيد من مكتسبات التضامن العربي ، فتصل الى الدرجة التي يقوي تأثيره فيها على حركة المتغيرات في الوطن العربي ، فتضطر الحكومات العربية الى نبذ الفرقة نهائيا والى تعميق عناصر الاتحاد وبحيث

تكره الولايات المتحدة على التعاون مع دول قوية بتلاحمها ، متحررة في مجالات السياسة والطاقة والنقد . الامر الذي سوف يقود الولايات المتحدة الى وضع صعب مع المنطقة كلها وبالتالي الى الحد من نفوذها فيها .

الثاني : ان تتخلى شكلا عن تصلب ظاهري في عدائها للمصالح العربية ، ثم تعمد الى تشتيت الموقف العربي ليس بالمواجهة ولكن من خلال التدخل السري (١) وما تدعيه من صداقة العرب وان هذا الحل وان كان اكثر تعقيدا الا انه يوفر لها استقرار مضمونا في تعاملها الاقتصادي والسياسي مع الاقطار لعربية .

وبعد أن ثبت عجز اسرائيل عن القيام بالدور الذي كانت تراهن عليه الولايات المتحدة من قبل ، يبدو أن السياسة الامريكية قد اختارت انتهاج الاحتمال الثاني جديا في تعديل استراتيجيتها في منطقة الشرق الاوسط . فاسرائيل الحارسة للمصالح الامريكية باتت انها تحتاج الى حماية الولايات المتحدة . لذا فان الاعتماد الكلي على اسرائيل مرافقا بعداء العرب يهدد المصالح الامريكية في المدى البعيد . ان كيسنجر الذي اعلن عن حاجة الولايات المتحدة الى استراتيجية تستمر عشرات السنين لابد وأن يفكر ببدائل تنسجم مع الاحداث الراهنة ومع مناورات تطورها ، والجهد الذي بذله الدكتور كيسنجر لتحقيق اتفاقيتي الفصل على الجبهتين يتوخى بالتأكيد تحقيق أكثر من مجرد اثارة اعجاب الآخرين بمقدرته التفاوضية . والارجح أن الاهداف التالية هي من اهم ما يشغل كيسنجر والسياسة بعد حرب تشرين :

١ ــ محاولة تصفية ما لا يمكن للولايات المتحدة استغلاله من نتائج حرب تشرين ويأتي على رأس هذه النتائج السعي لتصفية التضامن العربي بتأكيده الحقيقي على المصلحة العربية وما ينتج عنه من مركز ممتاز حققه العرب على المستوى الدولي .

٢ ــ تقوية علاقات الولايات المتحدة مع الدول العربية فرادى ومحاولة تجاوز حالة

---

(١) يرى كيسينجر (ان القدرة على تحريك واثارة قلاقل داخلية في اجزاء كثيرة من العالم يمثل ضغطا اكثر فعالية من ، التدخل المسلح) مفهوم السياسات الخارجية الامريكية. الدكتور حسين شريف ــ الصفحة ٢٤ .

العداء السابق أولا ، والسعي لتطويع القوة الاقتصادية العربية ثانيا لاسيما وأن حاجة الولايات المتحدة للنفط تزداد يوما بعد يوم ، كما تزدادحاجتها الى فائض النقد العربي .

٣ ــ الاستمرار بتقديم احتياجات اسرائيل كلها ، فامكانية النفع منها لم تنته بعد ولكن ليس في اطار قوة استراتيجية تعمل في الشرقالاوسط منفردةلصالح الولاياتالمتحدة.

٤ ــ محاولة السير بالمنطقة الى ما كانت عليه قبل عام ١٩٦٧ على أن يتم ذلك في ظل السياسة الامريكية وفي اطار مزعوم من الصداقة مع أمريكا ، مع محاولة تسكين البؤرة الفلسطينية الى أمد ما ، وامتصاص ثورية حركة القومية العربية ، وافراغها منمضمونها الاجتماعي ان استطاعت الى ذلك سبيلا .

واننا اذا تتبعنا محاولات ونتائج سياسة المكوك Chuttel Diplomacy ان نلاحظ ان السياسة الامريكية استطاعت ان توفر شيئا من المناخ الملائم لانجاز هذه الاهداف . فقد تردت المسألة الى حالة من التسويف والركود ، اثر اتفاقيتي الفصل على جبهتي سيناء والجولان وذلك لأن توقف الحرب ، واختيار جمهورية مصر العربية التفرد بالعمل السياسي ، قد قادا الى تبريد المناخ الساخن الذي كان يضغط على الجميع كما أن الدول النفطية منشغلة ــ كما يبدو ــ بمواجهة الضغوط التي تمارسها الولايات المتحدة بسبب اسعار النفط وما يزعم من تاثيرها الكبير على التضخم Inflation العالمي (١) وازاء هذه الحالة من الركود وأمام المساعي التي كانت تبذل لاثارة صراع جديد بين الملك حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية حول ــ الضفة الغربية ومسألة تمثيل الفلسطينيين ــ ، دعت الجمهورية العربية السورية الى عقد القمة العربية ، ونجحت بعد كثير من التسويف والعقبات في اقناع الرؤساء والملوك والأمراء العرب بضرورة الالتقاء، وكان لها ذلك حيث عقدت القمة العربية في الرباط في ١٩٧٤/١٠/٢٦ ولقد نقل الجو العام ، الى داخل المؤتمر ، فالقى الامريكيون ثقلهم لافشاله لذا سارت أعمال المؤتمر في ظل تدافع اتجاهين أساسيين :

---

(١) يرى الهادي نويرة رئيس الوزراء التونسي في خطاب له ، ان نسبة تاثير النفط على التضخم تقل عن ٢ ٪ (النهار ١٩٧٥/١/٤) .

الأول : وقد عقد المؤتمر ، اذن تجب الحيلولة دونه واصدار قرارات جديدة على مستوى من القوة تتعارض مع منجزات واتجاهات السياسة الامريكية وبخاصة فيما يتعلق بمسائل ثلاث ، ضرب التضامن العربي أولا ونسف ما حققه الفلسطينيون ثانياً وعزل القطر العربي السوري ثالثاً .

الثاني : استعادة مضمون التضامن العربي وزج الامكانات العربية في معركة موحدة شاملة والاعداد لصدام عسكري قديكون لابد منه في ظل المناورات الاسرائيلية ـ الامريكية .

ولقد نجح الاتجاه الثاني ، وخرج مؤتمرو قمة الرباط بعدد من القرارات أهمالثلاثة :

١ ـ أعلن المؤتمرون ، وبموافقة الاردن ، أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني .

٢ ـ رفض المؤتمرون الحلول الجزئية او الخطوات المنفردة .

٣ ـ قرروا تقديم الدعم لدول وقوى المواجهة .

وبدا أن الوضع العربي قد رمم بشكل صحي وأن العرب قد عادوا الى معركتهم بجهد موحد الرأي والعمل ، غير أن المساعي الامريكية لم تيأس ، بل واصلت جهودها غير مكترث بقرارات الرباط الامر الذي أفضى فيما بعد الى ثلاثة اتجاهات واضحة ، سيطرت على المناخ العام للموقف العربي .

الاول : ويغلب العمل السياسي على العمل العسكري ، وينشط مع الولايات المتحدة بقصد تجزيء الواقع ، والوصول الى حلول منفردة .

الثاني : يبتعد عن المسألة كلها ، ملتحفاً المزاودة والشعارات التي لا ترتبط بالواقع .

الثالث : ويستمر في اعداد العوامل التي تساعد على تحقيق الهدف العربي المرحلي وبما يضمن الاستمرار في تسخين الواقع أمام الاتجاهين السابقين وامام المساعي الدولية ويوفق بين هذا الحال والنضال السياسي .

مقولة جوهر الإنسان في الماركسية

د. فيصل دراج

لا تنطلق طريقتي التحليلية من الانسان ، بل من الفترة الاجتماعية المعطاة اقتصاديا .

كارل ماركس

اكتشف كارل ماركس في « مخطوطات ١٨٤٤ » أن للعمل دورا جوهريا في الوجود الانساني ، فالانسان لايتميز عن الكائنات الاخرى الا بفاعليته النشطة التي تترك بصماتها على الانسان والطبيعة التي هي الحقل الذي يجسد فيه الانسان فاعليته ، فالعمل هو الذي يميز الانسان ككائن نوعي ويجعل من حياته حياة نوعية ، أي لا يستمد الانسان انسانيته بكل أبعادها الا بفاعليته الخلاقة ، والانسان انسان لانه يعمل على صياغة الطبيعة انسانيا ، يترك فيها آثاره ويشيد عليها ، وهو بذلك لا يقوم بصياغة الطبيعة فقط بل يصوغ ويعيد صياغة نفسه أيضا . ويطور الانسان خلال عملية العمل هذه نفسه ويفتح مجالا لتجسيد كل فاعليته المادية والروحية . ويعني العمل عند ماركس كل فاعلية تتضمن العنصرين الآتيين :

١ ـ التعبير عن الفكر الانساني وتجلياته في المواضيع الخارجية .

٢ ـ الخلق الذاتي للانسان النابع من عمل الانسان على تحويل الطبيعة .

ويرى ماركس « المخطوطات » أن عمل الانسان مرآته التي يرى فيها آثار صفاته وقدراته وامكاناته ، فهناك تطابق بين الانسان وفعله ، يترابط تطوره ديالكتيكيا .

فالانسان يحوّل بفعله الطبيعة ، يغيّر وجهها ، يؤنسها ويجعلها جزءاً منه ، لكنه في الوقت نفسه يطور ذاته وأنسيته ويعيد صياغتها ، فينخلع عن الطبيعة كوجود خام ليصبح سيداً لها .

ان فعل العمل يموضع تصورات الانسان . وعند وصفه لعملية العمل ، يقوم ماركس بالقاء الضوء على فاعلية الذات من حيث هي تموضع عفوي ، وحر ، ودون قيود . فالعمل هو المجال الذي تتحقق فيه ذاتية الانسان . والانتاج العمل هو « تموضع الحياة النوعية للانسان » و « يبدأ الانسان بالبرهنة فعلا على وجوده النوعي ؛ عندما يبدأ بالتحديد في صياغة العالم الموضوعي ، وهذا الانتاج هو حياته النوعية ، وتبدو الطبيعة بفضل هذا الانتاج كعمل وحقيقة الانسان نفسه ، فموضوع العمل هو اذن تموضع حياة الانسان النوعية » (١) . لا يقوم الانسان بالعمل بمضاعفة نفسه بالمعنى المادي للكلمة فقط ، فهو يغتني ماديا بتلبية حاجاته المادية ويغتني ثقافيا ومعرفيا ايضاً ، ويعود بعد ذلك ليتأمل ذاته في صورة ما خلق . بمعنى آخر ، الانسان خالق لذاته ، يتطور بعمله ، ويعكس ذاته ويجدها فيما يخلق .

يعرف الانسان ذاته من خلال عمله ، فيتجلى الشيء المصنوع في الوعي كمعرفة من ناحية وكأداة لتلبية حاجة مادية من ناحية ثانية ، ويشير الشيء المصنوع الى الانسان ليتلمس قوته المبدعة في تحويل الطبيعة وليعاين ذاته في العالم الذي خلقه (٢) .

لا يتحقق العمل بوساطة عمل فردي معزول ؛ بل بعمل جماعي هو في جوهره اجتماعي . فهناك وحدة بين الانساني والاجتماعي ، ولا يأخذ الانساني معناه الا من خلال محايثته للاجتماعي ؛ فالفرد لا يبدع عندما يكون جزيرة معزولة ، فكل انتاج انساني ، اجتماعي بالضرورة ، ولا يصبح الانسان انسانا الا بقدر تكامله واندماجه في المجتمع : « الصفة الاجتماعية هي الصفة العامة لكل فعل ، وكما ينتج المجتمع الانسان من حيث هو انسان ، فهو بدوره انتاج هذا الاخير . فالفاعلية والفائدة من حيث المضمون ونوع النشأة اجتماعيان » (٢) .

يتواجد هذا المفهوم المؤله للعمل لدى ماركس الشاب ، ويبلغ أوجه في « مخطوطات ١٨٤٤ » الذي يقع نظريا في مفترق الطرق في مسار ماركس الفلسفي ، فهو الوليد الشرعي لاثر فيورباخ على ماركس . وعلى الرغم من أن ماركس يتكلم في مخطوطاته عن لغة

اقتصادية ، فانه يبقى نظريا حبيس الحقل « الفيورباخي » المحكوم بمشكلية انثربولوجية؛ فالانسان هنا هو الجذر والاساس والمطلق ؛ كائن نوعي يتصف بقدرته على الخلق والابداع من حيث هو كائن ذو جوهر خاص ومتميز .

« مخطوطات ١٨٤٤ » كتاب عجيب في قدره : احتضنه كل الماركسيين حينا ، ثم عاد بعضهم فطرده من ربوع النظرية الماركسية ، وبقي البعض ينظر اليه بريبة وعدم ارتياح ، كما نجد في الوقت نفسه فريقا من الماركسيين والمتمركسين يحتضنه بحماسة لامتناهية ، لقد ارتفع ظل « المخطوطات » عندهم حتى غيب كل ما كتبه كارل ماركس من بعد بما فيه « رأس المال » . فأقام البعض اعتمادا على مقولات المخطوطات « جوهر الانسان ، الانسان النوعي الشامل » علم النفس ، واقام آخرون مفهوم الفن . وتوارى عند البعض علم التاريخ باسسه المادية وقبع حسيرا وراء المقولات الفيورباخية .

يحاول الفيلسوف الهنغاري غريغوري ماركس ، بالاعتماد على المخطوطات ، أن يقدم تفسيرا انتربولوجيا للتاريخ معتمدا على علاقة الذات بالموضوع ، علاقة الانسان بالطبيعة المحكومة بعملية العمل « يسمح العمل للانسان ان يعيش في عالم ملتبس بالعمل ، فالاشياء التي تحيط به تعبير عنه ، عن تموضعه . فتاريخ الانسان اذن هو تاريخ الانتاج المتجدد باستمرار لصالح خدمة الانسان ، وتاريخ خلق وتراكم القدرات والصفات المتجددة ابدا . ولايطابق الانتاج في الواقع اشباع رغبة الانسان المتجددة باستمرار » (٤) .

يعتقد غريغوري ماركس Markus ان العلاقة مابين الانسان ورغباته تحدد تطور التاريخ ، فالانسان ينمو وتنمو رغباته ، وكلما نمت هذه الرغبة دفعت الانسان للعمل من أجل تحقيقها ، وعندما تتحقق تخلق رغبة جديدة وهكذا ... ويصبح التاريخ بهذا المعنى فراغا زمنيا يتفتح فيه الانسان العامل لاشباع رغباته ، فما التاريخ الا تاريخ تطور رغبات الانسان وتحققها ، أي عملية نمو الانسان وتفتحه . ان مثل هذا الموقف المنطلق من الماركسية ينفي الماركسية ذاتها . فالتاريخ عند ماركس تاريخ أنماط الانتاج وتطور العلاقات الانتاجية ، فلا ينطلق ماركس في فهمه للتاريخ من مقولة الفرد ، بل من الشرط التاريخي المحدد اقتصاديا .

لا يبتعد كارل كوسيك في كتابه « ديالكتيك المشخص » عن موقع ماركس ، فهو يبني التاريخ على مقولة « البراكسيس » التي تأخذ عنده معنى فضفاضا .

يقول كوسيك « لا تنطلق الماركسية من الشكل التاريخي المحدد للعلاقات العملية بين الانسان والطبيعة ، بل تنطلق من السؤال : ما هو الانسان ، وما هو الواقع الاجتماعي ، وكيف خلق هذا الواقع ؟ » (٥)

« ان البراكسيس مجال الكائن الانساني ، ولايغتني الوجود فقط بالعمل الانساني ، لكن هذا الوجود يتجلى أيضا للانسان من خلال عمله وابداعه كوجود كوني خلقه الانسان . وهكذا يصل الانسان الى اكتشاف حقيقة الانسانية ، حقيقة ذات دلالة كونية » (٦) .

« يكتشف البراكس من حيث جوهره وكونيته سر الانسان ككائن خالق للكون ، ومنتج للواقع ، ويصبح بالتالي قادرا على فهم وشرح الواقع الانساني والواقع الخارج عن الانسان . البراكس هو الوحدة الفاعلة بين الانسان والعالم ، المادة والفكر ، الذات والموضوع ، الانتاج والمنتج ، وتنتج هذه الوحدة الفاعلة نفسها تاريخيا ، اي تجدد وتعيد بناء نفسها باستمرار في الممارسة » .

يعود كوسيك ليوسع دلالة البراكس ، فهو ليس فقط خلق العالم عن طريق العمل بل يتضمن لحظات وجودية ، فعملية تحويل العالم بواسطة عمل الانسان وموضعه تولد لحظات « العذاب ، والغثيان ، الخوف ، والفرح ، الضحك ، والأمل ..... ، التي لا تبدو « كتجربة » سلبية ، لكنها تشكل جزءا متكاملا من النضال من أجل المعرفة ، أي من عملية تحقق حرية الانسان . وبدون اللحظة الوجودية يكف العمل عن وجوده كجزء متكامل من البراكس » .

ان كوسيك يقيم علم التاريخ بدوره على مقولة الانسان الذي يتحقق بعمله خلال التاريخ ، ولانرى في اطار هذه الفلسفة المتمركسة أثرا للصراع الطبقي ؛ فلا تتحدد حلبة التاريخ بالصراع الاجتماعي الذي يعكس وضعا اجتماعيا محدد اقتصاديا ، بل بذات مجردة شبيهة بالفكرة عند هيجل ، تهيم في زمان ضبابي باحثة عن تحققها . ينطلق كوسيك هنا من الانسان كموضوع ، فيجدد بذلك الفلسفة البورجوازية بلفظية ماركسية ، ويصل الى شفاف فلسفة ذاتية محضة ، فلا نرى في تحليله مجتمعا أو مجتمعات ، ولا علاقات اجتماعية ، لكننا ازاء فضاء رحب لا متناه تقف فيه الذات المبدعة التى تعمل لجعل الكون جزءاً منها ، فيصبح بذلك شفافا لها وتصبح شفافة لنفسها .

عندما يقصي كوسيك الصراع الطبقي من فضاء تحليله الفلسفي ، ويرجع التاريخ الى علاقة الذات بالموضوع ، فانه يحرم الفلسفة الماركسية من جملة موضوعات قائمة في صلبها مثل التحقق من النظرية من خلال الممارسة ، والممارسة كمعيار للحقيقة ، كما يؤدي الى استحالة حل مشكلة موضوعية المعرفة (٧) . ان فلسفة كوسيك تقدم لنا ذاتا (انسان) لا تاريخية ولا اجتماعية ، ذاتا ليست محددة اجتماعيا تغتني باستمرار خلال انماط انتاج متعددة ، وتنحو الى تنضيد وتصنيف آثار الممارسة في بناء نظري متسق ، ويصبح التاريخ عند كوسيك تاريخ الفرد وتطوره واكتشاف ذاته المستمرة ، فلايرى الفردمن خلالالتاريخ، بل يرى التاريخ من خلال الفرد .

يبحث الفيلسوف الفرنسي « لوسيان سيف » بدوره عن تحديد « جوهر الانسان » ، لكنه في مشروعه هذا ينحي « مخطوطات ١٨٤٤ » جانبا ، ويتجه بطموح مشروع الى « الايديولوجية الالمانية » و « رأس المال » باحثا من أساس علمي لمفهوم الشخصية الانسانية . ويرفض « سيف » منذ البدء رؤية الانسان بشكل عام ، الانسان النوعي الذي يتجلى في افراد تجريبيين يتمتعون بطبيعة انسانية سرمدية محايثة لهم منذ البدء، فالطبيعة الانسانية السرمدية في رأيه اسطورة ومقولة غيبية مضللة . فليس الفرد معطى شاملا ، وليس « جوهره » موناداً يتجلى فيه بشكل مسبق ، فقد رفض ماركس مشكلية « الجوهر – الظاهر » الميتافيزيقية واحل محلها مشكلية اخرى ديالكتيكية منتجا بذلك مفهوما جديدا لجوهر الانسان .

ويرى سيف أن ماركس لم يرفض كليا مفهوم جوهر الانسان ، بل أعاد صياغته بشكل جديد ، ويلخص سيف اطروحته على الشكل التالي : (٨)

– ضرورة التمييز بين الجوهر / الظاهر بمعناهما الميتافيزيقيين عن دلالتها العلمية، و « الجوهر / الظاهر » مقولة مشروعة ، لكن شرعيتها أو عدم شرعيتها تعتمد على المنهج والطريقة التي تفهم بها هذه المقولة .

– كل جوهر ينطلق من الفرد المعزول جوهر زائف يعكس ظاهرا زائفا .

– ضرورة تصفية كل ترجمة مثالية للجوهر .

– بناء علمي للعلاقات والقوانين التي تحدد معنى الجوهر ، ومن ثمة العودة الى المشخص المباشر (الظاهر) والسيطرة عليه نظريا ،، اي الوصول الى الجوهر المادي

الديالكتيكي . ومعنى هذا ان الجوهر ليس كيانا مجردا بحكم الظاهر بشكل غامض ، لكنه علاقة اساسية وحركة ضرورية تنتج الظاهر بكل تجلياته المباشرة والمتعارضة بشكل مستمر. فجوهر الانسان ليس الا « مجموع علاقات اجتماعية » والفرد لا يتقدم كموناد ، ذات معزولة ، بل كتشخيص للعلاقات الاجتماعية ، فلا وجود لجوهر انساني بدون تحديد طبقي ورؤية للحقل التاريخي والاجتماعي الذي يقع فيه الفرد ، فالجوهر لا يولد مع الانسان ؛ لايحايثه منذ البدء ، بل يأتي من خارجه ، ينبع من العلاقات الاجتماعية ؛ أي لا يتحدد بذاته بل بغيره كحصيلة وتراكمات للعلاقات والممارسات الاجتماعية . لذلك فان المفهوم العلمي للشخصية لا يمكن ان ينجز اعتمادا على « مخطوطات ١٨٤٤ » التي تؤدي الى مسالك علم النفس الغيبي الذي يعتقد انه أعطى اكتشافا علميا عندما يسوغ ببساطة ملاحظة تجريبية في مفاهيم فلسفية .

تؤدي مخطوطات ماركس الشاب الى طريق وهمي في فهم الشخصية لانها تنطلق من مفهوم وهمي للانسان ـ الانسان النوعي ـ ، وليست على الرغم من غناها النظري الظاهري الا بناء مثقلاً بحمولة غيبية يجافي ويعارض مفاهيم ماركس العلمية عن المجتمع والتاريخ ، ويلقيه في عباب انسانية مجردة : ملكوت الايديولوجيا .

ويرى سيف ان أطروحة ماركس السادسة عن فيورباخ والتي تحدد الانسان كمجموعة للعلاقات الاجتماعية تشكل انقطاعا مع مفاهيم « المخطوطات » وكل المفاهيم السابقة عليها ؛ فالانسان ككائن اجتماعي يختلف في مفهومه عن الفرد ، فهو « حاصل قوى الانتاج ، ورؤوس الاموال ، وأشكال العلاقات الاجتماعية ، التي يجدها كل فرد وكل جيل كمعطيات موجودة » . يتحدد الانسان اذن بمجموع العلاقات الاجتماعية كمعطيات موجودة تتحدد ليست بحاضرها فقط بل أيضا بمسارها الذي قادها الى شكلها الراهن .

لا يعني هذا اقصاء مفهوم الجوهر الانساني بشكل مطلق ، بل ضرورة قلبه واعادة فهمه بشكل ضروري ، أي اقصاء المفهوم الغيبي للفرد والاستعاضة عنه بمفهوم علمي ، لذلك « لا يجب الخلط بين المفهوم المجرد للانسان ومفهوم الانسان المجرد » (٩) فكل مفهوم علمي مجرد من حيث هو مفهوم ، ويكون علميا ـ بالمعنى الماركسي للكلمة ـ عندما يمسك بالجوهر المشخص لموضوعه . من هنا يجب أن لانخلط بين مفهوم الكائن الاجتماعي بشكله العلمي في « الايديولوجيا الالمانية » وشكله الايديولوجي في « مخطوطات ١٨٤٤ » . فنحن نجد

في « المخطوطات » ان « الفرد هو الكائن الاجتماعي » في حين نجد في الايديولوجيا الالمانية « ان « وجود البشر هو عملية تطور حياتهم الواقعية » (١٠) . فلا تحدد حياة البشر بالشكل المباشر الذي نراها فيه ؛ المشخص ـ الزائف المنطلق من الفرد المعزول ، بل بعكس ذلك تماما ؛ أي ضرورة الانطلاق من الشروط الاجتماعية الموضوعية التي انتجت الشخصية .

ان التشرّط الاجتماعي ـ التاريخي في تحديده الموضوعي يطرد عن مفهوم الجوهر الانساني كل قشوره الضبابية ، ليغدو جوهرا ماديا ديالكتيكيا ، ليس مثاليا بل ماديا ، ليس طبيعيا بل تاريخيا ، ليس محايثا للفرد المعزول بل لمجموع العلاقات الاجتماعية . ولا تأخذ « مجموع العلاقات الاجتماعية » هذه شكلا نفسيا ، فهي لا تنطلق من الفرد العام، الفرد بدون تحديد ، من الفرد « والانسان ذي الخصائص المتميزة » ، بل تنطلق من تشكلية اجتماعية معطاة تحدد شكلها الذات فيها ، فكل تشكيلة اجتماعية تحدد ببنيانها شكل العلاقة بين الاجتماعي والفردي ، ويلازم حقل « الفردي » بالضرورة حقل الاجتماعي، لكن هذا التلازم ليس متناظرا ولا متوازيا بشكل مطلق ، لان حقل الاجتماعي يتضمن حقل الفردي ويحدده ، فالعامل المسيطر على المستوى الاخير هو الاجتماعي ببعده التاريخي ، فتشكل الذات في المجتمع الاقطاعي يختلف عنه في المجتمع الرأسمالي ، ولا يعني هذا ان الفرد هو الذي تطور كفرد ، بل يعني ان الشروط الاجتماعية ـ التاريخية المنتجة للفرد هي التي تغيرت . ان الفرق بين شكل الذات في المجتمعات التاريخية ليس فرقا مفهوميا، نظريا ؛ بل فرق حقيقي تاريخي ، فتغير نمط الانتاج وعلاقاته وتغير القوى المنتجة يؤدي الى تغير في البنيان الفوقي (مفهوم العالم ، العلاقات العائلية ، العلاقات الاجتماعية ، دور الفرد في المجتمع ...) ، وبالتالي فان تغيّر بنية المجتمع ينتج ويعطي فردا جديدا يكون انعكاسا للبنية الجديدة ، انعكاسا كعلاقة اجتماعية ، ليس كنقطة انطلاق بل كنقطة نهاية . ولا يراوح الانسان كنقطة نهاية في مكانه بل يتابع تشكله التاريخي المحدد بحركة المجتمع ، اي يغتني ويتبلور خلال عملية الصراع الطبقي .

ان « جوهر الانسان » أو « الشخصية الانسانية » لا تغتني خلال بحثها المستمر عن ذاتها ، مصادقتها المستمرة مع الطبيعة ، انها تغتني خلال وجودها على سطح مجتمع تتغير بناه الفوقية والسلفية باستمرار . لقد وجد الانسان المضطهد منذ بدء التاريخ ، لكنه لم يصبح عمود الثورة الا بعد الثورة الصناعية ، لقد وضع النظام الرأسمالي اسس

سحق الانسان (البروليتاري) وأسس تحريره ، فالبروليتاري ككائن اجتماعي قائد للثورة لم ينبجس من تربة القرن التاسع عشر ، بل جاء كنتيجة وحصيلة لتعاقب بنيانات مختلفة في التاريخ ، فهو مشروط بالشروط الموضوعية في زمانه بشكل مباشر ، ومشروط بالشروط الموضوعية التي اعطت شروطه الراهنة بشكل لا مباشر .

آلتوسر وتصفية جوهر الانسان :

ان كان آلتوسر يقف الى جانب لوسيان سيف سياسيا ، أي كنفسو هو الآخر في الحزب الشيوعي الفرنسي ، فانه يفترق عنه ويبتعد في حقل البحث الفلسفي وخاصة فيما يتعلق بـ « جوهر الانسان » ومقولة الانسان بشكل عام ، واذا كان « سيف » يحاول اقامة قراءة مادية دياليكتيكية لجوهر الانسان ، فان « آلتوسر » يستاصل هذه المقولة من النظرية الماركسية كجسم غريب ، فلا مكان للانسان وجوهره في النظرية الماركسية كنظام علمي متسق . ويجب أن نقول انه لا يمكن فهم مساهمة آلتوسر النظرية وخاصة في كتابيه « قراءة رأس المال » و « دفاعا عن ماركس » دون فهم الوضع الايديولوجي في فرنسا ، فقد استحالت النظرية الماركسية على يد « روجيه غارودي » الى مشتق للفلسفة البورجوازية الى فلسفة انسانية لاتاريخية ، الى « كانتية » جديدة ترى الفرد دون أن تبصر الضرورة التاريخية . ان تشويه الماركسية على ايدي « غارودي وسارتر وماركوز وايريك فروم » جعل من مداخلة آلتوسر النظرية مداخلة متميزة ، ذات طابع خاص ، تهدف الى حماية الفكر الماركسي وتقليم اضافات هجينة عنه ، لذلك جاءت مداخلة ـ رد فعل ، واذا كانت هذه المداخلة صحيحة وضرورية في صلبها الا أن رد فعلها خلق فيها عدة عناصر إشكالية .

يقسم آلتوسر الماركسية الى قسمين مترابطين ومتلاحمين نظريا : المادية التاريخية (علم التاريخ) والمادية الدياليكتيكية (فلسفة) . أما المادية التاريخية فهي علم التاريخ ، علم له موضوع : دراسة انماط الانتاج ككلية عضوية . بينما يعرّف المادية الدياليكتيكية بـ « تاريخ انتاج المعرفة من حيث هي معرفة » . ولا يوجد في كلا الحالتين مكان للانسان في النظرية الماركسية .

ويرى آلتوسر أن اشكالية الانسان أو الانتربولوجيا ان هي الا محاولة « لاقامة التاريخ والسياسة على جوهر الانسان » (١١) ؛ أي الوقوع في ميدان الايدولوجيا المتعارض

قطيا مع علمية النظرية الماركسية ، فلا يمكن ان يشكل الانسان أو جوهره نقطة انطلاق الممارسة نظرية ، الممارسة يكون لها « موضوع معرفة » ، يقول آلتوسر « ابتداء من ١٨٤٥ ، قطع ماركس جذريا مع كل نظرية تؤسس التاريخ والسياسة على جوهر الانسان » (١٢) ويقول أيضا « ليس القطع مع كل الانتربولوجيا وكل الانسانوية فلسفية مجرد تفصيل ثانوي ، بل تشكل جزءا لاينفصم عن اكتشاف ماركس العلمي » (١٣) . فكل بناء نظري ينطلق من الانسان يقع في ميدان الايدلوجيا (نقيض العلم) ، على عكس ذلك فان العلم ينطلق من موضوع معرفة ، ينطلق من نمط الانتاج وليس من الانسان . فهناك علم وهناك ايدولوجيا وتتحدد العلاقة بينهما بما يسميه آلتوسر « القطع المعرفي »

وعندما يعود آلتوسر الى الاطروحة السادسة عن فيورباخ « الانسان مجموع العلاقات الاجتماعية » ، فانه يرى فهم « سيف » لها فهما خاطئا ؛ فليس هناك تطابق بين مفهوم (الانسان) وتعريفه (مجموع العلاقات الاجتماعية) . فهناك بلا شك علاقة بين الانسان وتعريفه « لكنها ليست علاقة تعريف ، أو علاقة معرفة » (١٤) . ويجب أن نقوم بانتقال نظري لفهم طبيعة العلاقة بين الانسان وتعريفه ، ولفهم ذلك يجب ان نمر مباشرة الى المجتمع ، الى مجموع العلاقات الاجتماعية ، فكلمة انسان في الاطروحة السادسة لامعنى لها ، بل يجب تصفيتها . ان التحليل العلمي للعلاقات الاجتماعية يتطلب الغاء مفهوم الانسان ، ليس لانه مجرد بل لانه ليس علميا :

« لفهم واقع المجتمع ، ولفهم مجموع العلاقات الاجتماعية ، يجب ان نقوم بانتقال جذري ، ليس انتقالا في الموضع (من المجرد الى المشخص) فقط بل انتقال مفهومي أيضا (تغير المفاهيم القاعدية) » لقد فهم ماركس ما قبل الفترة العلمية الواقع من خلال مفاهيم الانسان والانسانية ، لكنه بدأ بعد « القطع المعرفي » بفهم الواقع بمفاهيم جديدة « مفاهيم نمط الانتاج ، قوى الانتاج ، البنيان الفوقي ، الايدولوجيا ، ... » (١٥)

ينطلق آلتوسر من البنيان وليس من الانسان ، فليست «الذات الحقيقية» هي الفرد المتشخص او الانسان الحقيقي ، بل هي « علاقات الانتاج » (١٦) أو بشكل ادق بنيان علاقات الانتاج . وليقيم آلتوسر بناءه النظري بشكل متسق يعيد قراءة ماركس ولينين قراءة جديدة ، لا ـ انسانية . فقد اظهر في مقالته « علاقة ماركس بهيجل » ان ما أخذه ماركس من هيجل بشكل أساسي هو مفهوم البنيان او مفهوم « عملية بلاذات » ، اي ان

الحركة التاريخية تتم حسب قوانينها الخاصة المستقلة عن الانسان ودوره ووعيه ، فهي تجري باستقلال تام عما عداها ، لها سببيتها ووظيفتها المتميزة ؛ كما نلمس الشيء ذاته في دراسات آلتوسر عن لينين وعلاقات الاخير بالفلسفة وهيجل ، فما اخذه لينين عن منطق هيجل يتمحور حول « مفهوم عملية بلا ذات » . ان نقطة انطلاق آلتوسر هي البنيان التي تنفي بشكل قطعي مشكلية الانسان وجوهره واغترابه .

ويعتقد مؤلف « قراءة راس المال » ان مقولة جوهر الانسان التي وجدت عندماركس الفيورباخي ، تلاشت واندثرت عند ماركس العلمي ، وان وجدت بعد ذلك فهي لاتوجد كمفهوم بل ككلمة ، فما يوجد عند ماركس « رأس المال » هو البنيان والتشكيلة الاجتماعية. ويعتمد آلتوسر في تحليله هذا على قول ماركس « لاتنطلق طريقتي التحليلية من الانسان بل من الفترة الاجتماعية المعطاة اقتصاديا » ، ومعنى ذلك فان كل فلسفة تنطلق من مقولة الانسان تقدم اتوما تيكيا تنازلا للايدولوجيا البرجوازية ، فالانطلاق من مقولة الانسان يعني اخفاء شكل العلاقات الاجتماعية (الصراع الطبقي) والرجوع بالتالي الى تربة الفكر المثالي .

وان تحليل آلتوسر — على الرغم من ضبطه النظري — يخلق لنا عدة مشاكل هامة ، فهو لايجيب على مشكلة اللغة وخلقها وتطورها ، ولا على مشكلة الابداع الفني والـذات المبدعة ؛ كما انه لا يرى دور الممارسة والصراع الطبقي في اعادة تشكل الانسان ووعيه لواقعه وممارسة الواعية والفاعلة لتحويل هذا الواقع واعادة صياغته .

ملاحظات سريعة حول مفهوم ماركس للانسان :

هناك محاولات عدة من قبل الماركسيين للوصول الى نظرية مشتقة عن الشخصية الانسانية أهمها محاولات الفرنسيين لوسيان سيف وبيير برونو والبولوني تادوس يارو ستشفسكي(١٧) .

لكن هذه المحاولات على الرغم من أصالتها ورصانتها العلمية لا تخلو من بعض الثغرات او التساؤلات المشروعة على الاقل ، فلوسيان سيف وبرونو وياروستشفسكي لا يتخلون عن الجوهر حتى بعد صياغته ماديا ، فهناك دائما بالنسبة لهم مركز ، مركز لا يتحدد بذاته بل بغيره ، اي بالشروط الاجتماعية . ان كل تمركز للشخصية سواء اكان داخليا أم

خارجيا « بشكل مساومة وهمية بين الجوهر والمركز » ، وبما انه ليس هناك مركز فكل تمركز داخلي أو خارجي يبقى زائفا ، وبمعنى آخر : طالما ان الانسان/علاقة اجتماعية فليس هناك مركز لا في داخله ولا في خارجه ، لانه حصيلة اجتماعية ـ تاريخية ، وهو في وعيه وشكل ممارسته محصلة للشروط الخارجية التي هي مجموعة معقدة من العلاقات ، وبالتالي ليس هناك مركز لا في الفرد كفرد ولا في الشروط الاجتماعية التي تنتجه .

يمكن مع ذلك أن نضع يدنا على بعض المؤشرات النظرية لدى ماركس التي تقدم لنا مادة خاما لبناء نظري حول الشخصية الانسانية .

لم يتحول الانسان من شكله الخام الى شكله المصقول الا من خلال تعامله الضروري مع الطبيعة الذي تمليه حاجات الانسان وتطورها ، ويرتبط تطور الانسان بكليته من يديه الى فكره المجرد بهذا التعامل . ولا تتحدد علاقة الانسان بالطبيعة في اطار متجانس ، تطور خطي ، بل هي مشروطة بالظرف التاريخي وشكل علاقات الانتاج المتواجدة فيه . ولا تعني علاقة الانسان بالطبيعة علاقته بها في زمن معين فقط ، زمنها ، بل تتضمن في حناياها كل التطور السابق ، اي الخبرة الاجتماعية ، والتاريخ الاجتماعي السابق على هذا الزمن . اذ انه يتواجد في كل فترة محددة معطيات مادية محددة بالقوى المنتجة ، اي علاقة بين الافراد والطبيعة خُلِقت تاريخيا ، تتضمن ذاتها وما سبقها (١٨) ، وتقوم الظروف ضمن هذا الاطار بانتاج الانسان بقدر ما يقوم الانسان نفسه بانتاج هذه الظروف ذاتها ، يقول انجلز بهذا الشأن « نقوم نحن بعمل تاريخنا ، ولكن أولا بمقدمات مسبقة وفي شروط محددة جدا » (١٩) . فهناك اذن حقلان : الحقل الاجتماعي ، التاريخي ، وحقل الذات . فالذات موجودة لكنها ليست مُحَدِّدة : فوعيها وحريتها مشروط بما هو مادي ، وبالتالي فان العنصر المسيطر في الحقلين يأتي من الحقل الاول وليس الثاني . اضف الى ذلك انه عندما نتكلم عن الذات فاننا نعني بذلك الذات الجماعية أو الذات الاجتماعية ، يقول ماركس :

« الحرية الوحيدة الممكنة تعني ادارة الانسان الاجتماعي ، المنتجين المجتمعين ، تبادلهم مع الطبيعة بشكل عقلاني » (٢٠) .

لا يتكلم ماركس عن فرد أو ذات ، بل عن انسان اجتماعي ، « جملة افراد » في شروط

معينة » ينطلق الافراد دائما من ذاتهم ، وليس بالطبع من الفرد « النقي » بالمعنى الايدولوجي ولكن من انفسهم في اطار شروطهم وعلاقاتهم التاريخية المعطاة » (٢١) .

إن تحليل الذات وفهمها يلتحم ويترابط مع تحليل الشروط التاريخية والاقتصادية التي تشكل نقطة الانطلاق في كل تحليل وفهمها لذلك فان فهم الشخصية الانسانية لا يوجد في حقل علم النفس بالمعنى الكلاسيكي للكلمة ، بل يوجد في حقل المادية التاريخية . فالفرد يوجد كذات في عملية الانتاج (محدّد بغيره) المحدّدة تاريخيا ، لكنه لايوجد كعلاقة سلبية ، اذ ان علاقاته اثناء عملية الانتاج مع غيره وموقفه ازاء ما ينتج تقوم بتحويله كيفيا، اي تحدد شكلا معينا من الوعي والممارسة واعادة انتاج الممارسة .

يستعمل ماركس كلمات كثيرة للتعبير عن مفهوم الذات ـ بلا شك ـ ، فهو يقول الانسان وجوهر الانسان والفرد والافراد والذات الاجتماعية والذات الجماعية ، لكن كل ذلك يتحدد في قناتين ضمن اطارين واضحين .

ـ ليس الافراد جواهر بلا تحديد بل هم « تشخيص مقولات اقتصادية » وحوامل مصالح وعلاقات طبقات مُحددة » (٢٢) .

ـ لا تفهم الذات بمعناها الماركسي الا ضمن اطارها الطبقي ، أي دورها في عملية الانتاج وتقسيم العمل ، ومكانها الحقوقي والايدولوجي . فليس المجتمع تراكم افراد بل بنيان طبقي « لا يتألف المجتمع من أفراد ، انه يعبر عن حصيلة العلاقات والشروط التي يتواجد فيها الافراد ، البعض ازاء البعض الاخر » (٢٣) .

فلكل فترة تاريخية ذاتها ، ولكل ذات ميزات وقيود ، وهناك في ما قبل تاريخ المجتمع الانساني ذات مملكة الضرورة التي تتطور من خلال صراعها الاجتماعي الى ذات جديدة ، ذات مملكة الحرية ، شخصية المجتمع اللاطبقي .

* * *

المراجـــع

1 — K. Marx : Manuscrits de 1844, P. 64.

2 — ibid. P. 6.4

3 — ibid.

4 — G· Markus : Etudes Sociologipues P. 65 Anthropos.

5 — K. Kosik : la dialectique du Concvet Ed : Maspero p. 148.

6 — ibid p. 151.

7 — Recherches internationales No 74.

8 — L. Sève : Marxisme et la théorie de la personna lité Eds Sociales (la nouvelles Crihque No 54 p. 92 - 95).

9 — ibid p. 91.

10 — K. Marx : l'idédogie Allemande Eds : Sociales.

11 — L. Althusser : Pour Marx Maspero p. 233.

12 — ibid.

13 — ibid p. 234.

14 — ibid.

15 — ibid p. 255.

16 — Lire le capital t. 11 p. 157. Maspero.

17 — Rechreches internatonales No. 82 116 - 130

18 — K. Marx : l'idéologie Allemande p. 70.

19 — Cité dans Marxisme et théorie de la perosonnalité p. 154.

20 — K. Marx. le Capital, 111, 3, pp. 198 - 199 Eds : Sociales.

21 — K. Marx : l'idéologie Allemande p. 97 - 98.

22. — Le Capital, 1,1 p. 20.

23 — K. Mark : fondoments, 1, p. 212.

زمن العشق والثورة

شفيق مقار

« لقد اعتقدت دائماً أن الشعر وظيفة حضارية أولا . وإذا كنت قد التزمت في أشعاري بالمواقف الاجتماعية والسياسية ، فقد كان ذلك نتيجة شعور عفوي وتلقائي ولم يكن انطلاقاً من اعتباره وظيفة . » (*)

في « المماليك » (١) ، احدى قصائده التجريبية المبكرة التي تلمس فيها طريقه الى ما قاده اليه توفيق مجدود من أبواب سحرية أفلت عبرها من مرحلة « قالوا الهوى زهرة تجليه نظرة » (٢) ، و « ايه ياخاتم الخطوبة حدث ذلك الطيف عن غرامي الحزين » (٣) ، في تلك القصيدة النثرية ـ رغم القافية ـ الصارمة مع ما بها من شعر حتى لتبدو أشبه بمزاوجة عفوية بين شطحات رامبو النثرية الاكثر جراة على الشعر ، وبدايات بريتون والوار الاكثر جراة على تراكيب اللغة ، يقول البياتي ـ واضعا القول في صيغة السؤال: « على عالم نصف ميت فتحت عيوني ؟ » ، ويحدثنا عن القرى التي على السفح ، والقربة التي الى الشرق والتي لم تزل يباع بها الناس مثل السائمة .

(*) الطليعة السورية ٧٠/١٠/٢٤ ص ٣٦

(*) فصل من كتاب (عبد الوهاب البياتي فارس من هذا الزمان) سيرة حية للشاعر من خلال شعره .

وفي « ذكريات الطفولة » (٤) ، يقول :

« كانت مدائننا الجديدة في خواطرنا تنـام
كانت مدائنا الجديدة في الظلام
بمنازل الأموات أشبه أو قرى
النمل ـ ... الجديدة في الظلام ـ
كانت مدائننـا تنـام
وفي الظـلام
كنا نحـدق في الفراغ ولا ننـام
إلا على أصوات عالمنـا الفوضى ، والعبيـد
يتسكعون ، ومن جديـد
وخيولنـا الخشبية العرجـاء .. »

مستخدماً « الظلام » المرة تلو المرة خلال بضعة أبيات ، مردداً المقاطع كالصدى (ـ .. الجديدة في الظلام ـ) وكأن الكلمات شبحات في تصاوجيلي تتقاذفها حيطان الصخر.

فلنقل ـ مروراً بمحاولات الشعر التقليدي الأولى ، في « ملائكة وشياطين » ، مر الكرام ـ أن بزوغ من يبدو انـه سيكون سندبادية الشعر العربي في هذا العصر الغول من التاريخ العربي ، الذي يبتلع ويلفظ كل يوم كثيرين ، شعراء وغير شعراء ، كان في الديوان الذي ضم بين دفتيه نبوءة ميلاد « سارق النار » ، والانسان الذي ـ من أعماق فطرته ـ يقدم في سخاء ، ديوان « أباريق مهشمة » . فكل البذور هناك ، والشاعر / النبوءة الذي ظل ، منذ ذلك الوقت ، متى تخطينا ربعه الخالي الذي لم يتلبث فيه لحسن حظ الشعر طويلا ، ظل يتحقق : لا بعالمه الشعري الباذخ فحسب ، بل وبما ظلت الاحداث تكشف عنه من صدق حدس ذلك الشعر في استبصار عوامل الاحتضار ودوافع البعث (وأحياناً أحلامه) في العالم الواقع الذي ينتمي اليه الشاعر .

يقول البياتي أن الشاعر لا يولد وفي يده القيثارة ، وانما يمكن (متى وجد شاعر بالقوة) أن يولد (بالفعل) من قلب ذلك الانسان الذي لا يتم التوافق بين عالمه الداخلي والعالم الخارجي من حوله ، وأن التناقض الذي يمكن أن يقوم حينئذ يولد عدداً من الاحاسيس غير المصنوعة وغير القابلة للتغيير (أو الاستبدال) ، وانه في اللحظة التي يكشف فيها الانسان تناقضه مع العالم الخارجي يبدأ في التمرد عليه . (٥)

ولعل ذلك الصراع الذي يولد في بوتقته الشعر ، ذلك التضاد بين العالم الداخلي باحلامه ، وضروب جنونه واشتياقه ، وصنوف رعبه ، وخبراته وذكرياته الجمعية والفردية ، والعالم الخارجي برسوخه الظاهري ، وامتلائه المكذوب ، ورثائه ، وبوهيمته البارجة المبتذلة ، وفقره ، وعدم اكتراثه ، فوق كل شيء : عدم اكتراثه وبروده ، لعل ذلك الصراع المشبوب ، ذلك التوتر بالغ الحدة ، لا يتضح في شعر شاعر عربي معاصر قدر ما يتضح في شعر البياتي .

وفي جوهره ، لا يختلف ذلك من الصراع الخالق لاي فنان بين النزوع والواقع . فالفنان الحقيقي ، كالثائر الحقيقي ، يتحول في مواجهة العالم الى آلة . ياخذ اليه ذلك العالم ، فيتفحصه ، ويخضعه لامتحان عسير ، يقيسه على ابعاد احلامه واشواقه ، فيجده ناصرا ومعيبا ، ويرفضه ، فيشرع في تفكيك اوصاله ، وربما في نسفه واحراقه ، ليعيد تركيبه ، او « خلقه » ، على صورته هو . لهذا قال البياتي ما يعني ان « اكتشاف » الشاعر لنفسه مرادف لمحاولة فهم العالم ومحاولة تغييره (٦) . غير ان الصدام يتخذ في حالة البياتي ابعادا مركبة ، فهو ليس رافضا قبح العالم وفقره وما فيه من مظالم وشرور فحسب ، بل وداخل في صراع مع توقيت وجوده ، رافض وقته ، لانه جاء الى العالم في عصر باتت فيه نيسابور جحيما وارضا خرابا ، فما بالك وهو شاعر لو كان وجد في نيسابور لوجدها جنة لتمرد عليها واخذ في اشعال الحرائق بها ، وحاول دك اسوارها ! وذلك ايضا ظما يعرفه الثائر الحقيقي باسم الثورة الدائمة التي تظل تحرق نفسها بنفسها لتولد من جديد . لانه اي مصير ذلك الذي يمكن أن يقبله الشاعر او الثائر ! ان يتحول ـ تحت تاثير وهم الكمال ـ من خالق لعوالم يظل الاروع منها على بعد مدينة اخرى ابدا ، الى ناقه من مرضه الالهي الذي استشهد البياتي في التعبير عنه بهذه الابيات من ماياكوفسكي ! :

« امي ! ابنك مريض مرضا بالغ الروعة يا أمي
امي ! ان قلبه يتلظى ويحترق
اخبري شقيقته ليودا واوليجا
انه لا يجد لنفسه ملاذا . » (٧) .

ولهذا يقول البياتي انه اذا كانت الطفولة والوراثة قد حكمت على بعض الشعراء بالموت المبكر ، فان طفولته هو حكمت عليه بالصمت والرحيل والانتظار . « فمنذ عام

١٩٢٦ ، وهو عام مولدي ، وأنا في طريقي الى المدينة التي لم أصلها بعد . » (٨) لم يصلها بعد ! وكأنه يعتقد حقا أنه سيصلها . « لقد غرقت ارم العماد ، أو مدينة العشق ، آلاف المرات في البحر ، وعادت الى الظهور . وكلما بعدت ، أبطأ المجبون في سيرهم اليها وكلما اقتربت هرعوا مسرعين اليها . وعند حضور اللامتناهي فينا وفي هذا « البعد » و « القرب » يثبت وجود الحب الأعظم الذي يحل في الحياة ، وينتصر على الموت ، ويحل في الأشياء ، فيمنحها الحياة . » (٩)

« من أعطاك حق البحث في مدينة العشق عن الله ! » ، يسأل الشاعر نفسه (١٠) . والسؤال هو : ما الذي ذهب بروميثيوس يفعله في تلك المدينة نائماً في دروبها التي تكون أحياناً مسحورة وأحياناً مخاضات موت وعدم وخديعة هامة (وسياسة ، بوجه خاص) وأرض غربة وحزن ومرض ! هل ذهب باحثاً عن الله حقاً ، أم باحثاً عن نفسه ! يطالعنا بروميثيوس ، سارق النار ، أول ما يطالعنا في شعر البياتي وهو

« يسابق الريح من حان الى حان
ولم تزل لعنة الآباء تتبعه » (١١)

لكن الشاعر والبطل الأسطوري المنصف اليه الذي يتخذه رمزاً يبعثان وقد فات زمانهما ، ويبعثان في أرض خراب . وليس أنهما يظهران في زمن النسيان ، وقد بات المعبد ركام أطلال ، ومرغ الموت في التراب الداكن آلهاته اللاتي من رخام ، وأبطاله ذوي الوجوه الصفيقة الذين اندثر مجدهم ، وغطت حشائش الأرض بطولاتهم الغابرة ..

« والأرض ،
الأم ،
رفقاً بآلهتها القدامى ،
تنبت من قلبها ، في كل ربيع ،
ببلاغة ضائعة سدى ،
فوق أطلال المدينة المندثرة :
زهرة الأقحوان .
والانسان ،
غير مكترث لأحلام أسلافه ،
يستمع ـ دون أن يهتز في نفسه وتر ـ

الى صوت البحر
منبثقا من قلب الليـالي الصافيـة
ينعي جثيانه المفقودة .. » (١٢)

نحقيقة يقول البياتي ان عصر البطولات ولى ، وأنه يعود من عالم الموتى بخذلان ، لكنه ابعد ما يكون عن مثل ذلك الانتماء المحبط الى العالم الوثني الذي نجـده عنـد شاعر كهريديـا ، وعن ايـة محاولة حقيقية للعودة الى منابع الفكر الذي خلقـه ذلك العالم والاساطير التي اوجدها ، كالمحاولة الفذة التي نجدها عند كامي . ولسوف يظل بروميثيوس ، لذلك ، منذ « أباريق مهشمة » (١٩٥٤) ، الى « سيرة ذاتيـة لسارق النار » (١٩٧٤) ، مجرد رمز متواضع عليه يستعيره الشاعر ، ولا يتحول الى مكون حي من مكونات اسطورية عالمـه .

فالبطولات التي يقول البياتي ان عصرها ولى ، بطولات اخرى لا شأن لهـا بالعالم الذي جاء منه بروميثيوس ، بوصفه سارقا للنار من جبل الاوليمب ، من قرص الشمس ذاته ، هو « واهب الحضارة » ، وبوصفه محكوما عليه (بسبب فعلته هذه التي اعتبرها الفكر اليوناني تطاولا على « السمو » ، المنظور اليـه ـ كالخلود والسعادة والشباب الدائم ـ كحكر للآلهـة) بالاستشهاد في سبيل البشر مغلولا ابدا (الى ان يخلصه هرقل ، اقصى ما جرؤ الفكر اليوناني عليه من تجسيد الطموح الى مقاربة قوة الآلهـة) الى صخرتـه في القوقاز والنسر الالهي ينهش كبـده ، حقيقـة أن بروميثيوس « واهب الحضارة » ، يطالعنا عنـد البياتي ، بوصفه الأخير هذا ، كرمز للشهيد الابدي ، لكنه ـ حتى كرمز ـ يبدو منتزعا من الحضارة التي ابدعتـه مخيلتها وموضوعا في سياق حضاري آخر مغاير تماما لروح العالم اليوناني . فالفارس الذي يعطيه البياتي ذلك الرمز ليضعه على جبينه فارس خلو من البطولة النصف إلهيـة التي اسبغتها أشواق الشعر اليوناني على بروميثيوس وهرقل ، البطولة التي لم يفت العقل اليوناني الملتزم أن يعطيها نصب اخيل ماسوي وانساني للغاية جعل من الممكن ان ينغـل برميثيوس ، صانع البشر ومعطيهم الحضارة ، الى صخرة وأن ينهش كبده ، وان يموت هرقل ميتة فظيعة بخديعة نصف حيوانية البسته قميص العذاب المسموم ، لكنه ـ فارس البياتي ذاك ـ ليس خلوا من البطولة الإلهيـة . فرغم أنه يقول لنا :

« وصنعت محرقتي
وكان لظى
نيرانهـا رئتي وأعصابي

. . .

ودفنت في اعمـاق ذاكرتي
فاسي وزوبعتي واحطابي
وقبور احبـابي
وفتحت أبوابي
للنور والظلمات أبوابي » (١٣)

لا يستطيع أن يقاوم الاغراء الماثل في تقمص المسيح :

« اني غفرت لهـم
اني رثيت لهم !
اني تركت لهـم
يارب اكفاني ! » (١٤)

ومع ذلك فان البطل الثقافي (لا « التاريخي » كما يقول الشاعر) الحي في عالم البياتي لا هو المسيح ولا هو هرقل او بروميثيوس . **انه بطل يتبنى عالم الشاعر كله على انه موجود لكنه غائب عن شعبه .** فهو ليس بانتظار أن يولد ، لكنه منفي وغائب عن ارضه . وليست سيرة البياتي وحدها هي القائمة على النفس والغربة والتجوال والتشرد، بل شعره أيضاً : فهو شعر البحث الذي لا ينتهي ولا يكف ، ولو في اعماق الجحيم . وبشكل ما يجب أن تتخذ الاشواق شكلا معقولا أو شبه معقول تتجسد فيه ويتيح للعقل أن يفترض انه ـ ذلك الشكل الذي تتخذه الاشواق ـ هناك ، لا بد ، في آخر السرداب ، او مخرج المتاهة ، والا كان البحث والشوق مدخلا الى الجنون . وفي بعض شعره الذي كاد في بعض اللحظات أن يصيب النقاد بالجنون من فرط ما « اعملوا القريحة » في رده من شعر الى سرد اخباري ليوقفهم على مدار البحث او ليتيح لهم أن يسقطوا صورة ما يرونها « جديرة » بأن تكون عند مخرج المتاهة ، في بعض شعره « المستغلق ، الصعب » يحمل البياتي اشتياقه غير المتعقل ، وغير المخطط ، وغير المنطق ، وغير القابل للسرد الاخباري ، الى ذروة ندر أن حلق اليها شاعر عربي من عصره يتحول عندها

القصيد من الشعر الى تركيب فذ مستدق من التصوير اللاتشخيصي (الاصدق واقعية من اي تسجيل واقعي) لما تهجس به بغير انقطاع ضروب نادرة من القلة الذي يعلم من يعانيه انه – في النهاية – لا دية له . ومن ذلك الشعر ، الذي أصاب جيلا بأكمله من النقاد بما يشبه الحواذ : « الذي يأتي ولا يأتي » ، و « قصائد حب على بوابات العالم السبع » .

غير أن ذلك ما يقوله شعر البياتي ، بعيداً عن ربعه الخالي . أما البياتي نفسه ، فانه في تنظيره او « تعقيله » لعالمه الشعري الفذ ، يقول ان تجربته الشعرية سلسلة من الرحلات قام بها للكشف « عن صفحات هذا الانسان الذي عاش هذه البلاد العريقة التي ننتسب اليها . فورثة هذا الانسان العظيم الذي ناهز الخمسة آلاف سنة من عمره سقطوا تحت سنابك خيل الغزاة (ابتداء من الغزو) المغولي حتى انحسار مد الاستعمار الاوربي في منتصف القرن العشرين . وبذلك ينطبق عليهم قول أحد المؤرخين (انهم) « كانوا نصف تعساء قبل الاستعمار الاوربي ، ثم أتمم أوربا بنصف التعاسة الآخر ، فاكتمل عليهم ثوب الحداد » . ان التعاسة الصامتة التي لا يسمع بها احد وسط هذه الانقاض ، والبحث والكشف عن انسان كل الحضارات والعصور دفعني الى تلمس الفجر الذي كان اشبه بالخيط في يد الليل : كلما إلتقى به في افق عاد اليه . » (١٥)

وهذا (ككل تنظير « متعقل » يقدمه الشاعر لشعره) صحيح وصادق ، ولكن جزئيا فقط ، لانه لا يقول ما هنالك . ولا نعني أن الشاعر يكذب عمدا او يلجأ الى التعمية ، بل نعني تلك الحقيقة الماثلة في « انك – لكي تكتب – بحاجة الى ان تكون اثنين : فالكاتب الذي نصفه بالرداءة هو ذلك الذي يعبر عن نفسه بالرجوع الى سياق داخلي لا يمكن للقارىء ان يعرفه ، وذلك هو ما يؤدي بالكاتب الادنى مرتبة الى قول كل مايحلو له . أما الفنان الحقيقي ، فان القاعدة العظمى بالنسبة اليه هو أن ينسى نصف نفسه في سبيل التعبير القابل للتوصيل ، وهو ماينطوي – بلا مهرب – على تضحيات عديدة ، فذلك البحث عن اللغة المفهومة التي تكون وظيفتها اضفاء قناع على فظاعة قدرة ، هو الذي يؤدي بالفنان الى ان يقول لا ما يحلو له ، بل ما يجب عليه قوله . » (١٦) ولهذا قلنا ان البياتي من اولئك الشعراء الذين لاغنى عنهم ، لانه – بذلك التوفيق الخارق المجدود الذي حدثنا عنه دائما الشعراء العظام – يقول « ما لا بد من قوله » ، لا مايحلو له هو او مايوافقه أن

يقول . وفي هذه الحدود قلنا أن تنظير البياتي لاشواقه وبحثه واستجلائه للعالم والذات صحيح وصادق جزئيا ولايقول كل ماهنالك . ولو أنه يحسن ـ عن خبرة ـ أن نوضح مالا حاجة لتوضيحه ، وهو أن « لابد من قوله » هذه نابعة من داخل القول ، لا محالة من الخارج على قائله .

فما « كل ما هنالك » اذن ؟ ذلك مالا يفصح عنه الا الشعر ذاته ؛ وقصارى جهد النقد أن يلقي ضوءا على المداخل المسحورة المفضية الى قلب العالم الذي ينطق فيه ذلك الشعر ويفصح ، الا انه بالوسع ايضا ، خارجا ، من « البيئة » وتأثيرها الذي لا يحد ، أن نشير الى تلك المنطقة الحرجة التي يقف فيها الشاعر بين التراث الروحي لثقافته « فالعرب الساميون كما يقول غوستاف لوبون هم أول من علم التوحيد المطلق ، فقهروا ممالك العالم باسم (الله) وفتحوا فتحا روحيا استمر في التوسع والانتشار بعد توقف الانتصارات المادية التي لم يبق من نتائجها الا القليل » (١٧) وما يشحنه في الوعي بلا رحمة الاحتكاك الثقافي بمسمى الحضارة الصناعية المعاصرة لايجاد حلول مثلى لصراعاتها المادية واللامادية « نعم ، المدينة الفاضلة ، ولم لا ؟ فالمادية تسند الفلسفة ، والمثالية تصفها الآخر ، كما يقول كارل ماركس . » (١٨)

ذلك انقسام آخر يعرفه الشاعر ، يتضايف الى انقسامه بين الحب والاشتهاء ، بين الخيّام والحسن الصبّاح . فأي حلم بالخلاص من جحيم نيسابور يمكن أن يولده ذلك الانقسام المركب ، وأي بطل ثقافي ذاك الذي يمكن أن يجسّد ذلك الحلم بالخلاص ؟ يقول البياتي : « ان شخصية الحلاج والمعرّي والخيّام وديك الجن وطرفة بن العبد وأبي فراس الحمداني والمتنبي والاسكندر المقدوني وجيفارا .. وغيرها التي اخترتها حاولت أن أقدّم (من خلالها) « البطل النموذجي » في عصرنا هذا ، وفي كل العصور ، في (موقفه النهائي) وان أستبطن مشاعر هذه الشخصيات النموذجية في أعمق حالات وجودها ، وأن أعبّر عن النهائي واللانهائي ، وعن المحنة الاجتماعية والكونية التي واجهها هؤلاء ؛ وعن التجاوز والتخطي لما هو كائن الى ما سيكون » (١٩) وبصرف النظر هنا عن السؤال (الذي يتكفل شعره بالاجابة عليه) : هل البياتي حقا منشغل بالبحث عن البطل « النموذجي » في عصرنا هذا وفي كل العصور ، فانه قد يمكنك القول ان مطمح العمومية الانسانية والديمومة في الفن ، ذلك الذي يؤدي بلوغه الى جعل « القصائد تولد من جديد كلما تقادم بها العهد » لايتكرر بلوغه بالضرورة من خلال تكرار خلق أبطال لكل العصور كهاملت أو ماكبث ؛ فقد

يوجد من يرى انه متاح للشاعر الحقيقي بلوغه بصورة اكمل واعمق في عصرنا ، وبوجه خاص عندما يكون الشاعر ـ كالبياتي ـ قد ربط شعره وحياته «بالتكاسة ثورة العالم الثالث او الثورة العالمية ، والفقر المادي الابدي ، والحصار ، والخديعة العامة ـ السياسية ـ خاصة ، والجوع ، والاضطهاد ، والحزن ، والتشرد ، والمرض ، والغربة الزمانية والمكانية » (٢١) عن طريق مانجد شعر البياتي بالذات آخذا فيه من استظهار ، بل استقطار الخبرة الانسانية الدائمة والباقية من ماساة ذلك العالم المصاب بالفقر المادي الابدي والغربة الزمانية والمكانية وانتكاس الثورة ، وجعلها ، من خلال شعره ، خبرة حيةباقية ومتجددة لكل البشر ، « تولد من جديد كلما تقادم بها العهد » .

ومع ذلك ، فالبياتي ـ ككل فنان حقيقي ـ نسيج من التناقضات ، ودع عنك التساؤل عن موضع مفهوم البطل النموذجي هذا من الفكر الماركسي الذي يقدم امام اليوم نظرية المعرفة « وهي نظرية الطريق الى الثورة المعاصرة » (٢٢) واسمع له وهو يقول « وكانت زياراتي التي لاتنقطع لاضرحة اولياء الله ، والطواف حولها ، تمتحني العزاء والأمل والقدرة على المضي في سفري ، حاملامعي عذابات المسافر والشاعر والشحاذ والباحث عن الله والمستقبل والطر والحب في الاشياء القابلة كل صورة » (٢٣) وضعه جنبا الى جنب مع قوله الذي استشهدنا به قبلا من انه كان الفروض بالثورات الدينية والحضارية والايديولوجية ان تهيىء للانسان اللاحق لها وضعا انسانيا أعلى مستوى من الوضع الذي وضع فيه انسان العصور الهمجية والبدائية والوسطى ولكنها لم تفعل لان الوضع الذي يجد الانسان نفسه فيه يشير الى أن ذلك الانسان قد كتب عليه فيما يبدو أن يظل يناضل في يومه وغده تماما كما ناضل انسان العصور السحيقة السابقة لتلك الثورات ، من أجل شرطه الانساني .

ولا نريد ان نقول ان الشاعر يتضارب ويناقض نفسه ، وانما نريد القول انه بقدر ما يكون العالم الذي يعيد الشاعر خلقه من العالم الواقع رحيبا وغنيا فانه يحفل بما يحفل به الكون من تناقض وصراع ، خاصة متى كان الشاعر راكبا عالمين (عالمه المحتضر الذي نشأ فيه والعالم المتقدم الذي تجتاح الشاعر حضارته ورؤاه) وكان تاثرا ابديا .

يقول البياتي ، مستعيدا ذكريات صباه : « اذكر الآن كانني (كنت) استنجد بشخص لا ادري من هو ، لعله أبي الذي لا يعرف القراءة والكتابة ، أو بأية قوة أخرى لا ادري ماهيتها ، » (٢٤) يستنجد من اي شيء ؟ قد نجدمتفذا لجواب في هذه الكلمات التي

تتحرر باشكال عديدة في شعره وكتاباته النثرية وأحاديثه الصحفية : « كانت بغداد في تلك السنوات أكثر تخلفا من بغداد العصر العباسي . كانت تغرق وتموت ، ولم يكن فيها مايبعث على الأمل . » (٢٥) وليست بغداد وحدها هي التي وجدها البياتي تغرق وتموت ، بل الغابة المتحللة كلها ، التي يشتهي احراقها ، الممتدة من المحيط الى الخليج . وجنبا الى جنب مع ذلك الغرق العام والموت الحضاري ، وقد صحا البياتي فذاق غصتهما مبكراً ، نجد الفقر القبيح الممقوت الذي يفجّر نيران الغضب : « كدنا (كأسرة) نجوع ونتعرّى، بل جعنا وتعرّينا بالفعل » (٢٦) .

ولذلك قلنا أن بزوغ البياتي كأهم شاعر عربي معاصر ، أو بالأحرى ، الشاعر العربي الذي لا غنى عنه في عصرنا (وفيما يبدو من تطوره الشعري ، لعصور طويلة مقبلة) ، كان في ديوان « أباريق مهشمة » ، لا لأن ذلك الديوان كان أول أعمال مرحلة النضج ، فقد كاد الشاعر يختفي في دواوين ناضجة أخرى ، هي التي نسميها ربعه الخالي ، ولا لأن ذلك الديوان كان بمثابة اعلان بدء الثورة التجريبية في الشعر العربي الحديث ، فمعظم دواوين البياتي التي ترك نفسه فيها ينطلق كشاعر حقيقي ثورات شعرية يتجاوز ويتخطى في كل منها ما سبقها من شعر ، ولكن لأن كل البذور كانت هناك ، وميلاد الشاعر ـ النبوءة الذي ظللنا عبر سنوات الزيف والبطولات الموهومة والأوثان الشمعة الشوهاء الضيقة دائمة التحول نعايش رؤيته ونكتشف من علقم الخبرة مدى صدقه ونعاين تحققه كشاعر ونبوءة ، في انبساط عالمه الشعري وتعرّي عالمنا الواقع المزدحم بالبهلوانات ومهرّجي سيرك المجد والخلود . واصغ لأولى قصائد الديوان :

« الله ، والأفق المنوّر ، والعبيد
يتحسسون قيودهم
« شيّد مدائنك الغداة
بالقرب من بركان فيزوف ، ولا تقنع
بما دون النجوم
وليضرم الحب العنيف
في قلبك النيران ، والفرح العميق »
والبائسون نسورهم يتضورون
جوعاً ، وأشباه الرجال

عور العيون
في مفرق الطرق الجديدة حائرون :

. . .

وارامل يتبعن اشباه الرجال
تحت السماء ، بلا غد ، وبلا قيود

. . .

فليدفن الاموات موتاهم
وتكتسح السيول
هذه الأباريق القبيحة والطبول
ولتفتح الابواب ، للشمس الوضيئة والربيع . » (٢٧)

وبمن يستنجد الشاعر ؟ يقول البياتي ــ نثرا ــ « ان الظلم المستمر على مدى التاريخ العربي حتى في ادياننا جعلني أنتظر ــ خلافا للأوروبيين ــ فارسا يأتي ولا يأتي من ذلك النوع القادر على التغيير الثوري للاشياء » (٢٨) ويصف فارسه المرسوم صورة على غلاف، شعرا ، فيقول :

« كان على جواده ، بسيفه البتار
يمزق الكفار
وكانت القلاع
تنهار تحت ضربات العزّل الجياع » (٢٩)

فكأنه يصف صورة تعيش في خياله من جديد للزيناتي أو عنترة ، لكن « وكانت القلاع تنهار تحت ضربات العزّل الجياع » توقظنا لتونا فتخرجنا من تهاويم الفولكلور الى صراعات التاريخ ، اذ توقفنا على الارتباط الوثيق بين قول البياتي في أحد احاديثه الصحفية : « في دواويني السابقة على « سفر الفقر والثورة » تجد شعورا غامضا بان ثمة بطلا أو فارسا سوف يأتي ، ربما هو الثورة . وفي « سفر الفقر والثورة » تشعر ان هذا القادم المجهول وقع في الكمين في مكان وزمان لا ادري عنهما شيئا . وكنت احس واعي صرخات وعذابات هذا القادم المنتظر . وفي « الذي يأتي ولا يأتي » ، ترى أن القادم المجهول ، الذي يأتي ولا يأتي ، سوف لا يأتي لأنه كان قد مات ، وما عليّ الا أن أنتظر ولادته من جديد . وقد لاتتحقق الولادة المنتظرة في هذه الحياة المحدودة التي أعيشها هنا . ومن ثم فلقد وقعت في

براثن « الشعور » بالموت ، فجاء ديوان « الموت في الحياة » . **والغريب ان هذه المراحل التي تجري في عالمي الشعري الجديد » قد مر مثلها في عالمنا الخارجي أيضا . أي ان المذابح والاخفاقات والكوارث التي وقعت في نفسي ، كان قد وقع ما يماثلها في عالمنا الذي نعيش فيه . ولكني لم أكتشف هذه العلاقات الا بعد أن كتبت « سفر الفقر والثورة » و « الذي يأتي ولا يأتي » (٢٠) ، وبين قوله في « موت الأسطورة » : « .. فاذا وضعنا الى** جانب رحلتي الطويلة (عبر الحرائق الشعرية) **سيرتي الذاتية المرتبطة برحلة لي اخرى طويلة في الكشف عن صفحات الانسان (الذي عاش في هذه البلاد العريقة التي ننتسب اليها) في ظل الحضارة العربية ـ الاسلامية العظيمة ، لاكتملت اجزاء الصورة . » (٢١)**

ولكن ، أي فارس ذاك ا البياتي يقول انه وقع في الكمين في مكان وزمان **لا نعرفهما** شيئا ، وتعذب ، ومات ، وانه (اي البياتي) ، لاحيلة له الا أن ينتظر ولادة ذلك الفارس المخلص **من جديد** . ولقد بدا في وقت من الاوقات - فيما يخص عالم **البياتي الشعري ـ كما لو كان** ذلك المخلص قد ولد فعلا :

« أيا جيل الهزيمة » هذه الثورة
ستمحو عاركم وتزحزح الصخرة
وتنزع عنكم القشرة
وتفتح في قفار حياتكم زهره
وتنبت ـ أيها الجوف الصفار ـ برأسكم فكره
سيغسل برقها هذي الوجوه وهذه النظرة
ستصبح هذه الحسره
جسورا وقناديل
زهورا ومناديل
ويصبح باطل الحزن أباطيل
وتزهر في فم الشعب المواويل
ستهوي تحت أقدامك ـ ياجيلي ـ التماثيل
وتسقط عن رؤوس السادة التيجان
وتجرفها رياح الكادحين لهوة النسيان
فهذا البرق لايكذب
وهذا النهر لا ينضب

وهذا الثائر الانسان عبر سنابل القمح
يهز سنابل الريح
مع المطر
مع التاريخ والقدر
ويفتح للربيع الباب
فياشعراء فجر الثورة المنجاب
قصائدكم له ، لتكن بلا حجاب
فهذا المارد الثائر انسان
يزحزح صخرة التاريخ ، يوقد شمعة في الليل للانسان.»(٢٢)

يزحزح صخرة التاريخ الموضوعة على مخرج الجب . وقد كتب البياتي هذه القصيدة بالقاهرة ، قبل ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ بعامين ، وخمسة اشهر ، وخمسة وعشرين يوما.

لكن البياتي وجد لعالمه الشعري بطلا ثقافيا ، أو ـ كما يقول هو ـ ارهاصا أو بذرة مقتحمة لمثل ذلك البطل الذي يمثل عنده انسان المستقبل باني نيسابور الجديدة ووارث الارض وما عليها ؛ كما وجد لنفسه بطلا تاريخيا يمثل من واقع حياته مفهوم التجاوز والتخطي أو الثورة الدائمة الذي زاوج الشاعر من خلاله بين سيرته الذاتية وبين سيرة العالم ، اي التاريخ .

اما البطل الثقافي ، فيدعوه البياتي « البطل الاسطوري التاريخي » ؛ ويفسر لنا اهميته بالنسبة لعالمه الشعري وتعامله مع العالم ، فيقول : « ان مصارع العشاق والثوار والفنانين واستشهادهم يظل الجسر الذي تعبره الحضارة والانسانية الى ذات اكثر اكتمالا » (٢٣)

فالشاعر العاشق الثوري يتراءى في هذا المنظور بصورة الشهيد الابدي والفادي العظيم . والمنظور مدخول بابعاد رومانسية مافي ذلك شك ، وما من شك ايضا في أنه كان حريا ـ بين يدي" اي شاعر آخر غير البياتي ـ بان يجعل ذلك الشاعر العاشق الثائر يبدو زريا بعض الشيء وباعثا على الابتسام . لكن البياتي يعني ما يقول تماما ، بكل قوى روحه، وبكل براءة طفل يحكي بحماس بالغ حكاية مستحيلة التصديق وملء عينيه أضواء ، فتصدقه "، وتتحمس انت ايضا لحكايته . والواقع ان الطريقة التي ينجو بها البياتي في

كل مرة من الرومانسية عند سائر على شعره — تمثل معيارا هاما من معايير قيمة شعره ، وهو لاينجو الا لانه يعني كل كلمة يقولها . واصغ لهذه الأبيات التي تعبر شعرا عن حكاية مصارع العشاق واستشهاد الشاعر العراف الثائر ، وساحر القبيلة ، هل تجد فيها ظلا للرومانسية ؟

« عشر ليال وانا اكابد الاهوال
واعتلي صهوة هذا الالم القتال
اوصال جسمي قطعوها
احرقوها
نثروا رمادها في الريح

* * *

حر كهذي النار والريح ، انا حر الى الابد
ياقطرات مطر الصيف ويا مدينة ما عاد منها ابدا احد
موعدنا الحشر ، فلا تداعبي قيثارة الجسد
اوصال جسمي اصبحت سماد
في غابة الرماد
ستكبر الغابة ، يا معانقي
وعاشقي
ستكبر الأشجار
سنلتقي بعد غد في هيكل الانوار
فالزيت في المصباح لن يجف ، والموعد لن يفوت
والجرح لن يبرأ ، والبذرة لن تموت . » (٢٤)

فهل تجد الفارس الشهيد المعتلي صهوة الالم بطلا رومانسيا متشحا بالسواد ؟ قد يكون غنائيا بعض الشيء « حر كهذي النار والريح انا حر الى الابد » ، قريبا من الوجود الصوفي بعض الشيء « يا معانقي وعاشقي » ، لكنه ليس رومانسيا ولا مايقا ، بل قد يكون اقرب الى الجنون المقدس ، الوحشي بعض الشيء ، الذي تبكيه عاشقة على الفرات

« وبعد ان احبني ، احرقني هواه
حلت بروحي قوة الاشياء
وانهزم الشتاء
ذابت ثلوج وحشتي
واستيقظت طفولتي
كان لها طعم الحريق في فمي ، والدم والرماد
وعندما قبلني : احسست ان الارض دارت مرتين ، سقط المطر
وكنت في الغابة اجري وانا مجلولة الشعر

. . .

قلت له تعال !

. . .

واغمر ظلامي بحنان النار » (٢٥)

قد يكون فارس الالم ذلك المتلىء بعنف البياتي الداخلي اقرب — ربما اكثر مما يدرك البياتي — الى ديك الجن الذي من فرط العشق احرق حبيبته وصنع من رمادها قدحا مسحورا يشرب فيه خمرة ، فمثاله المسيح « مائدتي » فمثالي الاخير في وليمة الحياة (٢٦) او الخيام « فافتح لي الشباك ، مد لي يديك » (٢٧) فالبياتي يقول أن قدح ديك الجن كان قدحه المفضل « لان كبرياء الطفل المحكوم عليه بالاعدام او الحب كانت تاج الشوك في خرائب طفولتي واطلالها الدارسة المهجورة » (٢٨) في حديثه عن مدينة العشق ، وفارسه المتلى صهوة الالم يقول في « المحاكمة » :

« حكمت بالموت علي قبل الف عام
وها انا انام
منتظرا فجر خلاص ، ساعة الاعدام » (٢٩) .

مخاطبا الله او القدر او تلك القوة التي تقتل الحضارات بنفس كبرياء البراءة المحكوم عليها بالحب والاعدام .

ذلك الفارس الثائر الشاعر العاشق يسعنا — بشيء من الانتباه لما تنطوي عليه مصارحات البياتي — ان نتتبع نسبه الى تلك « القبيلة غريبة الاطوار التي تميز تاريخها بالفروسية والغزو والغناء ، والتي لم يستطع احد من المؤرخين تحديد تاريخها او اصولها او من

ابن جاءت ، على كثرة ما كتب حولها في العربية واللغات الاجنبية » ، قبيلة البيات (٤٠) .

فان شئنا ان نمعن في استقصاء نسبه ، ذلك الفارس العنيد في عشقه ، الذي يموت في حانات ليل العالم الطويل (٤١) ولا يموت العشق في قلبه ، عبر الف عام ، ويرى «مدينته المسحورة والدود يأكل وجهه وضريحه عفن مسدود ، فيقول لامه الارض : هل أعود ! فتضحك وتنفض عنه رداء الدود ، وتمسح وجهه بفيض النور ويعود اليها ، مدينته ، حبيبته ، يافعا مبهور » (٤٢) ، وكلما قام طورد وقتل ليدفن ثم يقوم ، لوجدنا سلفه الاول في شخص ذلك البطل البشري المصنوع من طين ،، أنكيدو ، الذي كان خلقه من قلب وحدة البشر وخوفهم وكبريائهم وأشواقهم المستعرة الى « العيش تحت الشمس الى الابد » كالآلهة والابطال انصاف الآلهة ، ووضعه « وجها لوجه أمام جلجامش » ؛ ابداعا اسطوريا) لا يعدم أن يكون ارهاصا او بذرة مقتحمة لانسان المستقبل الذي سيرث الارض وما عليها (٤٣) .

لكن علينا ، كيلا يفلت الخيط المراوغ من بين اصابعنا عبر عشرات التحولات والانحباطات وثورات الجدل والتحدي القصيرة المجترئة أن نحاول الامساك ، ولو لمدى لحظة فريدة صعبة ومجزية بحق ، بوجه ذلك الفارس الخرافي ، بين الكفتين ، ونحاول أن نثبته (ولقد كان ذلك دائما الحق الصفيق بعض الشيء ، الضروري ، الذي اعطاه النقد لنفسه قبل الشعر) ريثما نتعرف على قسماته الحقيقية وراء عشرات الاقنعة ومتاهات الرموز وسراديب الاساطير .

ذلك هو ما يدور هذا الكتاب حوله : إطلالة داخل بيضة الرخ . وهي مهمة ليست سهلة ،، كما يعرف كثيرون ممن دخلوا عالم البياتي وخرجوا منه بأي شيء الا مكنون سره ، وفي احيان كثيرة خلفوه وراءهم اكثر غموضا وأشد استغلاقا مما دخلوه بما تركوه فوق ابوابه من اسقاطات وتصنعات نقدية .

ومرة اخرى ، قد يجدينا أن نذكر أننا ـ اذ ندلف الى عالم هذا الشاعر ـ نسير في بهو المرايا . وليست الصعوبة ماثلة في محاولة الامساك بصورته هو بين آلاف الانعكاسات ، بل في تجنب الانسحار بانعكاسات صورتنا نحن ، واقناع انفسنا بأنها صورته .

هوامش

(١) « اباريق مهشمة » ، الديوان جـ ١ ، ص ٢٣٦ .

(٢) « مصرع بلبل » ، « ملائكة وشياطين » ، الديوان جـ ١ ، ص ١٣٢ .

(٣) « المخطوبة » ، « ملائكة وشياطين » ، الديوان جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٤) « ذكريات الطفولة » ، « اباريق مهشمة » ، الديوان جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

(٥) « سنوات التكوين » ، « تجربتي الشعرية » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٣٨٢ .

(٦) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٧) « حصار طروادة » ، « تجربتي الشعرية » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٤٥٧ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٤٤٦ .

(٩) « مدينة العشق » ، « تجربتي الشعرية » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٤٨٢ .

(١٠) « سيرة ذاتية لسارق النار » ، سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث ، الكتاب رقم ٤٧ وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ١٨١ .

(١١) « اباريق مهشمة » ، قصيدة « سارق النار » ، الديوان جـ ١ ، ص ١٨٠ .

(١٢) « النسيان » ، قصيدة للشاعر الفرنسي كوبي الاصل جوزيه ماریاد هيريديا ، « شيء من الشعر » ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٧٢– ٧٣ .

(١٣) « المحرقة » ، « اباريق مهشمة » ، الديوان جـ ١ ، ص ١٦١/١٦٠ .

(١٤) « سارق النار » ، « اباريق مهشمة » ، الديوان جـ ١ ، ص ١٨١ .

(١٥) « موت الاسطورة » ، « تجربتي الشعرية » ، ص ٤٣٩/٤٣٨ .

(١٦)

Albert Camus, « Selected Essays and Notebooks », Edited and translated by Philip Thody, Peregrine Books, Penguin, London, 1970, p. 187.

(١٧) « موت الاسطورة » ، المرجع السابق ، ص ٤٣٩ .

(١٨) « نيسابور الجديدة » ، « تجربتي الشعرية » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٤٠٢ .

(١٩) نفس المرجع ، ص ٤٠٩/٤٠٨ .

(٢٠) نفس المرجع ، ص ٤٠٩ .

(٢١) « حصار طرواده » ، « تجربتي الشعرية » ، المرجع السابق ، هامش ص ٤٦٣ .

(٢٢) ملحق الدستور ١٩٧٠/١/١٨ ، المرجع السابق الاشارة اليه .

(٢٣) « مدينة العشق » ، تجربتي الشعرية ، المرجع السابق ، ص ٤٧٣ .

(٢٤) « البياتي يجيب على سؤال العمر » ، حديث اجراه مع البياتي غالي شكري ، مجلة « دراسات عربية » ، دار الطليعة ، بيروت ، العدد ١١ ، السنة السابعة ، سبتمبر (ايلول) ١٩٧١ ، ص ٦٣ .

(٢٥) نفس المرجع ، ص ٦٥ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص ٦٤ .

(٢٧) قصيدة « اباريق مهشمة » ، الديوان جـ ١ ، ص ١٥٦/١٥٧ .

(٢٨) « البياتي يجيب على سؤال العمر » ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٢٩) « صورة على غلاف » ، « الذي يأتي ولا يأتي » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٧٩ .

(٣٠) « البياتي يجيب على سؤال العمر » ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٣١) « موت الاسطورة » ، « تجربتي الشعرية » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٤٣٨ .

(٣٢) « قصيدة الى عبد الناصر الانسان » ، القاهرة ١٩٦٥/٣/١٠ ، « سفر الفقر والثورة » الديوان جـ ٢ ، ص ٥/٦ .

(٣٣) « نيسابور الجديدة » ، « تجربتي الشعرية » ، المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

(٣٤) « رماد في الريح » ، « سفر الفقر والثورة » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٢٠/١٩ .

(٣٥) « العنقاء » ، « الموت في الحياة » ، الديوان جـ ٢ ، ص ١٤٩/١٤٨ .

(٣٦) « الصلب » ، « سفر الفقر والثورة » ، الديوان جـ ٢ ، ص ١٨ .

(٣٧) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣٨) « حصار طروادة » ، « تجربتي الشعرية » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٤٧١ .

(٣٩) « المحاكمة » ، « سفر الفقر والثورة » ، الديوان جـ ٢ ، ص ١٦ .

(٤٠) « البياتي يجيب على سؤال العمر » ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٦٠ .

(٤١) « الموت في الحب » ، « الموت في الحياة » ، الديوان جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

(٤٢) « مراثي لوركا » ، « المرثية الاولى » ، « الموت في الحياة » ، الديوان جـ ٢ ، ص ١٦٧ .

(٤٣) « حصار طروادة » ، « تجربتي الشعرية » ، الديوان جـ ٢ ، ص ٤٣٦ .

علم الجمال السريالي

فايز مقدسي

منذ رامبو ومالارميه ، بات طموح الصيغة الشعرية ان تتحول إلى رقية أو تعويذة سحرية . وامسى شاغل الشعر ان يؤثر ويوحي بواسطة هندسته اللغوية بدلاً من ان يصف أو يفسر أو يعلم . واخذ الشاعر ، منذ ذاك ، يمارس دور الساحر أو الكاهن الذي يمارس الطقوس التي تقودنا إلى الاتصال بالقوى المفقودة والتي جددها السرياليون باصطلاح « ما فوق الواقع » وهو المساحة غير المكتشفة بعد من الواقع . ولقد عبر الشاعر السريالي بول ايلوار ELUARD عن الدور الجديد للشاعر بجملة وردت في مقدمة احد كتبه ، تقول :

« الشاعر هو الذي يوحي اكثر مما هو الذي يُوحى إليه . »

على ان ما كان بالنسبة إلى « مالارميه » ـ على سبيل المثال ـ محاولة للاتحاد في الصمت ، او التوصل الى جمال مطلق وفناء ذاتي في « المثال » ، بات بالنسبة الى السرياليين محاولة للوصول إلى جعل الشعر مغامرة تعاش بواسطة اللغة وتشارك في مخاطرة ذلك التنقل العجائبي مابين عوالم الحلم واليقظة والعقل والجنون ، لاكتناه كلية المجال الواقعي في سبيل إدراك كنه تلك النقطة التي تتوحد فيها المتناقضات .

وذلك الانتقال الدائم من اليقظة إلى الحلم ومن الحلم إلى اليقظة ، ادى بالشاعر

(وبالتالي الشعر) إلى عيش نمط من الحياة والسلوك لاينتمي إلى معطيات الحلم وحدها أو معطيات اليقظة وحدها . وانما إلى معطيات الحلم والواقع وقد امتزجا معاً امتزاجاً عفوياً وشكلا واقعاً جديداً التقت على ارضيته الموضوعات التي كنا نظنها لاتلتقي .

ذلك كله قاد التجربة الادبية إلى التحول إلى تجربة روحية تتصف بالخطر الناتج من مفارقة الواقع المألوف إلى عوالم نفسية غير مألوفة قد تؤدي إلى الجنون والتهلكة . وبالتالي فقد تحولت التجربة الجمالية من المفهوم المطلق الذي يعتبر الجمال اما انه الخير واما انه الشر ؛ الى المفهوم الذي يعتبران الجمال يتأتى عن طريق المعاناة والقلق ووحدة الخير والشر وعدم تمايزهما وانه ؛ اي الجمال ، بمثابة حاسة خبيثة انسانية ضدالموت. ولقد كتب « لوتر يامو » في « الاشعار » فقال :

« يجب تعلم (كيفية) انتزاع الجمال

الادبي حتى من صدر الموت (١)

وقد كان تصعيد مفهوم التجربة الادبية من ممارسة فكرية اسلوبية باردة إلى ممارسة جمالية تمتزج والحياة ؛ امراً كرس حيوات الشعراء وتأملاتهم الجمالية للخطر حيث ان : « الجمال اما ان يكون تشنجياً واما ان لايكون . » (١) وهو سوف يبعد عن ذاته صفةالزينة متلبساً صفات مثل العذاب والالم والمغامرة والبطولة والاستشهاد . اي كل معطيات المأساة .

لذا كان بديهياً ان الجهد العقلاني الواعي لذاته الذي ميز « الرمزية » قد حوله المفهوم الجمالي السريالي الخاضع لمنطق الصدفة الى اختلاجات يتراقص فيها طيف الجنون حتى ان « برتون » كتب يوما « القصيدة ماهي إلا حطام العقل . » واصبحت اللحظة الواقعية من القصيدة تتلاشى في اللحظة التابعة للحلم . ولحظة الحلم والهذيان تتداخل في اللحظة الواقعية في امتزاج عجيب كما في هذين المقطعين من قصيدة «اغنية العاشق المعذب» « للشاعر » ابولينير .

---

١ ــ اندريه برتون ــ نادجا

قارن ذلك مع قول الصوفي الطمستاني : « التصوف اضطراب فاذا وقع سكون فلا تصوف . »

« ذات مساء معتدل الضباب ، في لندن .
متسكع يشبه حبي ، جاء يلاقيني
والنظرة التي رمقني بها ، جعلتني
أغض حياء .
تبعت ذلك الصبي الأرعن
الذي يصفر ويداه في جيوبه
وكنا نلوح مابين المنازل
موجة مفتوحة من البحر الاحمر
هو العبرانيون ـ وأنا فرعون . »

هذه الثنائية التي تطمح إلى الاندماج في وحدة برزت كأفضل ما يمكن في احتواء النص السريالي في أكثر الاحيان على العنصر الهزلي مضافا أو مرافقا للفجيعة .

فالنص هو مأساوي باعتباره نتاج روح يتقصى وحدة ذاته فيما وراء الثنائية ، فهو يجسد الدراما التاريخية للإنسان واحساسه العميق بوحدة ذاته رغم الثنائية القائمة فيه كقول بودلير « أنا الجرح والسكين ، الضحية والجلاد » .

والنص هزلي باعتباره من الناحية التقنية يجمع أو يحتوي على مالا يمكن جمعه وعلى ما يرفض المنطق السليم امكانية اتحاده . وكان « برجسون » قد عرف الضحك بأنه يتسبب من وضع انساني غير مألوف ومخالف للمنطق .

وباجتماع الهزلي مع الفاجع . يكتسب الهزلي طابعا أسود ويصطبغ بصبغة تراجيدية . وهو الأمر الذي يجسده « البهلوان » أو « مهرج السيرك » الذي يضحكنا بتعرضه للخطر . وفي هذا الرمز يتحد المأسوي والهزلي ، وهو موضوع نلاحظه في أعمال « بيكاسو » في فترته السريالية حيث أكثر من رسم المهرجين والجوالين .

وهذا الاتحاد ما بين المضحك والمفجع هو ، من جانب آخر ، نوع غريزي من مجابهة الفجيعة والحزن ، حيث ثمة ميل في جملة الجهاز العصبي ينحو الى بذ التوتر بواسطة الضحك . « وايلوار » يقول في احدى قصائده :

« انها تضحك لتخفي هلعها من ذاتها »

ويتميز هذا الضرب من التأمل الجمالي في انه يخضع المكونات الجمالية الى عامل

الصدفة . أي الى لقاء عفوي يداهم الاشياء المتنافرة فيجمعها وينسقها على نحو غريب يحدث إحساساً عميقاً بالجمال ما كان متوقعاً من قبل . ولقد بيَّن « ريفردي » طبيعة تكون الصورة الشعرية من لقاء غريب حين قال : « الصورة لا تتولد عن مقارنة ، بل من واقعتين لا يربطهما رابط . وكلما كانت العلاقة بين الواقعتين بعيدة ، كانت الصورة أكثر قوة وتأثيراً » .

اذن ، منذ جملة بريتون الشهيرة « الجمال اما أن يكون تشنجياً واما ان لا يكون » ، بات تأمل الجمال نوعاً من المغامرة . وصارت القصيدة هبوطاً في الطبقات النفسية العميقة ، أو ارتداداً من الحاضر الى الماضي السحيق الغامض والمليء بالمخاوف ، باتجاه « نقطة الوعي » المبهمة . وهي مغامرة قد لا يكون بعدها رجعة . يقودها الخيال الذي نظر اليه دائماً باعتباره السبيل الوحيد لقيام تواصل ما بين المرئي والمحجوب . وباعتباره أيضاً الرابطة القوية ما بين الواقع وما فوق الواقع . ولما كان الشعر لغة المخيلة فقد رُجي منه ان يحقق ذلك التواصل المنشود . حتى ان « رينه شار » كتب مرة :

« اللغة وسيلة تحقيق نوع من التواصل الكوني » .

ان تلك الصيغة التشنجية التي تتصف بها علم الجمال السريالي ، أو التي وولها عن رامبو ولوتر يامو ، تقوم على كونه يعتمد المفارقة ، وعلى كونه يخضع لتقنية الحلم . فهو يستند على إحداث صدمة نفسية تبلبل نظام العقل حتى تتيح الفرصة للخيال وللجهاز النفسي بجملته ، ان يتجاوز انماطه المألوفة من النشاط التأملي ، الى مناخات يختلط فيها والى حد بعيد الحلم واليقظة . فالنص يبدو وكأنه يجد حرية تتجاوز حريتنا المعهودة . وكل صورة سريالية سوف تمثل في تركيبها العضوي غياب كل تاريخ اخلاقي . كما سوف تمثل الحرية في الوقت ذاته . فهي ، اي الصور السريالية ، كما ذكر برتون : « تماثل الخيالات التي نراها بتأثير الافيون . والتي لا يستدعيها المرء ، ولكنها ـ والكلام هنا لبودلير ـ تهب ذاتها فجأة وبشكل طاغ . فلا يعود بوسع المرء صرفها ، حيث ان الارادة تفقد قواها ولا يعود بمقدورها التحكم في الملكات الذهنية » (١) .

والصورة ، في تركيبها العضوي الهائل الشحنة ، حين تجمع ، ما بين المتجاذب والمتنابذ وما نفى التاريخ المنطقي امكانية لقائه ، في دورة واحدة . فذلك انما يؤكد

(١) برتون ـ البيان السريالي الاول .

على لحظة الخبرة الثورية للمخيلة . حيث ان الصورة ما ان تبدأ نشاطها الايحائي التوحيدي ، حتى تكون قد ساهمت في تغيير مفاهيمنا عن المرئي وعن الواقع موسعة من آفاق معرفتنا . وتكون المفارقة الى ما فوق الواقع قد بدأت . وهي دائما مفارقة الى « الحلم » . حيث ان الحلم يجسد حرية ما فوق الواقع هذه .

الحلـم :

حين يفارق الشاعر الواقع الى ما فوقه ، فهذا في الحقيقة نوع من التعمق في الواقع . انها الحالة التي وصفها ، قبل السريالية بزمن بعيد ، أحد صوفية القرن الثالث عشر بقوله : « كلما حلق ، غاص في الرؤية » (١) .

ومن الممكن تعريف ما فوق الواقع بأنه الجانب المحجوب من الواقع الكلي والذي بسبب جهلنا به ننسبه الى الوهم . كما لو نقول ان قارة أمريكا وهمية لمجرد اننا كنا نجهل وجودها قبل اكتشافها مع انها كانت دائما حقيقة واقعة قبل وبعد اكتشافها .

من المنظور السريالي كان التحليق بعيداً عن الواقع بمثابة تعمق في الواقع غير المعروف بحثا عن الكلية . وكأن هاجس السريالية ، رسم خارطة جديدة للواقع الانساني بكافة قاراته . فهي قد آمنت دائما بأن الانسان أعظم شأنا مما يبدو عليه . وحدست انه يتمتع بقوى نفسانية خارقة يمنحنا الحلم فكرة عنها وتذكرنا بالاصل الالهي للانسان . وجهدت السريالية كي تتمكن من استقطاب تلك القدرات . ورأت انه طالما تشكل هذه القوى جانبا من عالم الحلم . وطالما ان الحلم ظاهرة انسانية غير مرضية ؛ فان هذه القوى حقيقة راهنة يجب تعقب آثارها (٢) .

ولكن التأكيد السريالي على الحلم كان له أيضا مفهومه الفلسفي الميتافيزيقي باعتباره كان تأكيدا على الحرية كما يظهرها الحلم حيث كل شيء يلوح ممكنا وما من مستحيل . ولقد أعلن « برتون » دائما أن كلمة حرية هي وحدها ما تزال تثير حماسة ؛ مبينا مدى تعبير الحلم عن الهواجس العميقة للانسان بقوله : « ... في الحلم يحلق الانسان في

(١) روز بهان البقلي الشيرازي المتوفي عام ١٢٠٩ ــ مخاطبات الاسرار ومكاشفات الانوار ــ تحقيق ــ ب . نويا .

(٢) سبق لابن عربي التأكيد على قوة الحلم بقوله :

« عليك بالنوم ففيه تؤتى الفهم » .

الفضاء ، يرتكب الجرائم ، يحب حسب هواه . وحتى ان مات فثمة يقين يملأ جوارحه بأنه سوف يبعث من بين الموتى » . ويضيف بريتون قائلا : « ان نفس الانسان الذي يحلم يملؤها الرضى بما يحمله الحلم اليها . حيث ان الاسئلة القلقة حول الامكانيات تكف عن أن تطرح » (١) .

اذن ، الحلم يماثل النقطة التوحيدية التي سبق الحديث عنها ، فهو خلاص من الثنائية . كتب نوفاليس :

« في الحلم تمتزج صور الحياة ببعضها البعض » .

ووصفه « جيرار دي نوفال » بانه « حياة ثانية » والمقصود هنا أن للحلم ذات الواقعية التي تضفيها على الحياة ، وذات الواقعية التي تضفيها الحياة علينا . وترينا آلية الحلم ان التناقض القائم في قلب الاشياء انما هو مظهر لحركة هذه الاشياء ، وان العلاقة الجدلية لكل مظاهر المحيط انما تؤدي الى مفهوم سكوني للوعي . والحلم من هذا المنطلق ، هو اظهار للحالة السكونية التي تميز علاقة الاشياء والتي تبين لنا وحدة العالم . هذه الوحدة التي تفسر تلك الحرية الخصبة التي تميز عالم الحلم حيث يتحد الانسان وما يحيط به ، ويمارس قواه كاملة . وفي الحلم ، أخيرا ، يتم التجاوز الانساني للمستحيل .

على هذا الشأن ، تجسد الفهم السريالي للحلم وقوته وما يبينه لنا من طموح انساني غامض وخفي . فالحلم هو القوة التي توقظ الشعور الانساني بالحرية وتريه ضيق الآفاق المعروفة من الواقع . أو ضيق المساحة التي تحدد بها الواقع . وتثير اهتمامه بالبحث عن كلية الواقع ، في نفس الوقت .

ولقد تأثرت الجمالية السريالية ، والى حد كبير ، بمفهوم الحلم كما سبق طرحه . وتحولت الى بحث دائب عن هذه « الحياة الثانية » أي الحلم الذي جسد للسرياليين النزوع البشري الدائم الى المطلق . ومن هنا فقد كان تحطيم القوالب والافكار والاساليب، نوعا من ارادة التوصل الى صيغة لغوية تنتظم حرية الحلم وتجاربها . وهو الامر الذي حاولته السريالية والذي يبينه لنا مفهوم الكتابة الآلية .

---

(١) بريتون البيان الاول للسريالية .

الكتابة الآليـة :

يطلق اصطلاح « الكتابة الآلية » L'écriture Automatique على نمط مزوالة الكتابة دون الخضوع للرقابة العقلية ، كما لو اننا في حالة « تداعي الافكار » أو في حلم او حلم يقظة . دونما اعتبار الشواغل الجمالية او الاخلاقية ، من اجل اتاحة الفرصة لكافة الهواجس التي تجيش في دواخل النفس ، بالتدفق الى حيز الوعي وقد استهدفت الكتابة الآلية تحرير معطيات المخيلة ونظامها ، وفي الوقت ذاته ، تحرير التجربة الادبية من عبء التاريخ وسلطة الواقع ومؤسساته ، ومن الميل الزخرفي الجمالي ، للتوصل الى نظام كتابة متحرر كليا من العوائق .

ولقد املت السريالية ان تستطيع تحرير الانسان من عوائقه النفسية ، بواسطةتحريرها للغة . باعتبار ان اللغة الوسيلة الوحيدة التي نبين بها عن غوامض الفكر والنفس .

ولاح لفترة من الوقت ان « الكتابة الآلية » كانت محاولة لرصد حالات « الجزء الباطن من الوعي » حيث راح السرياليون يسجلون احلامهم وهواجسهم وهذيانهم . فكان « دسنوس » ينوم نفسه اراديا او بواسطة المخدرات حتى يكتب بمنجى من الرقابة العقلية . كما كان برتون وسوبو وايلوار وشار ، يمارسون الكتابة الآلية سوية ، مطبقين قاعدة لوتر يامو في ان الشعر عمل يجب ان يصنعه الجميع ، فانتجوا اعمالا مثل : الحقول المغناطيسية . والحبل بلا دنس . حيث ثمة نصوص مسرحية تلعب فيها « ماكينة الخياطة » دور البطولة . !!

على أن ما قصد من الكتابة الآلية كان في الواقع أعمق من ترهات بعض اعضاء الحركة . ان « دوبلسيس » في كتابه « السريالية » يعطينا فكرة واضحة عن هدف هذه الكتابة اذ يقول :

« هذا الضرب من التقنية السريالية (ويقصد الكتابة الآلية) انما هدف الى اكتناه الانسان كما هو في ذاته ، وكما هو في طبيعته الاولى . حيث يمكن كتناه كافة القوى النفسية ليصبح الانسان حقا حرا » .

ونرى ان هذا النمط من تسجيل تداعي الافكار ، يتيح للكاتب فرصة إنشاء صورة فنية او تقنية جمالية تستلهم الحركة النفسية الانسانية كما هي في الحقيقة وبمنأى عن

تدخل الملكات الواعية . صورة نستطيع القول عنها ، انها تعبر حقاً عن الوضع النفسي باعتبارها بمثابة بعث تلقائي من العقل الباطن للحالة اللاواعية كما هي فعلا . صورة يتميز بناؤها العضوي بانه لا تخضع لاي من الارهاصات الخارجية والداخلية . ولا يجسد سوى الحركة النفسية في حالها كما هي دون أن تضفي عليها رتوش الزخرفة الاخلاقية والجمالية أو أي ضرب من ضروب التهذيب الذوقي .

لذلك ففي النص الآلي المكون من متتابعات من هذا النمط من الصور يضعف الاحساس ببعدي الزمان والمكان ، وتلتقي المتعارضات في نوع عجيب من الوحدة ، مبينة لنا الحالة السكونية للاشياء فنرى :

« الطيور البيضاء التي تبيض بيضا أسود » (١) .

و « الاسود التي ترتجف بردا في الغابات المحترقة » (٢) .

و « صندوق البريد الملق على جدار مقبرة » (٣) .

ويتخلص النص الآلي من وطأة ومحدودية الزمان والمكان ، فانه يكون قد بدأ يماثل عوالم الحلم ، فيستعصي على التحديد والتفسير ويدخل نطاق المستحيل . وهو أقصى ما تطمح اليه الرؤيا السريالية .

لان « الرؤيا » تمثل حالة لا منطقية . فهي « فن رؤية الاشياء اللامرئية » كما عرفها جون تان سويفت . ونرى أن « ايلوار » حين تداهمه الرؤيا يرى اللامرئي فيصف السماء بأن لها : « صوت الرمل وايماءة الريح » . والارض تبدو له زرقاء كبرتقالة
La terre est bleue comme une orange.

ويلوح لنا ان تقنية الكتابة الآلية قصد منها أن تكون بمثابة تدريب عمدي « للانا » التي وصفها رامبو بانها « اخر » على استبصار اللامرئي الذي تسميه الاصطلاحات السريالية « ما فوق الواقع » اي الوجه الآخر غير المرئي من الواقع . ولقد ذكر « رامبو » في « فصل في الجحيم » شيئا عن هذا التدريب العمدي « للانا » على استبصار اللامرئي

---

(١) من قصيدة لبرتون .

(٢) من قصيدة لفتيراك .

(٣) من نص لفورنيريه .

او اضفاء صفة الخيالي على الواقعي فقال انه عود نفسه على نمط بسيط من الهلوسة فكان يرى : « صالون في قعر بحيرة » و « جامع في مكان مصنع » و « عربات تجري على طرق السماوات » . ويذكر رامبو في « السفينة الثملى » : « رايت احياناً ما ظن الانسان انه رآه » .

بهذا النمط من صياغة الافكار ، يمنح النص قدرة نقلنا من أجواء تالفنا وإبابها وتأقلمنا ونظامها ، الى أجواء يمتزج فيها العقل والجنون امتزاجاً عضوياً لدرجة انها تلوح لنا مسكونة بالغرابة واللاعقلانية .

هذا الامتزاج يفكك بقوته العضوية التتابع المنطقي الذي يميز اللغة حين نستخدمها لايصال افكارنا . وهو تتابع لا يتسع للتعبير عن هواجسنا . وهو معنى يصح فيه قول النفري « كلما اتسعت الرؤيا ، ضاقت العبارة » .

والكتابة الآلية بتحويلها الطبيعي الى مدهش ، مستلهمة الباطن الانساني ونوازعه الخبيئة ، انما كانت محاولة ، — وان أخفقت — (١) ، الى جعل العبارة تتسع للرؤيا ، وتتسق وإباها . اي محاولة لتجاوز اللغة ، وهو أمر قاد رامبو الى الصمت وما لارميه الى العدم ، من قبل السريالية .

الصدفة : Le Hasard

بعد الحلم والهزل والكتابة الآلية وظاهرة التشنج ، يتبقى لنا أن نتحدث عن ظاهرة الصدفة لتكتمل لنا أسس الجماليات السريالية .

ولقد رأينا أي دور تلعبه الصدفة في تشكيل الصورة الشعرية ، وكيف أن السريالية قد اخضعت المفهوم الجمالي بكليته لهذه الظاهرة التي يمكن رد أصول مقولتها الى « لوتر يامو » الذي تحدث عن فعل الصدفة في تكوين الجمال . فما الصدفة ؟

تلوح الصدفة للوهلة الاولى وكأنها التوصل ، بضرب من الاتفاق الغامض الجذور ، الى حدث او لقاء يحافظ على كونه مبهما رغم تحققه في الواقع ، ورغم ادراكنا الحسي له .

---

(١) نجد اليوم أن عددا من الكتاب عديمي الموهبة ، ينسبون انفسهم الى السريالية ، وينتجون تحت شعار — الكتابة الآلية — آثارا تتصف بالركاكة والتفاهة . حتى أن كاتباً فرنسيا اصدر مؤخرا كتابا جعل عنوانه — موت الادب — وضمنه نماذجا من آثار هؤلاء .

من منظور آخر للامور . تبدو الصدفة وكأنها ذلك التحول المجالبي المفاجيء الذي يداهم الاشياء فيبدل مصائرها مثل « الخشب الذي يجد نفسه ، بالصدفة ، كمانا » . « والصفيح الذي يحال ، أيضا بالصدفة ، بوقا » (١) . على أن الصدفة تظل أبدا انموذج الحدث الغامض . ولما تساءل « هيجل » عن الحاجة التي تدفع الانسان الى انتاج الاعمال الفنية ، رأى ان واحدا من اهم الاسباب والبواعث يمكن ان يعزى الى الصدفة والظروف(٢) .

ولقد رأى السرياليون في الصدفة طاقة سحرية قادرة ، بفضل جمعها ، على حين غرة ، لموضوعات متباعدة أن تحقق جمالا ما كان بالحسبان . كما انهم اكتشفوا فيها أو ردوا اليها « تكوين » العنصر المدهش في الفن .

ان اغرب ما يميز ظاهرة الصدفة ، كونها تلغي – بواسطة تآلفها المفاجيء للموضوعات المتباعدة – الحركة الجدلية للاشياء – مظهرة عمقها السكوني المتمثل في قبولها الاندماج بسواها من الامور . ووجد السرياليون في ذلك ما ينسجم والى حد بعيد مع مفهومهم عن نقطة الوعي التوحيدية .

وقد اكتسبت الصدفة ، فيما بعد ، مفهوما فلسفيا عميقا جعلها تتحول من اتفاق عرضي Coïncidence الى صدفة موضوعية Le hasard Objectif . اي ذات اسباب معقولة وحادثة . ثم انضوى ذلك كله في مقولة سريالية غامضة مفادها ان الانسان ، دونما وعي أو بوعي مبهم ، يتبع حدسه الغامض . وان هذا الحدس الغامض عبارة عن ادراك باطني خارق ، أو شعور مسبق بالحوادث يشير بشكل غير مباشر الى التواصل الخفي القائم بين الانسان والكون . وبالتالي فهو يفسر موضوعيا احساس بعض البشر في بعض الاحيان بالحوادث قبل وقوعها بزمن وجيز . كما احس برتون قبل لقائه بناديا انه سوف يلتقيها . وكما حدس مرات عديدة انه رآها تدخل أحد الامكنة فتبع حدسه الذي لم يخيب ظنه .

ولقد أورد « برجسون » في حديثه عن « الحدس » العديد من الامثلة التي تثبت صدق

---

(١) رامبو – رسائل .
(٢) هيجل – علم الجمال .

ذلك . وانبت بما ينفي كل شك ان التواصل بين شخصين عن بعد هو أمر وارد وغير مستبعد . ولقد اشارت المدرسة الجشطلتية في حديثها عن عمليتي التحليل والتركيب النفسيتين الى ان كلا منا يكون صورة عن مدينة يقصدها للمرة الاولى في حياته وقبل وصوله اليها . وانه في أغلب الأحيان يحدث أن تماثل الصورة الذهنية الصورة الواقعية للمدينة . وهو تماثل ننسبه عادة الى عامل الصدفة . بينما تنسبه المدرسة الجشطلتية الى الاستبصار . وقد يكون بوسع جشطلت شرح مفهوم الصدفة هذا الذي من جانبه السريالي لا يزال الغموض يحف به .

خاتمة :

كان من الطبيعي ان تصف السريالية ذاتها كثورة على المنطق كما عبر عنه أرسطو ، وكما تجلى في بعض معطيات الفكر اليوناني ، معلنة على لسان مؤسسها « برتون » اننا مازلنا نعيش تحت وصاية المنطق . » (١) .

ولقد لاح دائما أن « برتون » انما سعى ، بواسطة السريالية ، الى بناء أسطورة جديدة للانسان المعاصر الذي يسحقه التقدم التقني العلمي ، والذي تمسخه الآلة وتجرده من احاسيسه ومشاعره . أسطورة تتمكن من انقاذ هذا الانسان المستعبد جسديا وروحيا . وتتمكن من استعادة القوى الانسانية المسروقة . أسطورة تعيد التأكيد على الروح ، وعلى القيمة الداخلية للانسان . وتستطيع في الوقت ذاته التعويض عن الخواء الفكري الذي داهم الغرب وحضارته منذ الحرب الاولى الكونية وانهيار فكرة الله . اسطورة تستعير من الروح الشرقي أعمق واسطع وجوهه . اي فكرة التوحيد والوحدة .

ولقد كانت السريالية ـ برغم بعض جوانبها العديمة القيمة ـ محاولة قادها الشعراء لانقاذ اللغة ولانقاذ الحس الجمالي الضائع في الإنسان . وكانت محاولة لاعادة إحياء الحساسية الانسانية التي توارت . ومحولة لطرح مفهوم الحب من جديد ، كقيمة انسانية كونية ووحيدة .

وهي باصطفائها الخيال والحلم والهزل الأسود والكتابة الآلية وحتى الجنون . انما رغبت الى القول أن الكثير من طاقات الانسان النفسية والعقلية لم يختبر بعد في مجابهة المعضلات الاساسية ، وأن الوقت قد حان للخلاص من وصاية المنطق ، وان ما من شيء

(١) برتون ــ البيان السريالي .

يمنع ـ بعد إفلاس هذا المنطق ـ اختبار طاقات أخرى انسانية في مسيرة جديدة ، تستلهم كلية الآلية النفسية لا بعض أجزائها فقط ، لاعادة بناء التاريخ على أسس جديدة في تصعيد من اليأس الى الأمل .

ولقد كان ثمة حاجة روحية ، بعد يأس الحرب الاولى الكونية ، تطلبت « ايجاد المتخيل (الفنطازيا) في الواقع . » كما قال ابولينر في احدى قصائده .

والسريالية ، كما طرحها برتون وتبناها ودافع عنها حتى موته ، وحيداً أو مع آخرين ، انما هدفت الى ازالة كافة العوائق التي تعرقل التقدم الروحي البشري المنشود في آفاق المجهول نحو الحرية النهائية والوحدة الشاملة لكل مظاهر العالم في سبيل مصالحة كونية وعمومية بين الواقع والخيال والموت والحياة . مصالحة قوامها الحب ، يتعانق من خلالها الظاهر والباطن ، الانساني والحيواني ، الالهي والشيطاني . لان السريالية كانت ، أولا واخيرا ، قضية انسانية عنت بالازمة الروحية للبشر حتى في اكثر تأملاتها جمالية . وهي وان انتهت كمدرسة ، فانها باقية الى الابد كموقف للوعي ازاء المجهول .

ولقد كتب « هيجل » في « علم الجمال » يوما فقال :

« ... تتميز التأملات الجمالية عن مثيلاتها النظرية للذكاء العلمي . في ان الفن يتعلق بالوجود الفردي لموضوعه ولا يبحث عن التحول الى فكرة او الى تصورات . »

* * *

— ٣ —

حول الرواية النسائية في سورية

د. حسام الخطيب

- ١ -

ظهرت رواية (في الليل) (١) لهيام نويلاتي على استحياء سنة ١٩٥٨ ، واختفت بسرعة لسبب ما ، واصبحت من تلك الكتب التي يسمع عنها الانسان أحيانا ولكن نادراً ما يراها . والغريب ان اسم المؤلفة اختفى ايضا من الساحة الادبية لفترة طويلة بعد ظهور هذه القصة ، كأنما كانت الصدمة قوية بما فيه الكفاية . وحين استعادت المؤلفة انفاسها بعد صمت اكثر من عقد من السنين كانت قد قررت أن تكف عن تجربة الكتابة القصصية لصالح انصراف مفعم بالحماسة الى الشعر دون غيره من فنون القول .

وما من شك في أن العمل القصصي الاول لهيام نويلاتي يكشف عن تطلعات شعرية واضحة ، وتمتزج كل مشاهد القصة المتوترة فرحا أو حزنا بمشاهد الطبيعة من حول البطلة ، وكان (الليل) دائما هو الوعاء الحنون الذي يحتويها ويلفها ويسمح لمشاعرها بأن تتدفق ولنفسها بأن تنطلق على سجيتها . وحتى في آخر الرواية حين فقدت البطلة بصرها على اثر صدمة عاطفية ، لم تعرف ذلك الا بعد أن ايقظها من نومها في هدأة الليل صوت بومة وقفت على نافذتها :

«فكان الله قد كلفها بايقاظي ليسلمني الى نواقيس هذا الواقع الجبار الذي يملأ أذني ... » (٢) .

---

(١) دمشق ، ١٩٥٨ .

(٢) « في الليل » ، ص ١٥٥ .

لقد كان ايقاع نفس البطلة يجد دائما تجاوبا في ايقاع الطبيعة ، ولم يكن هذا التوازي متقنا في الرواية ولا عميقا ولا مستغلا استغلالا كافيا ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن ناشزاً ولا مسرفا كما ينتظر من تجربة مبتدئة في مجال الكتابة .

ان رواية في (الليل) مثل تجربة « ليلةواحدة » تجربة ادبية نسائية تدخلتحت عنوان الادب النسائي على نحو ما حددنا . في مقدمة القسم الاول من هذا البحث . (١)

ولكن فيما عدا الالتقاء العنواني (الليلي) والالتقاء العام في الهدف الاوسع ؛ وهو لفت النظر الى الظلم الواقع على المرأة في المجتمع التقليدي المتخلف ، لا نجد وجوه التقاء اخرى بين العملين ؛ بل يكاد كل من العملين يدير ظهره للآخر ليأخذ اتجاها معاكسا ؛ فبطلة (ليلة واحدة) تخوض التجربة وتدفع حياتها ثمنا لها ، وبطلة (في الليل) تفر من التجربة فرار ابن آوى من قسورة ؛ وما ان نتوهم أنها قاربت أن تلامس الخطوة الاولى حتى تنتفض مولية الادبار ، ثم تكون الصدمة الثانية وتدفع نور عينيها ثمنا للخلاص من التجربة .

ان بطلة (في الليل) طالبة في معهد موسيقي تتعلق بأستاذها الكهل العزب ، وتؤم منزله لتسمعه بعض الحانها ، وهي تحبه كل الحب ، ولكنها تريد ان يظل هذا الحب ممارسة خيالية عذبة وبريئة ومفعمة بالحنان والشوق والتوق والعذاب (أي بالماروشية العاطفية) . وتحدث الصدمة المخيفة حين يهم الاستاذ بتقبيل الطالبة التي فتنت لبه وأظهرت له من صنوف التعلق به مالم يترك له كبير خيار . ولكن الطالبة تصعق ؛ فهي من البراءة والغرارة والاستقامة الخلقية بحيث لا يخطر ببالها مثل هذا الافك على حافة مقعد العبادة الذي اعتادت أن تجلس فيه مؤدبة أمام الاستاذ تعزف وتحب وتتعبد. ويحدث بعدذلك أن يتكشف الاستاذ عن لؤم وسوءطوية اذ ينتقم منها في الامتحان ، وكذلك يخطب ويعزم على الزواج وتكون النتيجة أن الفتاة لا تتحمل محنة الرسوب وتستسلم للنوم، وتوقظها بومة في هدأة الليل فاذا هي قد فقدت بصرها ؛ ودفعت الثمن غاليا . وترحل الفتاة عن البلاد ، وتحترف العزف والغناء ، وتصبح بعد لأي مغنية مشهورة في مصر ، يجلها رواد مقهى (عابدين) ويقدرونها ، وهناك تلتقي مصادفة بابن حبيبها القديم الذي قصد مصر ليطلب العلم ، وحين تتأكد من شخصيته تترك له كتاب مذكراتها ، وتتوارى

(١) انظر المعرفة ، عدد كانون الأول عام ١٩٧٥ .

من الانتظار ؛ ويحمل الابن ـ دون أن يدري ـ الكتاب الموجه الى والده الارمل الوحيد الهرم ، وهناك في دمشق يقرأ الاب المذكرات ويسلمها الى الابن الذي يعرف كل شيء ، ولا يملك من قدرة على التصرف سوى أن ينوي تحقيق ما عجز عنه والده ، وهو تنفيذ رغبة (المغنية العمياء) باحياء اسمها ـ الذي لا نعرفه خلال الرواية ـ وذلك باطلاق اسمها على أول مولودة تولد له ! وما أهونها من وصية ! وما أظرفه من مطلب ازاء كل تلك التضحيات ! ان البطلة هنا هي المرأة التي يظلمها الآخر مرة فتظلم نفسها عشراً .

وهكذا تلتقي البطلتان ، بطلة الليلة الواحدة ، وبطلة الليل المتواصل ، على نهاية واحدة وهي التضحية بالنفس وبالحقوق وبالحياة ؛ على الرغم من ان احداهما خاضت التجربة وعرفت الباب ، والثانية لم تسمح لنفسها أن تقترب قاب قوس واحد من التجربة ، وهنا المفارقة ، وهنا الطريق المسدود الذي كانت تجد المرأة نفسها حبيسة له .

وتكشف محاولة هيام نويلاتي عن بقعة (ذهنية) متحفزة على الدوام ، وسواء أكان الفتى هو الذي يتولى السرد او الفتاة ، فهناك استعداد مستمر لدى المؤلفة للتعليق بالحكمة او الراي المناسب . وتعكس هذه الآراء النظرة العامة التي يعبر عنها ادب المرأة في موقفه من الرجل ، فالرجال غادرون متهالكون على المتعة ، عمون عن تقدير حب المرأة وتضحيتها ، وهم انانيون الى أبعد حد ، ولكن ـ مع ذلك ـ ليس أمام النساء من خيار سوى أن يمضين في حب الرجال ويضحين ويقبلن . وان كل سطور الرواية تشهد على ذلك ، وليس يحتاج المرء الى شاهد ، ومع هذا فلنسمع النصيحة الذهبية للبطلة :

« ولا تنس أن أكثر الرجال لا يعرف الحب الى قلوبهم سبيلاً .... وان أحبوا فحبا حبهم هذا حين تلتهم غرائزهم الجنسية المتعة من المرأة التي يحبونها » ص ٦١ .

وتصاحب الحماسة الى قضية المرأة عند هيام نويلاتي حماسة وطنية ظاهرة تعكس النفس الوطني والنضالي المتأجج الذي امتازت به خمسينات هذا القرن في سورية ، وهناك هجوم حاد على المستعمرين الفرنسيين وعلى الذين يقلدونهم . وكذلك تحمل سطور الرواية أفكاراً اخلاقية مدرسية . ونستطيع أن نخمن من ظروف البطلة غير الواضحة انها خرجت من صفوف طبقة البورجوازية الصغيرة الناشئة في ذلك الحين ، وبذلك

تحمل الرواية صورة من تفكير هذه الطبقة في بعض المسائل . والحقيقة ان الرواية تكاد تقول ان كل شيء على ما يرام في المجتمع البورجوازي الصاعد في دمشق ، وكذلك في برجوازية القاهرة الاشد عراقة ، وليس هناك سوى خطأ واحد يقتضي الاصلاح وهو الواقع المتردي للمرأة وظلم الاهل والمجتمع لها . وهنا بالطبع مقتل (الادب النسائي) وورطته المستحكمة .

ان رواية هيام نويلاتي تشكل وثيقة فكرية اجتماعية ذات اهمية نوعيـة على نحـو ما يتبين من العرض السابق ، واهم ما يميزها أن الالم النسائي فيها غير حاقد وغير معقد وغير متشنج خلافاً لما رأينا عند « أروى بنت الخطوب » . بل هو ألم متسامح ببراءة ومحتج على الظلم ولكنه راش (بالمكتوب) و (المقسوم) . بسذاجة ، وفيما عدا القيمة الدلالية للرواية يصعب الحديث عن قيم أخرى كالقيمة الفنية ، فالمحاولة من هذه الناحية مبتدئة ، ويختلط فيها مفهوم الرواية بمفهوم المقالات الانشائية المدرسية (وقد رأينا جانباً من ذلك عند كوليت) ، كما تكثر فيها مواقف النجوى الداخلية التي تعيق السرد ولا تتضمن من التحليل النفسي الا أقله ـ مع العلم أن البطلة تبذل جهداً واضحاً في هذا الاتجاه وتعبر عن خشيتها من ملل القارىء وانصرافه . كذلك من الحق أن نذكر أن لغة السرد في المقدمة لـ وهي لغة كتاب لا فتاة لم تبدأ المباشرة ووظيفية ، ولكنها لم تستمر حين تولت الفتاة سرد مذكراتها . على أي حال تكشف لغة السرد عن امكانية جيدة للتطور باتجاه لغة قصصية ذات وظيفة فنية .

– ٢ –

١ ـ تقدم لنـا انعـام المسالمة في « الحب والوحل » (١) محاولة لمعالجة مشكلـة المرأة في المجتمع الابوي او مجتمع الرجل ، ويسرد لنـا راوي القصة الطبيب أحمـد حكاية إيناس الطبيبة الشابة التي ترفض الزواج وتأنف الحياة بسبب اخفاقهـا في حادثة حب سابقة . ورغم أن الراوي يحبها وتعترف بالميل اليه فانها ترفض الاقتران به ، ثم ترتحل (إيناس) عن البلدة بعد وفاة حبيبها الاول الطبيب الذي كان صديقاً للراوي ولأنها تشعر انها هي التي قتلته برفضها توبته بعد أن كان تنكر لهـا . أما الراوي فهو مقيم على عهدها واثق من عودتها .

---

(١) نشرت في دمشق بلا تاريخ والارجح أنها تعود الى سنة ١٩٦٢ . وتقع في حدود ١٩ ألف كلمة .

وتحاول الرواية أن تبحث في حالة سيكولوجية اجتماعية معينة هي حالة الفتاة المتعلمة الشرقية الحساسة التي تعاني من اختلاط القيم الفكرية والاجتماعية ؛ ومن قيود المجتمع ، ومن الولاء لمثالية أخلاقية مجهولة الاوصاف .

ويسيطر على الرواية طابع من الشقاء النفسي والكدر المزاجي والسوداوية والانهزامية وفرط الحساسية المرضية ، والشخصية الرئيسية (إيناس) شخصية مريضة مرهفة الى درجة اللامنطق ، معقدة ، مازوشية تستمتع بتعذيب نفسها بلا مبرر واضح . ان المسوغ الوحيد هو مسوغ مغلوط ؛ فحبيبها قد عاد اليها تائبا بعد سفره الى الغرب ولكنها تحتقره وترده خائبا لانها تقيس الموضوع وفقا لاخلاقية داخلية وهمية لا يمكن أن تنطبق عليها أية حالة من حالات الحياة الواقعة ؛ ثم انها ترفض حبا جديداً بسبب عقدها ، ولو فعلت كل فتاة ما تفعله هذه الفتاة (المتعلمة الطيبة) لتوقفت الحياة في الشرق وفي الغرب .

ان البطلة تعاني من عقدة واحدة هي عقدة الخوف من الحياة ، وتضفي هذه العقدة على كل من شاء له سوء الحظ أن يتصل بها ، ولا تترك القصة بصيصاً من أمل أو دافعا للاستمرار ، سوى مجموعة من المواعظ تتعلق بضرورة تربية الاجيال الجديدة .

على أن هذه القصة تلفت النظر الى الوضع النفسي المرضي الذي تعيشه نماذج نسائية كثيرة في مجتمع قائم على الزيف والقهر والتسلط . وتعتبر هذه القصة (نسائية خالصة) سواء من حيث الموضوع أو من حيث المعالجة والموقف . وتشير القصة الى نواحي الاضطهاد التالية بوجه خاص :

ا ــ البنت معقدة في المجتمع (أي مجتمع ؟) لانها تعامل باحتقار منذ صغرها .

ب ــ البنت مسلوبة الحرية ومضطهدة .

حـ ــ هناك تمييز مشين في المعايير الاخلاقية بين الرجال والنساء حيث يباح للرجال ما لا يباح للنساء .

د ــ المرأة هي المسؤولة في المجتمع عن الخطيئة (لا الرجل) . في حين أن الرجل مبرأ دائما وما نسيه لا يلعب دورا هاما في حاضره مثلما يفعل ماضي المرأة الذي يطاردها دائما .

وتعاني القصة من بداية فنية ، ومن تركيز على (نسائية) مشكلة المرأة والاخفاق في ربطها بمشكلة الصراع الاجتماعي العام .

٣ ـ استنتاجات عامـة :

من الصعب أن يشـتر الانسـان ـ بدافع من التعاطف بالطبع ـ على الضآلة الكمية والتواضع في السوية الفنية للقصص الطويلة التي كتبتها أقلام نسائية لتعالج القضايا النوعية الخاصة بالمرأة (١) . وإن مثل هذا الوضع يجعل الباحث في خشية من المجازفة باستنتاج أحكام عامة ، قد لا يشترك فيها ـ في أحسن الاحوال ـ أكثر من عملين أو ثلاثة .

ومن هنا فضلنا اطالة الوقوف عند أعمال معينة بحد ذاتها وحاولنا أن نستجلي طبيعة موقفها من الموضوع كما ألقينا عليها بعض الاضواء الفنية . ومع ذلك يبدو انه لابد لأي بحث من أن ينتهي بجملة من الاحكام العامة والاستنتاجات المشتركة ، ويرجو المرء أن تؤخذ هذه الاحكام العامة بحذر ، ومن خلال تحفظات عملية كثيرة يترك للقارىء تقدير مالم يذكر منها .

وإذ نحصر أحكامنا بالاشكال الروائية السورية النسائية ، دون أن يتضمن ذلك اي افتراض بأن الاشكال الفنية الاخرى كالقصة القصيرة تخرج عن هذه الاحكام(٢) . يمكن أن نقول أن جيل الرائدات مثل وداد سكاكيني وسلمى الحفار الكزبري صب اهتمامه على تقديم نماذج من حياة المرأة الاجتماعية وطراز تفكيرها وتصرفاتها الخارجية ، وقنع بذلك في القصص الاولى دون أن يظهر عناية كافية بتحليل الشخصية النسائية أو بتحليل طبيعة ذلك الظلم الاجتماعي الصارخ الذي كانت المرأة تعاني من وطأته ، وكأنما تركت هذه المهمة للجيل الاحدث عهدا الذي بدا منذ أواخر الخمسينات يشن حملة مزدوجة تهدف في وقت واحد الى تحرير المرأة من الهيمنة النفسية للرجل وتحريرها كذلك من عقدها النفسية الخاصة الناجمةعن طبيعة التربية التي يفرضها المجتمععليها . لقدطمحتالكاتبات الشابات ـ كما هو واضح في قصص المرحلة ـ الى الوقوف على قدم المساواة مع الرجل نفسيا واجتماعيا ، ولكن ثورتهن لم تكن كاملة ، وأبدين تحفظا شديدا في المسألة ذاتها

(١) هذه هي الحدود التي وضعناها للبحث في مقدمة القسم الأول .

(٢) تشير كل الظواهر الى امكان انطباق الاحكام التالية على مجمل الادب النسائي في سورية ، وربما ايضا في اقطار عربية اخرى كلبنان ومصر والعراق .

التي كانت لب ثورتهن وهي مسألة الحب والجنس ، وكانت الخشية من المجتمع تحد من انطلاقتهن . ذلك أن صراحة المرأة في المجتمع المحافظ تسيء عادة الى سمعتها الاجتماعية وتجر عليها النقمة العامة التي قد تصل الى حد عقوبة الحرمان الاجتماعي . ولكن العائق لم يكن اجتماعياً فحسب بل كان نفسياً كذلك . فالمرأة التي تخرج عن نطاق التقاليد وسلك سلوكا تحرريا معرضة دائما لان تقع فريسة الاذلال والخيبة اذا لم تجد الشريك الذي يتفهم حقيقة موقفها ويتحمل مسؤولية مرافقتها امام المجتمع . ولقد كانت هذه المعضلة جلية باشكال متفاوتة عند كاتبات المرحلة على اختلاف الانواع الادبية التي مارسنها ، وذلك مثل غادة السمان وكوليت الخوري وقمر كيلاني وأم عصام وهيام النويلاتي وانعام مسالمة مع الفارق الشديد طبعا في المستوى الفني لكتابتهن . وعلى وجه التقريب هناك تطابق بين الموقف المعقد لكل من الكاتبات وبطلات قصصهن ، ويبدو انقسام الشخصية والصراع الداخلي صارخا على السطح في اكثر الاحيان وخفيا في أحيان أخرى ؛ وبطلات القصص ـ بصرف النظر عن مدى تمثيلهن الكاتبات ـ يحاولن على أي حال حسم الصراع الداخلي الدائر في انفسهن بين الرغبة في الانطلاق والخشية من عواقبه عن طريق كبت انوثتهن لصالح التأكيد على كرامتهن ، مما ينجم عنه في نهاية الامر ان يأتي سلوكهن الفعلي نسخة طبق الاصل عن السلوك النمطي للفتاة التقليدية في مجتمعهن . ومما يؤكد اقتناع المؤلفات بهذه النتيجة أن معظم البطلات اللائي خرجن عن الطوق ونقلن رغبتهن في التحرر الذاتي الى حيز الممارسة انتهين اما الى الموت واما الى الهاجرة من البلاد . وهي ظاهرة مشتركة في الأدب النسائي العربي المعاصر (١) .

وبالاضافة الى هذا الحكم العام يمكن أن تساعد الملاحظات التالية على تكوين نظرة أكثر شمولا حول تجربة الرواية النسائية السورية :

١ ـ أول ما يلفت النظر في الرواية النسائية السورية الالحاح الشديد على معالجة الوضع النوعي الخاص للمرأة بوصفه وضعا خاصا منعزلا عن قضايا المجتمع الاخرى وغير مرتبط بالظلم الاجتماعي العام . وتفتقر الاعمال الروائية النسائية عامة الى رؤية اجتماعية سليمة ، وكأنما الشعور بفداحة الظلم الذي يحيق بالمرأة هو من القوة بحيث يصرف

---

(١) عالج هذه النقطة بالتفصيل الاستاذ جورج طرابيشي في مقالة له بعنوان (الاستلاب في الرواية النسائية العربية) ، الآداب ، آذار ، ١٩٦٣ .

انظار الكاتبات عن وضع هذا الظلم في إطاره الاجتماعي الطبيعي ، وتكون نتيجة ذلك عامة عجز شبه تام عن استشفاف أي مستقبل مشرق لتحرر المرأة . ان الشعور العميق بفداحة الظلم لايرافقه بحث جاد عن الحل ، وفي الاغلب تتجنب الكاتبات القاء اضواء مستقبلية ، لان رؤيتهن تكاد تكون معدومة .

وبالطبع لا يسمح أي امرىء منصف لنفسه أن يدعي عدم وجود معاناة خاصة بالمرأة من حيث هي امرأة ، ذلك أن نصيب المرأة من الاستغلال الاجتماعي والسياسي الذي يعاني منه أي مجتمع واقع تحت وطأة الظلم الراسمالي او الاقطاعي او حتى مجرد الظلم السياسي هو في الاغلب أقسى من نصيب الرجل . يضاف الى ذلك المعاناة الخاصة للمرأة تحت وطأة التقاليد والمعتقدات الموروثة وخضوعها الكامل في المجتمعات غير المتطورة لمصلحة الرجل ومزاجه وعقليته . غير ان الاعتراف بوجود هذا الظلم الخاص نفسه لابد أن يقود في التحليل النهائي الى التسليم بان تغيير الاسس التي يقوم عليها المجتمع الظالم هي الكفيلة بحل المسألة .

على أي حال يكاد الانسان يفتقد اية مناقشة اجتماعية تحليلية سوى الاحتجاجات المتفرقة وغير المتكاملة التي ترد على لسان البطلات بين حين وآخر .

٢ـ ويترتب على ذلك أن النتيجة تكاد تكون عادة القبول بالمصير العام والاكتفاء بالاحتجاج السلبي . ويتم هذا القبول على حساب البطلات المظلومات مئة في المئة . فهن عادة يحسمن الامور عن طريق التضحية بحقوقهن ، وتتخذ هذه التضحية شكل تسامح شبه مسيحي كما في (أروى بنت الخطوب) أو اعتزال مرضي للحياة (إيناس في الحب والوحل) أو ارتحال ومغادرة البلاد والتواري عن الانظار (المغنية العمياء عند هيام نويلاتي) . وحتى حين لا تكون التضحية إرادية فهناك ثمن يجب أن تدفعه المرأة مقابل دخولها التجربة أو اقترابها منها أو تفكيرها فيها ، ومهما كان اندماجها في التجربة فهذا الثمن أساسي وفادح. ان (رشا) عند كوليت تتحطم تحت عجلات سيارة مسرعة ، وطالبة الموسيقى البريئة التي هربت من التجربة تفقد (نور عينيها)وكذلك تهاجر من بلدها وتتوارى ، وأروى عند وداد سكاكيني تنقطع عن الحياة وتصبح راهبة ، وايناس عند انعام المسالمة تصبح حالة من المرض النفسي مستعصية . ان المرأة هنا تدفع من صميم وجودها ، وتعاني قبل التجربة وبعدها ، وكل امرأة تدخل تجربة التحرر الذاتي بوجه خاص لايجوز لها ان تعيش وتستمر ، وتنتهي

حياتها اما بشكل حاد وعملي كالموت واما بشكل نظري كالتواري أو الانقطاع عن الحياة .

٣ـ تنطلق جميع الكاتبات من مسلمة غير قابلة للمناقشة وهي المساواة النظرية التامة في الحقوق الشخصية وفي القيمة الانسانية بين الرجل والمرأة . وتتبدى الهوة بين هذا المبدأ النظري وبين الموقف العملي صارخة ومخيفة حين تقف المرأة وجها لوجه امام الرجل في اطار العلاقة العاطفية أو الجنسية الخاصة . هنا يبدو الظلم فادحا وغير معقول وغير مقبول ، لأن هذا الموقف بالذات محسوم اجتماعيا لصالح الرجل ، فالرجل هو الذي يتحكم فيه ويقرر نتيجته وتطوراته . وأي انحراف او خطأ في هذا الموقف تقع مسؤوليته الاجتماعية على المرأة التي تتلوث غالبا وتفرض عليها عقوبة الحرمان الاجتماعي وبالتالي الحرمان من الحياة . ومن هنا تجد البطلات انفسهن في موقف مستحيل . وسرعان مايدركن المعادلة المؤلمة وهي أن كل من يكتب عليها أن تحب ـ مهما كان شكل هذا الحب ـ لابد من أن تشقى وتدفع من حياتها أو صحتها أو ملكاتها او عقلها او موقعها الاجتماعي . ويزيد الامر سوءا أن هذا الموقف غير مفهوم وغير معلل ولايبدو أن له اي حل عادل .

٤ ـ تتخذ البطلات عادة موقفا اتهاميا من الرجل (العام) مقابل الموقف التسامحي من الرجل (الخاص) . وحين يكون الموقف متعلقا بالرجال عامة فهناك سيول من التهم توجه اليهم . ولقد رأينا سابقا أن الرجال عند (أروى بنت الخطوب) هم التجسيد الكامل للرذيلة والانانية والخسة والجشع والتهالك على المتعة الخ .. ورأينا الشيء نفسه ولكن بنسب أكثر اعتدالا عند جميع البطلات . أما حين يتعلق الامر بالمحبوب المعين فهو سيء طبعا ولكن نتيجة لسوء جنسه العام ، وهو يستحق الشفقة او التسامح بشكل أو بآخر في حين ان جنسه لايستحق ذلك . وعلى اي حال ينعدم إطلاقا وجود شريك متحرر من تعصبات جنسه يمكن أن يفهم البطلة من الداخل ويقدرها . والمشكلة أصلا ليست في موقف المجتمع بقدر ما هي في موقف الشريك الذي يجبن او يضعف دائما عن حمل القيم التي تناط به . وبالطبع هذا الموقف لايشجع على التحرر ولا على المغامرة ولا على الثورة ، ويترك البطلات في موقع المغلوب على أمره ، ولذلك تكون معظم البطلات رافضات نظريا ولكن خاضعات عمليا . ومن تخرج عن هذه القاعدة جزاؤها الموت الزؤام .

٥ـ على الرغم من أن مسألة حرية الحب والحرية الجنسية تبدو المسألة المركزية في قضية المرأة من خلال الوضع العام للمجتمع التقليدي أو التخلف ، فان هناك محافظة شديدة لدى معظم الكاتبات في معالجة قضايا الحب ، ولا سيما ما يتصل بالجنس ، وربما

كانت الرواية السورية في هذا المجال متميزة عن الرواية النسائية في مصر او لبنان .

وباستثناء الصراحة النسبية عند كوليت خوري نجد في الروايات النسائية السورية ما يكاد يكون شجبا لأي موقف يمت الى الجنس بصلة حتى ولو كان لمسة أو قبلة . كلهن في ذلك منسلسلات من (أروى بنت الخطوب) .

وهنالك مشهد طريف عند هيام نويلاتي ؛ تجد فيه الفتاة نفسها متجاوبة مع قرينها وتنتهي معه أخيرا بقبلة حارة ؛(١) ويحس المرء فورا بأن هذا المشهد من غير جنس الرواية، وتسارع البطلة للتأكيد على أن المشهد لم يكن سوى حلم وتوهم .

٦ ـ أما من الناحية الفنية فيمكن القول بوجه عام ان الرواية النسائية السورية مازالت تتكىء على نبل الموضوع وتستقي أهميتها من قيمتها الدلالية لا من قيمتها الفنية ، وفي معظم الحالات يصعب الحديث جديا عن شكل روائي متماسك ، ومن هنا امسكنا في الدراسات المفردة للروايات عن التوسع في الدراسة الفنية ؛ الا حينما كانت الصلة بين مادة المضمون والشكل تقتضي ذلك (٢) .

على أن هناك بعض ظواهر سيكولوجية فنية (سيكو ـ فنية) (٣) تستحق التسجيل هنا وتكاد تكون مشتركة بين جميع الروايات :

٢ ـ تطغى النرجسية طغيانا ظاهرا على مادة الروايات وتبدو شديدة التحكم بتصرفات البطلة . والمشكلة أن الظلم الاجتماعي الذي لا يستطيع أن ينكر الانسان وجوده ، يعطي مسوغا شرعيا لهذه النرجسية . ان العالم القصصي باكمله يخضع للمقاييس والتصورات الذاتية للبطلة ؛ وكل شيء ينبع من ذات البطلة ليضفي نفسه على من حولها ؛ وفي الاغلب

---

(١) بالطبع هذا ابعد ما يمكن تخيله في رواية الخمسينات .

(٢) تعطي هذه الروايات مجالا رحبا يمكن للناقد التظاهري أن يصول فيه ويجول . والحق أن قراءة بعض هذه الروايات ،مع الاحترام الشديد لدوافعها النبيلة ، تعتبر تضحية ذوقية !

(٣) أضطررت الى استخدام هذا المصطلح ، الذي لا أعرف مدى مشروعيته النقدية ، للدلالة على الظواهر الفنية الناجمة عن الوضع السيكولوجي للمؤلف .

يكون الاطار الاجتماعي من حول البطلة رقيقا جدا وهشا لان البطلة مشغولة بنفسها عن العالم الخارجي ، وفي جميع الروايات تقريبا تطغى البطلة على كل شيء ويقف الى جانبها (الشبح) الرجلي الذي يفترض أنها تحبه وأنه لم يكن في المستوى المطلوب ! وهناك بعض شخصيات ثانوية جدا ومحدودة العدد وأهميتها تابعة من صلتها — التي تكثر أو تقل — بالبطلة . وفي الظاهر يشكل هذا الوضع فضيلة فنية هي التركيز على البطلة ، ولكنه لا يؤدي بالضرورة الى وحدة العمل الفني ، لان النرجسية تتسبب في تسويغ ايراد أي شيء يتعلق بالبطلة ما دامت القصة هي ملك خاص للبطلة ، والمعادلة واضحة فكل ما يهم البطلة يهم القصة ، وهكذا .

ولكن الاخطر من ذلك هو كون النرجسية لدى البطلة اسقاطا من الاعلى ، من الكاتبة نفسها ، وهذا يعني طبعا التعاطف الكامل من المؤلفة مع البطلة وتقبل كل ما تقوله أو تفعله أو تتصوره ، وتبرئتها من كل خطأ أو سوء تقدير أو رجس أو انحراف ، والابتعاد عن نقدها أو مؤاخذاتها أو لومها ، واعتبار كل حركة وكل نأمة تصدر عنها لميزة تستحق التسجيل ، وبوجه عام تصورها نموذجا للقديسة النسائية المظلومة المتسامحة والمخدوعة — البريئة .

ب — هناك نفس شاعري مطرد في معظم القصص ، ونفحة عاطفية مستمرة ، وحساسية مرهفة ، وميل عام نحو التأثر السلبي بالاحداث، فليس هناك مثلا اي انفجار غضبي أو اية ثورة انفعالية ، ان كل الانفجارات العاطفية تجري تحت الارض — شأنها شأن التجارب الذرية ، والمظهر الوحيد الذي يدل عليها هو انهمار الدموع . وتتخذ رهافة الاحساس في معظم المواقف شكلا مرضيا أو شبه مرضي ، فاي حادث بسيط يسبب الانطواء على النفس واليأس من الحياة والعزلة وغير ذلك من الظواهر السلبية .

حـ — تظهر الروايات ، نتيجة للنرجسية والشاعرية ، تعلقا شديدا بلهجة المتكلم — أو على الاصح بلهجة المتكلمة . واسلوب المذكرات هو المفضل دائما . وحتى لو جرى السرد بغير هذا الاسلوب فسرعان ما تتقمص البطلة على شخصية الراوي وتتعمقها وتنطقها بما تريد .

وان معظم القصص هي اما مذكرات مكشوفة أو شبه مذكرات ، وبالطبع تعتبر هذه الظاهرة تأكيدا جديدا على الشعور بالعزلة ، ذلك الشعور الذي يكون ارهف حدة عند الفتيات الموهوبات اللواتي يكن أكثر وعيا من غيرهن .

★ ★ ★

د ـ تنعكس هذه الظاهرة على أسلوب الروايات انعكاساً واضحاً ، فهناك دائما مواقف المناجاة الداخلية التي تعترض عملية السرد وتعيقها وتعطلها في حالات كثيرة ، وتكثر هذه المواقف في بعض القصص حتى ان القارىء العجل يستطيع ان يقفز عنها دون ان يضيع شيئا كثيرا . وتتخذ لغة هذه المواقف شكلا انشائيا مدرسيا يفتقر الى الخيال والابتكار وتدخل فيه مصطلحات الخيال الطبيعي المتداولة والعادية . ويكاد يكون جزء كبير من المفردات المستعملة مشتركا بين الكاتبات . يضاف الى ذلك وجود ميل بارز الى تنضيد الجمل والاستعانة بالتنقيط وغير ذلك من مظاهر العناية بالشكل الخارجي للكتابة .

★ ★ ★

وختاما ؛ يرجى أن لا تشكل الملاحظات السابقة ـ ولنعترف أنها ذات طابع سلبي ـ انتقاصا من قيمة المحاولات الرائدة التي قدمتها لنا الكاتبات ،ومن الحق أن نذكر أن هناك تفاوتا شديداً في مستوى القابلية الفنية ؛ وأنه من الممكن أن تكون هناك كاتبة واحدة ـ أو كاتبتان على الاكثر ـ قد ظلمت من خلال الملاحظات العامة السابقة لانهـا يمكن ان تشارك في كثير من السمات العامة ولكنها تستخدمها استخداما افضل في العملية الفنية . وعلى أي حال اذا وضعنا المستوى الفني للرواية النسائية السورية في اطار التقدم المحدود الذي احرزته الرواية في سورية من سنة ١٩٦٧ ، نستطيع أن نجد لكاتباتنا عذرا قويا وان نحذر انفسنا من تحميلهن اكثر مما في وسعهن تاريخيا ، وان نتطلع كذلك بنظرة مستبشرة الى المستقبل بعد أن فتحت أبواب التجربة وقدمت التضحيات النبيلة بين يديها .

في غرفة الأساتذة

قصة : حسيب كيالي

ـ الطبيب الذي اختص ، لماذا يقضي بقية حياته منصرفا الى مهنته ، لا يفكر في ان يستبدل بها مهنة اخرى ، في حين ان الاكثرية الساحقة من المعلمين يتطلعون ، بعد تخرجهم من دور المعلمين الابتدائية ، الى الجامعة او التجارة او اي عمل آخر ؟ لماذا لا يكون التعليم الابتدائي غاية في حد ذاته ، غاية توهب العمر عن رضى ، وعين قريرة ، وغبطة داخلية عميقة تجعل المعلم متصالحا مع الوجود ، مشرقا ، متجددا كل حين ؟

طرح هذا السؤل الاستاذ سعيد ، معلم الصف الخامس . وكان من عادته أن يصل الى المدرسة هو وابو شعبان ، الآذن ، الساعة السادسة صباحا ، حتى قال عنه رفاقه انه يحلم بالمدرسة وهو في التخت ، في عز دين البرد !

وكان سعيد ربعة ، كستنائي الشعر ، ليس بالنحيف جدا ، ولكنه متين البنيان ، مخطوف الخصر ، عريض ما بين المنكبين ، بسام الثغر ، ينشر المرح اينما حل .

تدخل الاستاذ عبد السلام ، وهو رجل طوال ، هادىء ، كثيرا مايغتنم الفرصة بين درسين فيهوّم على كرسيه في وداعة تاركا زملاءه يشتعلون مثل الحطب في مناقشاتلاتنتهي.

عبد السلام يقرع أبواب الخمسين ، خريج أهلية التعليم ، متزوج من امراة ديّنة ، ست بيت ، أنجبت له عشرة أولاد بنين وبنات ، كل واحد منهم اغلى من اخيه كأنه ولد وحيد على عدم . قال :

ـ في رايي ان السبب مادي .

لم يكن عبد السلام آنئذ يهوّم ، لأن الدنيا الصبح بعدُ (الساعة السابعة الا بضع دقائق) . واضاف :

ـ خذني أنا مثلا : خدمة ثلاثين سنة ، وما هو راتبي ؟ الله الوكيل لولا ام مروان ، الله يطول عمرها ، لكنا ... اتركها لله ...

قال الاستاذ لطفي ، وهو شاب في حوالي الثانية والعشرين من عمره ، بشاربين أسودين جميلي النسب ، وهو طالب جامعة بدرس الادب العربي :

ـ لأن الانسان ينبغي له أن تكون عيناه الى الارفع حتى لا يستحيل الى مستحاثة ، حتى لا يتعفن في مدارات « طلب طبيب قطنا بطاطا » و « في دار سامي بارود » ... كل عام الى آخر الدهر !

وضحك الاستاذ محي الدين ـ ويسمونه الشيخ ـ ضحكا مؤيدا . انه هو أيضا طالب في كلية الشريعة ، ذو لحية صغيرة لطيفة ، وقميص من غير ربطة عنق ، وابماءات ورصة في غير مبالغة .

وشب سعيد عن مقعده العتيق وكأنه المهر وقال بقوة :

ـ « المدارات » التي تتكلمان عنها أيها الطالبان الأزليان لا تسكن كالجان إلا راس معلم فراري !.. اتعلمان ما معنى كلمة « فراري » ؟ هذه كانوا يستعملونها أيام تركيا إذ كثرت حوادث فرار الجنود العرب من الجيش العثماني الذي غدا مرتزقا .

قال لطفي متهكما :

ـ كثر الله خير جنابك .

واستمر سعيد غير حافل باعتراض لطفي ومسددا هجومه اليه :

ـ أنا لا انكر أن « طلب طبيب قطنا بطاطا » ، أن « اسم كان وخبر إن » تتكرران كل عام .. الى آخر الدهر على حد قول لطفي . ولكن ما لا يتكرر أبداً ، ولا خلال لحظتين اثنتين متتابعتين ، هم الاطفال . هؤلاء كل دقيقة هم في شان ، مثل الطبيعة وغمائم الربيع ومزاج الحبيبة !

قال عبد السلام :

ـ لماذا تحمى ؟ انه انساني جدا ومفهوم تماما أن يتوق الانسان دائماً الى الاحسن مادة ومعنى ، وارتباطه بغاية ، يمثل أعلى ، يعلي من قدره ويجعله بعيداً من التفاهة والغرق التملي في الشؤون اليومية من مأكل ومشرب وتطمين حاجات ...

وقاطعه سعيد ، وهو لا يرد له حماسة :

ـ انا معك من غير تحفظ . ولكن ، لماذا لا تكون مهنة التعليم الابتدائي في حد ذاتها ما تسميه توقا الى الاحسن وارتباطا بالارفع والابعث على الرضى ، بالامثل ؟ ! ... قد يدفع لطفي بالرتابة . أنا لا أحكي عن تكرار درس إعراب الجمل وحالاته الثماني (هــذا ذاته يتغير كل سنة ، يزداد غنى !) ولكني أتكلم على لا نهاية التغير في التلاميذ حتى بالنسبة للمعلمين الذين عمرهم كله لا يعلمون غير الصف الثالث مثل عبد السلام ...

وابتسم عبد السلام غفوراً ابتسامة عذراء مثل بسمة العذراء بنت الأربعة عشر ، وقال بين لحمه وثيابه :

ـ والله أنا منذ خمسة عشر عاماً درّست الخامس !

وانفجرت ضحكة رغيدة صاخبة شارك فيها عبد السلام نفسه . واستمر سعيد يقول:

ـ أنتم تظنون أني ـ بعد أن بلغت الاربعين ـ قد ماتت شجرة الطموح في قلبي ، ولذلك كففت عن التفكير في تحسين قدري ، كأن انتسب الى الجامعة او اقوم بتجارة صغيرة في اوقات الفراغ كتجارة البيوت مثلا ، وهي الآن على الزي ... لا باسادة . أنتم على ضلال اذا ذهبتم مع هذا الظن . انتم تعلمون أني حصلت على البكالوريا ، ومن بعد على شهادة دار المعلمين بتفوق . وتعلمون أني من مؤلفي الكتب المدرسية و ... اغفروا لي هــذا الحديث عن نفسي ...

قال لطفي :

ـ أكمل . هذا اعتدناه جداً .

ضحك .

ويتابع سعيد وهو كليةً الى ملاحقة خيط أفكاره :

ـ حاكم هذه اللاحظة التي اتابعها مستطرقا منذ سنوات مديدة : الولد الذي يكتب وظائفه مجتهدا ولا زيادة ، يلبس ثياباً مرتبة ولا زيادة ، يلعب لعباً « أصولياً » ولا زيادة ، ولا ذرة غلط في سلوكه أو دروسه ... هذا تصاوره أن يغدو في غده موظفاً يحضر الى عمله في الثامنة على الشعرة ، ويغادر المكتب في الثانية والنصف إلا دقيقةعلىالميكرون ...

يعني أنه نسخة من النسخ مثل تلك السلع التي ينتجها العمل على السلسلة ، فيعطيك مئة الف ، مليون قطعة لا تتميز واحدة من اخرى حتى تحت المجهر ... بينما دور المعلم هو في البحث عن الخارق ... هل تريدون مثالاً (لنفسه) ان شاء الله يكون قد جاء .

ورن الجرس فدخل ابو شعبان . قال سعيد :

ـ بالله عليك يا أبا شعبان انده لي أمين الحاج امين اعمل معروفا .

قال أبو شعبان :

ـ هذا في صفك أستاذ :

ـ إي نعم ، انده لي إياه من فضلك .

وتكسر عمود الحديث في انتظار « وسيلة الايضاح » البشرية التي طلبها الاستاذ من ابي شعبان . تكلم الاساتذة في كل امر ، وتضاحكوا دقائق اطل بعدها ولد في حوالي الثامنة من عمره ، نحيف . من ينظر اليه يعلم انه خرج من البيت نظيف البدلة والصدرية ، ولكنه الآن يبدو رثا متوسخا ، في صدريته شق « قفل ومفتاح » وعلى وجهه لطخات طين طازجة . العينان كانتا أعجب ما فيه : عينان حوراوان وطفاوان تشعان ملمئة ، قلتتوهجان.

وتهلل سعيد ، وقام يحتضن الولد احتضان أب وامق :

ـ هذا هو اميني . تعال يا حبيبي ، تعال .

ـ نعم استاذ .

لم يكن خجولا ولا هيابا . لم يكن في المقابل وقحا مائعا . وسأله الاستاذ سعيد :

ـ اضرب لي يا امين لاشوف ثمانية في صفر . (متوجها الى زملائه) البارح ، أيها الزملاء ، ضرب امين ثمانية في صفر فكانت النتيجة كم يا امين ؟

تضاحك الولد متواطئا :

ـ ثمانية استاذ . وأما اليوم ، بعدما أفهمتني ، صار لها نتيجتان .

ـ لا ، قل النتيجة التي استخلصتها انت . ما نتيجة ضرب ثمانية في صفر ؟

ـ ثمانية استاذ .

ـ لماذا ؟

ـ لأننا كررنا الثمانية صفراً من المرات، يعني أننا لم نكررها، يعني انها بقيت على حالها.

ضحك في الغرفة . ويستمر سعيد :

ـ ومازلت مصراً على هذا الحل ؟

قال الولد باسماً :

ـ لا استاذ ، بعد ما توافينا !

ضحك .

ـ كيف ؟

لما قلت لي : « لماذا لا تقول اننا كررنا الصفر ثماني مرات ! » ... ضحك . قال سعيد :

ـ طيب ، والآن أعد على مسمع أساتذتك هؤلاء مجيبا عن سؤالي : « ما هو اقصر خط بين نقطتين ؟ » .

قال الولد في تضاحك بريء عذب :

ـ الاسلى استاذ .

وعاد سعيد يشب من مجلسه مهللا :

ـ أسمعتم ايها السادة ! قال : الاسلى ! أممكن ان يضحي هذا موظفا ؟ هذا في برديه اديسون ، نيوتن ، ماركوني ، ابن الهيثم ، اوبنهايمر ، عباس بن فرناس ... ولماذا الاسلى يا امين ؟

ـ اذا كنت مع رفيق تحبه الا ترى ان الخط بين نقطتين مهما طال قصير ؟

وبعد مظاهرة اخرى جذلى دهشة مزغردة كالاولى صرف سعيد امينا وعاد يقول لزملائه :

ـ ارايتم ؟ ! ... وتحدثونني بعد ذلك أيها الغافلون عن رتابة في مهنتنا الرائعة الكريمة هذه .

قال محي الدين :

ـ معنى هذا ان علينا ان نجد ونجتهد لكي نخرج مجانين .

فوثب سعيد عليه أو كاد :

ـ هس ، هس . شيخ ، أنت ربما بلغ مسمعك ان كبار رجال الفكر في التاريخ هم الذين صنعوا منعطفات التاريخ الكبرى . هؤلاء كلهم قالوا عنهم مجانين . هؤلاء لم تكن وظائفهم البيتية مرتبة ولا زيادة . بعضهم كان لا يعرف حتى القراءة والكتابة . أسمعت ؟

ولاذ بلحظة صمت ثم عاد يقول في صوت حالم ، كمن يستحضر ذكرى بعيدة :

ـ أتعلمون من هو مثلي الاعلى في هذه المهنة . عبد السلام يعرفه ، وأما أنتما فلا .

انه معلمنا زكريا أفندي رحمه الله . مازلت أذكر ، وسأظل أذكر طول عمري ، درس التاريخ ذاك من فتح طارق بن زياد الاندلس . كنا في الصف الرابع . الصف السادس الان في الطابق الثاني . وانتقاني زكريا أفندي لاقوم بدور لوذريق ، قائد الاسبان ، واختار لي فرساً هاشم الحجار الذي كان يعيد الصف للمرة الثالثة أو الرابعة . واما طارق بن زياد فكان سامي داود ، من الحارة الغربية (هو الان موظف اصولي في حلب مرضي عنه جدا من رؤسائه !) وكانت شجرة الزنزلخت ، هذه التي في الباحة ، صبية ما تزال ولكن أغصانها تبلغ نافذة صفنا ، فاتخذنا من عيدانها سيوفنا . وبعد أن أحرق سامي داود المراكب عيأنا ــ سامي وأنا ــ جيوشنا تعبئة الهجوم . وخطب سامي خطبته المشهورة : « ... البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر »... حانت ساعة الصفر باشارة أبداها الاستاذ ، وبدأت المعركة ... قام الصف ولم يقعد . ثار عجاج وكان رهج واختلط الحابل بالنابل ونشبت معركة حقيقية أسفرت عن هزيمة منكرة نزلت بساح طارق بن زياد وانطراحه أرضا على بلاط المركة ، وفي رأسه ما فتح وما رزق من نبيرات ورضوض وكدمات وزكريا أفندي يصرخ : « غلط ياسعيد غلط . انت يجب ان تغلب . أنت لوذريق . سانده المدير ... » وأنا أصرخ : « الحارة الغربية تغلبنا ؟ ! لا والف نبي . ساكسر رأسه ! » ... حصان طارق بن زياد ذاته (وهو فتى مدوبل الرابع مرارا مثل حصاني ولكنه من الحارة الغربية أيضا) سقط في الساحة وقد رفع الاربع . ومات حصاني أنا ، حصان لوذريق !

كان المعلمون ينقلبون على كراسيهم من الضحك ، ضحك صاخب هرع عليه ابو شعبان ، وبضعة طلاب كنتُهم هذا زاجرا . وحضر المدير ، الاستاذ وجيه فسرعان ما اشتمله الجو الجذل .

ولما هدأت العاصفة جعل سعيد يقول في هدوء علب مثل الراحة التي تستشعرها عندما تحك جرحا متندبا :

ــ وها أنتم اولاء ترون أن العلة كلها كامنة في التوجيه المهني . عندما يقال : اختبارات لانتقاء طلاب دور المعلمين ، فهم يعنون ــ اذا كانت الاصول ما تزال ذاتها أيامنا ــ مسابقة في الرياضيات ، علوم ، لغة عربية ، أشغال ، لياقة... ولكن ليس فيها أي فحص عاطفي...

قاطعه المدير متسائلاً :

ــ فحص عاطفي ؟!

ــ اي نعم فحص عاطفي استاذ وجيه . واسمح لي ان اوضح : فحص عاطفي اي سبر دقيق لاوقيانوسية المحبة عند المعلم العتيد ، فحص لاستعداده الشاسع للغرق في اللحظة

اللماحة التي يبرق فيها اي طفل متميز ؛ خارق وتنميتها ، لهيئة المناخ المناسبلتنميتها . الطلاب الذين يتفوقون في هذا الفحص يقضون سني خدمتهم في التعليم وكأنهم كل لحظة ينغمسون في بحيرة من النور والعطر من غبطة بما يصنعون وما ينجبون وما يخلقون . اذا وقعت على المعلم الذي اصطفي على هذا الاساس فيجب أن تقوم له اجلالا وتوفيه التبجيلا، لا أنت وحدك ولكن الدنيا جميعها ... تصور المردود الهائل الذي نحصل عليه اذا اجتمعت الموهبة والاستعداد والعمل ... زكريا افندي الذي حدثتكم حديثه للتو ؛ والاستاذ وجيه يعرفه جيداً ، كان كذلك . كان يضع يده تحت ذقنه ويقول لحصاني ، اقصد هاشم الحجار متنبئا : « ابشر ، آخرتك في الحبس » وهذا ما كان : نام في الحبس اثنتي عشر سنة بجرم ضرب أدى الى موت . وكان يقول لآخر : « آخرتك حميماتي » ، الى آخره ... وظل زكريا افندي رحمه الله مخلصا لمهنتنا واعظم معلم عرفته في حياتي ؛ لانه لم يكن يمل من تأمل حركة الحياة في صمودها المستمر ولا نهائية مفاجآتها وتحولاتها ... كان انسانا مثل سائر الناس يأكل ويمشي في الاسواق ، ولكنه كان من التصوف في مهنتهفي حيث شتمنا احد رفاقنا زعم لنا انه رآه يأكل . الاستاذنا يأكل مثلنا !!

والتفت سعيد الى لطفي ومحي الدين وقال لهما مداعبا :

ـ افهمتما ايها القران ، أيها الفرخان ابنا يومين !!

وقطع الضحك النقي العام رنين جرس الدرس الاول !

★ ★ ★

صحراء الربع الخالي

قصة : نيروز مالك

لقد رتبت في ذهنك كل الكلام الذي ستقوله لها . ستحاول شرح كل الظروف القاسية الصعبة المحيطة بحبكما . ستطلب منها الاعتذار عما ستقوله لها من كلام يجرح القلب ... اعرف بانك سترتبك . ستلاقي صعوبة كبيرة . قد لاتتماسك نفسك . عندما ستقول لها : « انتهى كل الذي بيننا ... » فتطفر من عينيك بعض الدموع ...

لايزال الثرثار القابع في ذاته يحاصره منذ الصباح باسئلته : « اخبرني لماذا تجهض محاولات عشقك باستمرار دائم ؟ » كان قد وصل المقهى .. ولايزال امامه متسع من الوقت حتى ساعة خروجها من المدرسة . فاضطر للجلوس فيه لانتظارها . كان يود ان يراها مقبلة من بعيد بعيد . وهي تشد كتبها إلى صدرها . وشعرها الاشقر الطويل يتبعثر حول عنقها ، وكتفيها بفوضى طيف جميل . ولكن اسئلة الاحمق القابع في ذاته ... شدته الى الماضي عندما قال له بسخرية : « لماذا لم تتزوج لاركا ؟ لماذا لم تجلبها معك إلى الوطن ؟! » اهمل الاجابة على السؤال . وسال نفسه : « هذا الاحمق يعرف بان الانانية شعور غير انساني ... فكيف يطلب مني ان اكون انانيا ؟ يعرف بان الانسان لايعيش بالحب وحده مهما بلغت عظمة هذا الحب . فللانسان حاجات اخرى .. لوافتقدها ... لخبا الق الحب، ثم انطفأ ، وتلاشى رويداً رويداً .. ليصبح بعدها مجرد ذكرى تبعث في النفس الاسى على مر الايام » . لم يطلب الثرثار تفسيراً لهذا الكلام من صاحبه . كان يحاول ترتيب بعض الاحداث في رأسه ليسوقها له ... ليصل معه إلى نهاية واضحة ، مقنعة . بينما كان صاحبه يردد بينه وبين نفسه : « فالانسان لايستطيع نصب خيمة في صحراء الربع الخالي ليعيش مع معشوقته على الحب وحده ! »

وابتسم الثرثار بسخرية من صاحبه ، وتأمله طويلاً . ثم قال لـه : « لنفرض أن عاشقين حاولا ذلك ... ماذا ستكون النتيجة ؟ » .

كان لايرغب بالتعامل مع الثرثار القابع في ذاته . ولكن رغبته في قتل الانتظار المميت دفعته للرد عليه ببرود ساخر : « سيأتيان في يوم ما على حبهما مهما طالت الايام بـه . وعندما يتم ذلك ... ستكون المأساة اعظم ! » وردد في نفسه بأسى : «لان الانسان لايعيش بالحب وحده » .

ومد نظره عبر زجاج المقهى محاولاً ان يتذكر اين قرأ هذه الجملة ! هل قرأها في قصة ؟ رواية ؟ مقدمة لديوان شعر ؟ ولكن الثرثار وقف بوجهه . ولم يدعه يكمل بحثه عن المكان الذي قرأ فيه تلك الجملة . وقال له : « دعك من الاستذكار غير المجدي ... لماذا كنت تتردد كلما حاولت ان تقول للاركا : هل ستذهبين معي ؟ » .

« .... »

وابتسم الثرثار بسخرية . وتابع : « انت تذكر بأنها سألتك كثيراً عن وطنك . عن حياة الناس فيه ... فكنت تجاوبها باقتضاب وغموض . لم تصمت ، وتنطوي على نفسك كأنك خجل مما ذكرت . بينما هي كانت تغمض عينيها . وتقول لك : « دعني ارسم لوطنك صورة في ذهني ... » .

« هل ستذهبين معي ؟ » . تمتم بالسؤال بينه ، وبين نفسه بأسى . وهو يتذكر بأنه لم يسألها . كان كلما حاول ذلك . كانت تنتصب امامه تلك المقارنة الرهيبة بين ظروف حياته في بلده المتخلف ، وبين ظروف حياتها في بلدها المتقدم . فتنزلق تلك الجملة الفنية إلى رأسه : « لايعيش الانسان بالحب وحده . لايعيش الانسان بالحب وحده .. » يرددها طويلاً في نفسه قبل ان يرحل داخل ذاكرته في رحلة طويلة يجوب فيها اصقاع وطنه من ادناه إلى اقصاه باحثاً عن واحة من خلق الله لكي يرتاح في فيئها ... فلم يكن يلاقي في رحلة بحثه غير السراب الدائم ... فيقتعد الارض تعباً ليهتف بحزن وأسى : « يا إلهي ما اكثر الصحاري في بلادي ! ما اكبر مساحات الرمال المترامية الاطراف التي تقتل الانسان جوعاً وعطشاً واحباطاً . لم يرسم في ذاكرته صورة لصحراء الربع الخالي التي لم تطأها قدم انسان بالوان جافة مشوية . كانت الاشياء خلف زجاج المقهى تتحرك . فراح يراقب

الاشجار .. الناس .. السيارات .. الاطفال .. حتى القلال في رحلة التكوين ، والتلاشي المستمرة . يتذكر عشرات المسارح للباليه ، والاوبرا ، والتمثيل . وعشرات القاعات لسماع الشعر ، والموسيقى ، والتزلج على الجليد ، والرقص . عشرات السيركات ذات الالعاب الخطرة ، والمضحكة . مئات الدور للسينما ، وعشرات الحدائق الممتدة لكيلو مترات عديدة . يتذكر الرحلات النهرية ، والثقافية ، والاثرية المنظمة . يتذكر ذلك اليوم الذي قال فيه للاركا : « يا إلهي كم الوقت قصير عندكم . فالزمن المتحطم الى ٢٤ ساعة لا غير في اليوم الواحد ينساب من بين أصابع المرء كانسياب رمال الصحراء دون أن يحس به».

ويتذكر ردها عليه : « لاباس .. اخبرني اين ستقضي ساعات اليوم القادم ! » .

« ابد ان اقضي ساعات الغد في كل هذه الامكنة دفعة واحدة » .

وعلا صخب ضحكتها على موسيقى « كورساكوف » الحالمة الهادئة في شهرزاده . وهي تخطو اليه عارية حتى من ورقة التوت . لتندس الى جانبه . كان يتأمل الثلج المتجمد على اطراف النافذة . ويتذكر بان الزمن في بلده طويل طويل يحس بعقاوب ساعاته تزحف على جسده ببطء قاتل . وعندما اخفت وجهها تحت ابطه ، هدأ كل شيء باستثناء انفاسهما الممزوجة بنفحات « شهرزاد » ...

« شهرزاد ... » قالها في نفسه . وهو يتذكر « بغداد » وكل المدن الاخرى التي تحيط بها الرمال حيث الانسان يموت فيها عطشا وجوعا واحباطا . ويحلم برحلة «سندباد» الثامنة . وهو يرسم على زجاج المقهى صورا لمدن جافة تشويها الشمس . مدن تقوم فيها جدر سميكة بين الاخ واخته . مدن لا ...

وشده الثرثار بخبث وبراعة الى احضان الذكريات الجميلة رويدا رويدا : « عندما سكنت شهرزاد على يدي كورساكوف . سألتك لاركا : حدثني عن قصة حب مشهورة من بلدك . اقصد مأساة حب عظيمة . مثل .. مثل روميو وجوليت . فالتفت اليها . عينيها المغمضتين طويلاً ، وشعرها الاشقر الناعم المحيط بوجهها الابيض على شكل شلال رقيقة ... » . واحس بلعبة الثرثار الخبيث . فالتفت الى داخل المقهى بعد ان انتزع نفسه من بين يديه . وراح يراقب مايجري حوله ــ كان الصخب قويا .. لعب ورق .. لعب طاولة .. نراجيل عامرة .. وصراخ الزبن على الطلبات ، وعويل النادل مرددا طلباتهم.

لشعر بضيق . التفت امامه ثانية ليمسح زجاج المقهى .. ويقيس حجم سماكة سور الحديقة الحجري بنظره . ولرغبة ما في نفسه ، حاول ان يصحح معلومات ذلك الثرثار ،تقابع في ذاته حول المكان الذي طلبت فيه « لاركا » منه سرد قصة حب من بلده . يذكر يومها . كانا في زاوية عربة المترو اليمنى ، وهو ينهب الطريق عائدا بهما إلى البيت . كانت قد اخفت راسها في صدره قائلة : « هات حدثني عن اشهر قصة حب من بلدك . اقصد مأساة حب عظيمة .. »

ولكن الثرثار لم يلتفت الى خطأ معلوماته . فقاطعه وتابع : «قلت لها : هناك عشرات من القصص .. » .

« لا باس . انا شغوفة بسماعها من فمك جميعا ! » .

« ولكن هذا يستغرق زمنا طويلاً .. » .

« ليستغرق العمر كله .. ! » .

«اوه لاركا ... ساكون ساذجا جداً جداً لو قضيت عمري كله الى جانبك . وانااسرد قصص عشاق ماتوا .. بينما .. بينما نحن أحياء » .

« العشاق لا يموتون . ! »

انت تذكر اي اسى كان محمولاً بين طيات جملة « العشاق لايموتون » عندما لفظها فمها ذو الشفتين الكرزيتين . فضحكت لها . لم تشمت ارنبة انفها الصغير . واخفيت راسك بين نهديها . وانت تسرد عليها قصة قيس وليلى .. »

مرة ثانية صحح معلومات الثرثار نفسه . فتذكر كيف اسند خده على القبعةالصوفية الحمراء التي تتاثر شعرها من حواليها من شلالات شقر طويلة . وهما والقان في زاوية عربة المترو . وحدثها عن « قيس وليلى » بقدر ما اسعفته ذاكرته من حفظ تاريخ عشقهما الذي افضى بهما إلى الموت . يذكر بانهما ظلا صامتين بعد ان خرجا من محطة المتروالدافئة فاحاط بساعده عنقها، وترك كفه تنزلق الىصدرها ليلتمس الدفء من الفرو المحيطبعنقها، بينما هي تشد بيدها على خاصرته . والثلج المتجمد يتكسر تحت اقدامهما . وهما يقتربان من البيت . فكانت انواره مطفاة في نوافذه الثلاث المطلة على الشارع الهادىء الذي يحمل

رقم / ٥ / المتفرع من شارع « غوركي » الطويل ، وهو يقول لها بصوت يشبه الرجاء : « لارا .. انا بشوق لسماع مأساة روميو وجوليت من فمك . »

وارتسمت علامات الاستغراب في عينيها الزرقاوين . فقال لها : « لاتحاولي سؤالي: الا تعرفها ؟ اعرفها جيداً يا عزيزتي .. ولكن رغبة غامضة تدفعني لسماع قصتهما من فمك .. »

ولم تنبس لاركا بكلمة . فصعد معها الدرجات العشر . راح يراقب يدها البيضاء الصغيرة التي اولجت المفتاح بالباب ، بعد ان خلعت قفازها الصوفي الوردي اللون . ثم دفعته بعد حركتين دائريتين قامت بهما . ليتساقط الصنوبر الحليبي اللون من المصباح على العتبة . فترجه الى غرفتها . وخلع عنه المعطف ثم القى نفسه على السرير . بينما هي عبرت الممر الوردي الى الصالون ليعلوصوتها بكلمات والديها المكتوبة على قصاصة ورق بيضاء كانا قد تركاها لهما على الطاولة : « لقد ذهبا بزيارة لاحد معارفهما القدماء . سيعودان في الاتوبوس الاخير » وبحركة لاشعورية رفع يده وتطلع الى الساعة كانت تشير الى العاشرة . وعلا صوتها ثانية : « هل تشعر بجوع مثلي ؟ » اجابها : « نعم .. » ثم تابع : « لكني اريد شيئاً من الفودكا لادفيء جوفي البارد .. »

وسمع ضحكتها . ثم مالبثت ان علت نفحات « البولونيز » التي يحبها . كانا جائعين بشدة . وعندما انتهيا من الاكل ، قالت له : « لم اكن اصدق باني ساكل كل هذا ! » .

ونظرا الى الصحون البلورية الفارغة . ثم قال لها : « اشعر بنعاس غريب .. » وقبل ان ينهي كلامه ، قام وتوجه الى السرير ...

كانت ترفع رأسها عن صدره بين الحين والآخر . وهي تسرد عليه قصة روميو وجوليت. وعندما انتهت ، أخفت وجهها تحت ابطه . فاغمض عينيه ، بينما اصابع يده اليسرى راحت تتخلل شعرها الطويل ، ترفعه الى الاعلى ، تتركه يتساقط على وجهه وصدره ، وهو يقول لها :

« أتعلمين بأن مأساة روميو وجولييت انقلبت الى نشيد عذب على فمك ! »

« . . . . »

وظلت يده تتابع رحلة العبث في شعرها الاشقر الطويل ، وهو يتابع : « انا اذكر

عندما قرأتها .. بكيت . كنت يومها صغيراً . وعندما شاهدتها فيلماً خرجت منه حزيناًالعن الحياة بغضب . وظللت فترة طويلة صامتاً . ليس بي رغبة للحديث مع احد . متذكراً تلك الاغنية الرائعة في الحفل الذي تلاقى فيه روميو وجوليت لاول مرة .. اذكر شرود روميو الحزين عندما كان يعود كل يوم من الحفل .. اذكر معركته مع مركوشيو المرح بسبب تيبالت ، وتعفرهما بالتراب . اذكر انغراز سيف تيبالت في خاصرة مركوشيو .. اذكر وقفة الاخير المذهولة ، وهو ينظر الى وجه روميو ويسأل نفسه : « احقا اصيب في خاصرته ؟ احقا سيموت ؟ يالها من مأساة . فهو يذكر بان المعركة بينهما ابتدأت كمزاح لاغير..»...

عندما تساقطت قطرات الدم من بين اصابعه . عرف بان تلك المعرفة انقلبت الى مأساة . فراح يصرخ باعلى صوته ، وهو يضحك ويبكي : « روميو .. تيبالت .. اللعنة على عائلتيكما .. ليحل الخراب بمنزليكما .. لينعق البوم فوق خرائبهما .. آهههه... »

وضعت لاركا يدها على فمه . وهي ترجوه ان يسكت . وعندما فعل . كان وجهها جامداً وشفتها السفلى ترتعش ، تكاد ان تبكي : « خسان .. بالصوتك الحزين الفاجع .. من يسمعك سيخالك مركوشيو المطعون » .

ورفع رأسه حزيناً . وضعه على صدرها حركه عدة لحظات . وعندما وجد مكاناً مريحاً لرأسه بين نهديها ، تنهد . ثم هجع الى النوم ، وصوتها يعلو قرب اذنيه كالهمس واللعنة على تلك العادات والتناقضات التي دفعت روميو وجولييت ، وكايس ولا يلا الى الموت .. » وساد الصمت طويلاً . ثم علا صوتها ثانية : « ياترى لوعاشوا في هذا العصر. هل كانت تلك العادات والتناقضات بين عائلتيهما تستطيع دفعهم الى الموت ؟ »

يذكر بانه اجابها يومها بحماس :«ابداً .. اعتقد لما التفتوا الى كل هذا الهراء الذي يقوم عليه المجتمع .. » .

وضحك ذلك الثرثار في ذاته . ثم قال بسخرية : « منذ ذلك اليوم ؛ وبي رغبة لسؤالك : هل انت مقتنع بهذا الذي قلته للاركا منذ سنوات »

« . . . . »

«ان كنت مقتنعا بذلك.. فلماذا لم تتزوجها ؟ لماذا لم تجلبها معك الى الوطن ؟ الانها نبتة غريبة . لم تتعود العيش في صحراء الربع الخالي . لم تحط بها الرمال والجدر العريضة والسقوف الواطئة . وعشرات العناكب »

« . . . . »

« ما بك صامتا لاترد ؟ »

وعندما حاول اسكات الثرثار القابع في ذاته . كان قد انطلق سرب من الفتيات الجميلات من المدرسة . فادار ظهره للثرثار الذي استمر في كلامه ساخرا : « لتدع لاركا! »

والتفت الثرثار الى الفتيات المقبلات . وهو يشير الى احداهن : « مارايك بهذه القادمة . تأملها .. هي ايضا شقراء وجميلة . قل لي : لماذا تحاول منذ شهر ان تتقدم منها لتقول لها : انتهى كل الذي بيننا ؟ لماذا تحاول قتل الحب الذي بينكما ؟ فهي ليست كلاركا نبتة غريبة .. انها نبتة نمت في رمال صحراء الربع الخالي على حد تعريفك الاثير.. بعيدة عن المياه ، وتيار الحياة الصاخب ولدت بين جدر سميكة وسقوف واطئة تحوط بها عشرات من شباك العناكب المستمرة في نسج التقاليد والعادات .. »

والتفت الى الثرثار يرجوه ان يسكت . ان يدعه وشأنه مع الحياة . ولكن الثرثار ضحك قائلا : « لا .. لن أدعك . سأتكلم . والشيء الذي ابغيه من حديثي هو تفنيد مزاعمك . هو الكشف عن تلك المخاوف التي تدفعك بعيدا عن مواجهة الحقيقة . مواجهة الحياة . انت تذكر يوم قالت لك لاركا مرة : « انت تذكرني ببطل رواية فرنسية قرأتها من سنوات بطل يعيش في داخل ذاته ، منطويا على نفسه . كان كلما حاول تحطيم الجدران التي تعزله عن الناس والخروج الى العالم .. يصطدم بتيار الحياة المتدفق بصخب . فيتراجع مذعورا من المواجهة . لينزلق ثانية الى داخل نفسه ، ويموت في آخر الرواية داخل ذاته .. » .

راح الغضب ينمو في نفسه عندما عجز عن اسكات الثرثار . فتركه وهو يغمغم في نفسه : « ثرثر بقدر ماتريد . لن أرد عليك يابن الكلب .. »

« أنت تذكر كم تحبك هذه الشقراء القادمة ؟ تذكر كل تفاصيل حبك معها . فقل لي ماهي الاسباب التي تدعوك ان تقول لها : انتهى كل الذي بيننا ؟ »

شعر بان الثرثار يستفزه باسئلته الحمقاء فحاول باجهاد ابعاد ذكريات قصة حبه مع الشقراء القادمة بخطوات بطيئة عن نفسه ..

« انت تذكر تلك الليلة الماطرة ، وحديثكما الطويل ... »

واطرق راسه وهو يحاول ابعاد صورة انسكاب المطر على مظلة الشقراء القادمة في تلك الليلة الماطرة . ويدها الصغيرة المشدودة على الكتب النائمة على صدرها . وجملتها الحزينة : « انا خائفة .. خائفة من كلام الناس خائفة ... » .

وتذكر تلك الدوامة التي عاشها من جراء كلام الناس .. وعاد الثرثار ليقاطعه قائلاً :

« هذه الدوامة التي تحاول الخروج منها . بعد ان عجزت عن ايجاد حل يضع حبكما في مجال صحيح بعيداً عن السنة الناس وثرثرتهم . هي رأته في الخطوبة . وانت رأيته في شيء ظل ولايزال غامضاً في نفسك ... »

وادار ظهره للثرثار ليتابع بنظره خطوات الفتاة الشقراء التي يحاول الوقوف امامها ليقول لها : « انتهى كل الذي بيننا » ولكن الثرثار لم يتركه بحاله . راح يصرع رأسه بحديثه من جديد : « انها تخطو على الرصيف بخطى بطيئة ذاهبة الى موقف الباص الذي ظل ينتظرك قربه مدة طويلة قبل ان تصعده ذاهبة الى البيت : قل لي ماهي الاسباب التي تدفعك لتقف امامها وتقول لها : « انتهى كل الذي بيننا ؟ » » .

« . . . . »

« انت تعلم مدى حبها لك . ومدى حبك لها ، وجنونك بها .. » .

« . . . . »

« اراك صامتاً ؟ »

« . . . . »

« لماذا الصمت أيها الجبان ؟ » .

« . . . . »

وانتفض في مكانه . وحدج وجه الثرثار الذي يزعق في داخله بنظرة غاضبة .....

« نعم جبان .. لانك تستشعر خوفاً هائلاً من تلك الفوارق التي بينكما . شاب يسكن في قبو . وفتاة تسكن في فيلا .. هذا هو الواقع الذي يدفعك للهروب منها .. »

كان جسده لا يزال يهتز من الغضب . ولكنه كظم غيظه . وطلب منه السكوت . ولكن الثرثار لم يلتفت الى طلبه هذا . اردف قائلاً : « تلك كانت نبتة غريبة لاتستطيع العيش في صحراء ربعك الخالي . لتركتها دون ان تجرؤ القول : هيا معي .. وهذه آآآ » وصمت ليتابع بصوت هادىء منير : « انظر اليها . شعرها الاشقر الطويل ألم تحلم بامساكه . ورفعه الى الاعلى ، ولفه على اصابعك . ثم تركه ينسكب كشعاع الشمس على وجهك وصدرك ؟ قم اليها . لقد اصبحت امامك . انها تواجهك وجهاً لوجه . وجهها الجميل الذي حلمت به طويلاً . انظر الى بسمتها الحنونة . تامل عينيها الشهلاوين .. هيا اترك المقهى انظر الى الفرح الذي يتفتح على وجهها . قم اليها . خطوة واحدة توصلك اليها . هيا اعبر الرصيف الى الشارع المظلل باغصان الاشجار المتموج بحركة الحياة . تحرك . تحرك ايها الجبان .... »

وانتفض صارخاً في وجه الثرثار : « ألن تسكت ايها الاحمق ؟ »

ومد يده كالمجنون ، وانتزع لسان الثرثار القابع في ذاته بوحشية . ثم شد بيديه على عنقه . فلم يتركه حتى سقط جثة هامدة . فاخرجه بحركة تعبة من داخله . ثم اجلسه امامه على الكرسي وهو يمسح العرق المتصبب عن وجهه . راح يتأمله بتشفٍ حزين . فما لبث ان ضحك بصخب . ثم بكى بتفجع مرير .

★ ★ ★

ثـــورة الأشـــياء

قصـــة : محـــسن غـانـم

١ ـ الغرفــة

الغرفة مربعة ، تغمرها أشعة شمس شتائية ، خزانتان بنيتان تتعانقان في الزاوية ، امتلأ جوفاهما أوراقا ومجلدات . مشجب مشدود الى الجدار الداكن بواسطة مسمارين فولاذيين ، يمد أذرعا تنتهي بقبيبات حمراء مشرعة الى الاعلى كأنها تحتج . باب الغرفة عريض مغلق له مقبض كروي أبيض ، المقبض الكروي يبتسم بلا معنى ، يلقي نظرة بلهاء الى المدفأة والمنضدة والكراسي ، وراء المنضدة يجلس رجل صامت ساه . أمام الرجل على سطح المنضدة ، انتشرت كتب وأوراق وأقلام . الرجل يعتمد بكوعه على طرف المنضدة . يسند ذقنه الى كفه ، في حين استغرقت عيناه تحدقان الى البحر المتلقي وراء النافذة . فوق رأس الرجل علقت الى الجدار صورة كبيرة لانسان . الصورة تنظر الى الباب نظرة ترقب .

٢ ـ البــاب

باب الغرفة مصراع واحد عريض مدهون بلون رمادي قاتم ، ينغلق حابسا خلف ظهره أشياء الغرفة ضمن فراغ مكعب ، مستقبلا بوجهه ممرا طويلا محشوا عتمة ورطوبة . ينظر الباب الى الداخل يتغلغل نظره في عقول الموجودات ، يجد صورة الفتاة السمراء في ثناياها ، الفتاة التي أحبها الرجل ؛ عشقتها الكراسي ، تغنت بجمالها المنضدة والمدفأة ، حفظت مزاياها الخزانتان ، ضم رائحتها وشالها المشجب ، سكنت عيون الباب في قلوب الاشياء ، لمس حنينا وشوقا لا حدود لهما .

في الخارج تمتلىء عيون الباب ظلاما وسكونا ، فجاة امراة في اول العمر ، تتقدم متلفتة ذات اليمين وذات الشمال ، تقترب من وجه الباب الخارجي ، تملأ صورتها عيونه ، تمحو العتمة والسكون من احداقه . يدها البيضاء البضة الطلية الاظافر تمتد الى اكرة الباب ، تئن الاكرة ، تضحك عيناها ، يبتسم ثغرها ، تحتضن قسماتها نظرة دهشة رشقتها بها الرجل ، تدفع الباب ، ينغلق محدثا صوتا مخرشا ، تصرخ المدفاة :

ـ ليست هي .

يقول المشجب مستنكرا :

ـ انها شقراء .

تعقب الكرسي :

ـ هذه الفتاة غريبة .

تردد الخزانتان :

ـ ها هو يبتسم لها ، ينهض لاستقبالها ، يصافحها بحرارة .

٣ ـ المشجب

المشجب مغيظ ، عيونه معلقة الى النافذة التي تحتضن نور الشمس ، الى الطلاء السماوي الذي يقنع وجه الجدران ، الى الكراسي الموزعة بلا نظام ، الى المدفاة القديمة المحشوة رمادا باردا . يقلب طرفه في الفراغ آسفا ، يسمع صوت نفسه المتلاحق ، يكبت تنهيدة في صدره ، يحدث نفسه :

ـ كنت اتناول الشاي من يدها كل يوم ، نيلون دنياي بالخضرة ..

٤ ـ الكرسي

الكرسي اصفر البشرة ، باهت النظرة ، يحني راسه امام اشعة الشمس المندفعة النافذة ، ينكمش على نفسه في زاويته ، تمر عليه الساعة تلو الساعة وهو بلا حراك ، كأنه لفظ انفاسه ومات . يهمس بين حين وآخر :

ـ كيف انسى ! . آثارها بين يدي ، طعمها في فمي ، عطرها يملأ انفي ، بعض من شعرها التي بثيابي ، فوق صدري ، وذراعي .

فتاتي ، تركتني لهؤلاء الغرباء ، يغتصبونني ، تتقاذفني ايديهم ، تخنقني روائحهم ، تضغطني اجسادهم .

بكى الكرسي بمرارة ، نظر الرجل اليه مؤنبا ، أخفى الكرسي وجهه بين كفيه واستمر في النشيج ..

٥ ـ النافذة

للنافذة عينان ، احداهما ترمق ما في داخل الغرفة ، الثانية تحتضن الالوان في الخارج ، عين تنظر الى الرجل وراء منضدته ، ترى الاشياء من حوله مكسوة بطبقة من الالم ، وعين غارقة في زرقة البحر وخضرة البستان ، سابحة في ضوء النهار .

لو كان للنافذة عقل يفكر لأصيبت بضرب من الجنون الغريب ، ولكن الصور والاشكال والالوان تنعكس في زجاجها تعبرها من الداخل الى الخارج ، ومن الخارج الى الداخل ، بنفس الطريقة والسهولة دون ان تعني لها شيئا .

٦ ـ المنضدة

المنضدة تحمل اشياء متعددة ، الرجل يستند بكوعه الى حافتها ، على صدرها تتراكم مشاكل لا تعرفها بقية اشياء الغرفة ، تنظر الى الكراسي المتناثرة من حولها ، الى النافذة والباب ، ينتقل اليها شيء من الاحساس بالوحشة والحزن ، ترمق الرجل ، تدخل عيناها في أنكاره ، ترى صورة الفتاة السمراء ذات العينين العسليتين والشعر الكستنائي ، تلك التي عشقها ، ابتسمت المنضدة ، فوق وجهها تلاقت الهمسات والانفاس ، وحدها سمعت كلمات الغزل تنسكب مباشرة في اذني الفتاة ، واحست بخفقات القلبين يدقان ابواب سجنيهما .

٧ ـ البحر

نشر البحر لونه فوق وجه النافذة ، عبرت الزرقة الزجاج ، تغلغلت في عيني الرجل ، تبلت سحابة شفة البحر ، ارتدت أشعة الشمس ، امتد خط داكن أفقي من الجنوب الى الشمال يفصل بين الزرقة والخضرة ، اتسع الخط ، شكل نطاقا فاصلا عريضا ، ظلت عينا الرجل مشدودتين عبر النافذة تحدقان الى القطاع الداكن .

٨ ـ الصورة

الصورة المعلقة الى الجدار فوق رأس الرجل الجالس لا تزال تنظر بقلق ظاهر الى باب الغرفة ، وراء الصورة بين الغلاف والجدار ، تقبع حشرات صغيرة في حالة سكون

وخدر ، عنكبوت في بيتها المرتكز الى المسمار الذي يمسك الصورة . يتسرب شعاع شمسي من شق في أعلى النافذة ، يخترق جو الغرفة في خط مستقيم ، يسقط الشعاع فوق جبين الصورة ، ترفع الصورة يدها ، تحك جبينها ، تعود الى جمودها ، يمتد كف قيمة يمحو الشعاع الشمسي .

٩ ـ المدفاة

المدفاة قديمة هرمة ، تتربع في الزاوية الجنوبية من الغرفة ، ترى الاشياء بعين كليلة ، تمد ذراعها عاليا ، يدخل كفها في ثقب الجدار ، لا تجد لنفسها كفا ثانية لتنفض الغبار المتراكم على كاهلها ، جوفها محشو رمادا باردا من عام منصرم ؛ قلبها متوقف عن الخفقان منذ اشهر ، وجهها المقابل للكرسي تظهر عليه علائم الحياة ، تمسحه يد النظافة، يبدو لامعا نظيفا من الغبار والرماد ، بعيني هذا الوجه تنعكس صورة الرجل والمنضدة والكرسي والباب .

١٠ ـ الرجل

التقت عينا الرجل بعيني البحر ؛ قررت الزرقة الاشياء ، سمع تلاحق انفاس الصورة خلفه ، خرجت همسات الأوراق والملفات من داخل الخزانتين ؛ انسكبت في أذنيه ؛ رفع رأسه ، أسند ظهره ، أشهر قبضته ، ضرب المنضدة أمامه .

انفلتت مناظر متعددة كان يحبسها الرجل في رأسه ، تراقصت الصور حوله ، طيف الفتاة السمراء فوق كرسيها المفضل ؛ شعرها منسدل بعفوية فوق الكتفين ، خصلات بنية متمردة فوق الجبين ، عيناها غارقتان في بركتي عسل مصفى ، وجهها بستان مزروع بكل انواع الاشجار ، مزينة ارضه بشقائق نعمان ، ينهض طيف الفتاة ، يدور في الغرفة ، ينظر من النافذة الى البحر ؛ يلتفت الى الرجل يدعوه ، ينهض ملبيا ، يصطدم بالعينين الزرقاوين ، بالوجه الاشقر ، يسقط فوق كرسيه .

١١ ـ الثورة

يظهر الحزن والقلق في قسمات وجوه الأشياء . كل العضلات تأبى الاسترخاء ، تصر على التوتر والتحفز ، شيء في داخلها يفور ، يملىء جو الغرفة بعبارات احتجاج صادرة

من كل الاشياء ، الكرسي تنتحب بصمت ، بينما تهمس المنضدة في اذن الرجل :

ـ انظر الى البحر ، لقد اختلطت الوانه ، وعمت الدكنة سطحه .

ـ انظر الى الشمس ، لقد حجبها عنا ستار كثيف من السحب السوداء .

الصورة المعلقة الى الجدار فوق رأس الرجل وحدها تبتسم ، تحتضن المراة بعين معجبة مشتهية . نظرات الرجل لا تحيد عن وجه المراة ، يقترب منها تدريجيا ، يمط سلبه وعنقه ، تدنو هي أكثر فاكثر ، تتجاور الراسان . تمتد يمين الرجل ، تطوق الجيد المرمري ، يسكران بالانفعال .

الباب يغطي وجهه بيديه ، تتهدل اذرع الشجب ، تتنفس الاوراق المحفوظة داخل الخزانتين ، تنقلب الكرسي متاوهة بصوت عال ، تنفث المدفاة ما في جوفها من رماد فيملا العيون ويكسو الوجوه ، تترافص مفاصل المنضدة ، ينفلق خشب النافذة ، تعم الظلمة الغرفة ، وتلتقي شفاه رجل وامراة .

★ ★ ★

غويا يرسم عند البحر

شعر: بندر عبد الحميد

تسألني الدمية عن أعشاب البحر
وعن أنغولا، عن أمريكا اللاتينية،
تسألني الدمية عن أحزان الصيادين
العشاق المنفيين . .
وأنا مشغول بالقهوة والحب،
أنام على أرصفة من كتب الحكمة،
أشكو الجوع وأرسم خيلاً ونساء،
أرسم سجناً في صحراء . .
تسألني الدمية كيف يموت
التجار على عتبات الملهى في الليل .
وكيف ينام الفلاحون . . ؟
تسألني عن غويا

الرسام الغجري المجنون . . .
في الليل الأشجار تميل ؛
وتبحث عن نافذة في بيت عربي ،
في مقبرة ،
يولد فيها قمر طفل ،
تولد غابة سرو ، وبتولا . .
يعبرها قوس من نار ؛
يتكىء الفلاحون على أيديهم ؛
في الليل .
وينتظرون الثورة
في نشرات الأخبار ،
ويرسمهم غويا . . .
يرسم ليلاً شتوياً ، وحقول ذئاب ،
يرسم جرحاً منتصراً ،
أو كهفاً مسحوراً ، ويغني :
هذي أرض لم تتغير ،
هذي أنهار لاتجري ،
وأنا فأس ،
موعود بتراب . .
كانت رحلتنا قرب البحر الشتوي
مشينا ،

مال الليل إلينا ،
حتى كدنا أن نلمسه ،
أو نتعاطى معه القهوة ،
فوق الصخرة عند الشط ،
يمر الصيادون العشاق
يغنون :
ياأهل البحر خذوني ،
ياأهل البحر ، قتيل ،
ردوا فوق جفوني
شيئاً
من أعشاب البحر .
وهذا موعد رسم ،
موعد موت حلو ،
— للعين الفتك وللألوان الحرية —
كنا نحكي
أو نتنفس عند جبين الصخرة ،
أمواج من ليل البحر
تهز جذور الصخرة ،
يطفو الزبد الاغريقي ،
فنذكر آخر ليلة ركض

في الأيام العطشى ،
نكتشف الهمس ،
ونكتشف المـــاء ،
نكتشف الصيادين
العشاق الفقراء ؛
صياد متهم بالحب
يميل على نافذة في حي شعبي
منتظراً في الليل . .
رصاصة . .
رعب . .

يرسمه غوريا . .
يرسم عينيه وكفيه ،
خطوط رماد تحت الجفن .
خطوطاً من ملح بين الشفتين اليابستين ،
يرسم ليلاً وجبالاً ،
يرسم ألف جناح مقتول ،
ألواحاً من خشب مهجور
يرسم وجه البحر المنثور ،
وحيوانات تضحك أو تتلوى في الأعماق ،
وغوريا . . صوت من عصر ماض ،
يتكسر حيناً أو يتواصل

بين الماء . . و بين المرتفعات ،
فتهتز له قبعة الطفل المائل . .
يرسم ، يرسم ، يرسم
وجه البحر صخور الشط ،
يغـــــني :
هذي أرض لم تتغير ،
هذي أنهار لاتجري ،
وأنا موعود بكتاب
موعود بامرأة من عنب النار . . !
تسألني الدمية عن أعشاب البحر
وعن ألوان الأزهار
تسألني عن صياد
أو عصفور منسوف بالـ ت ن ت
وانا اتذكر وجه امرأة
وكتاباً محترقاً ،
تبكي حولي أسراب طيور
تسألني الدمية عن أعشاب البحر
وعن أخبار الماء . .
أقول انتظري البحر
تموت الدمية
عند الفجر
ويرسمها غويا . . !

الغزالة تعود إلى البحر

شعر: عصام ترشحاني

— ١ —

تعودين للبحر . . .
ماذا يقول المغني ،
وماذا يقول النبي الجديد ،
وماذا أقول ؟
تعودين للبحر . .
من قاد خطوكِ
إني اكتشفت الهياج الذي
شاع في الرملِ
اني انتظرتكِ
عاينت كل الشواطىء ،
أنزلتُ جندي إلى البحرِ ،

مشطتُ موجاً ،
وآنست موجاً ، وحرّضتُ
قيلَ :
انتماؤك يدعو لحرب أكول
وقيل :
اشتهاؤك للسلم يجنح
سارعتُ . . حسبي
بأن أبلغ الصوتَ
قبل اندلاع الصدى
غير أنك
دون ارتقائي مررت
ودون ارتقائي اكتملتِ
وهاأنتِ كالحلم
في سدرة المنتهى

— ٢ —

لماذا تقمصت وجهاً
غزير الشجونِ
تقاطيعهُ . . .
الموج والحزن
والنار والخبز والانتظار

وطرتِ بعيداً
وخبأتِ كل المواعيد والأغنياتِ
لماذا اقترنت من البحر
والبحر مازال طفلاً ؟
يقول المغني :
ودمعة حب سخي
على وجنتيه
أحبك يوم ولدتِ
ويوم حييتِ
ويوم من الموت تأتين شمساً
أحبكِ . . .
لافرق عنديَ
إن كنت في البرّ ،
أو كنت في البحر ،
أنت المناديل والماء و الخضرة الفاتنة
وانت النشيد العظيم
الى الموت والنصرِ
أنت الدماء التي
تبدع اللغم والسوسنة

– ٣ –

تناثرتُ في لغتينِ
وبشّرت باللغتينِ
وأسمى اللغات الى الانفجار
تقود إليكِ
يقول النبي الجديد : —
لماذا ابتعدت وراء البلاد التي
أقفلتها الكواكبُ ،
ثم ركضت إلى البحر
إني دخلت إليكِ
— أنا الحزن والغيب والفرح الداخلي
وأمسكتُ جرحي فيكِ
وأطلقتُ . . .
بين القرنفل والموتِ
شعباً من الدم
شعباً من البرق والورود ،
أطلقت صوتي
أنا الأجل المستبدّ
أقول احبسيني
وفكي اشتباك اللغات بصدري
فكل وصول إليك . . . سلامه

وكل ضلال إليك . . قيامه

— ٤ —

أغطيك بالحب والصمت
والضوء يامَنْ . . .
تغطي يداك نشيدي
أغطيك بالحلم
— إني حملتك في الصدر دهراً —
أغطيك بالشعر
إني استويت بك الآن
والآن بالزهر والماء والنار
أحرس صوت الغزالة ،
بالدم أحرس عمر الغزالة ،
بالموريات أجيء
وأرسم فجراً
وبين اغترابي إليكِ
وبين حضورك فيّ
أهيء وقتاً ،
وأفقاً ،
وأرضاً جديدة

مباركة خطوكِ في الأرض

شعر : مريد البرغوثي

١ —

إليكِ خطاي
ويمتد المدى ، والريح
وشاح مسافر يعدو
نقشتُ عليه شعر الوجدِ
حتى طار بي الوجدُ
لأدخل في مدى ملكوتك ِ الأبديّ
ليس يحدّني حدُّ
أجيء إليكْ
وأنت العشقُ والمعشوقُ والعشاقُ والوَعْدُ .

. . .

٢ —

أطللتِ في الزمن الشديد
ومَنَحتِنا دَرْبَ الأمانْ
ياطفلـــةً
وحصانك الفضي يرمح في مساحات . . الخطر

. . .

٣ —

بوركتِ مانُقِشَتْ على الثوب الفلسطينيّ وردة
بوركتِ ماطفل من القدسِ ابتسم .

٤ —

ويكون أن تأتي إليكم طفلةٌ
ولها يليق المجد
وبها تجوزون السياج
ويكون أن يأتي زمان صالحٌ
ويكون أن تسري على الأمواج ثانيةً
مراكب كانت انحطمت لكم
وستعرفون مواسم الطير المهاجرِ
وارتحالات النجوم

ويكون أن تصلوا إلى منشودكم
ويكون أن تأتي إليكم طفلة
ويكون أن يتغير العالم .

. . .

٥ —

فَرَحْ فَرَحْ فَرَحْ
وحبنا فرح
وإن ذهبتِ ياحياة للأحزانِ
أرجعناك للفرح

٦ —

تشابك وعتمة وضوء
سناجبٌ ، ثعالبٌ ، نمور
جداول وخضرة وورد
أرانب ، أيائل ، أسود
تشابك وعتمة وضوء
مدى ، مدى ، مدى
هكذا الغابة
هكذا أنتِ .

. . .

٧ —

ويكون للسنوات ان تعرف وجهك ياصغيرتي
ويكون ان تكشف لك الأسرار
وإليّ تأتين
تعلّمين الولد القادم من جبال فلسطين الحزينة
أن الفرح ممكن .

. . .

٨ —

نقف من مواجهتهم
هم يقدمون الأزرار والأوسمة
ونحن نقدّم عُرْينا
هم يقدمون للجائع الديباجات
ونحن يلفحنا لهب الأفران
لنصنع للجائع . . رغيفاً .

. . .

٩ —

لهم خفٌ مخمليّ للمشي على السجّاد
لهم حذاء للتزحلق على الجليد
لهم حذاء للمناسبة الرسمية

لهم حذاء ، للدوس . . على . . رؤوسنا
ونحن نسير حفاة . . على . . الشوك
الذي . . يحول . . بيننا .. وبينهم ؟ !

. . .

١٠ —

ويكون للسنوات أن تعرفنا معا
ويكون للحب أن يأخذنا ونذهب اليه
نحن نواطير الزمان العربي
نحن التساؤل
ويكون أن نحن أولاد
في كل منحى بري وقفنا
وكنا الزهرتين البريتين
وفي المدن القادمة من الماضي الواضح
من المدن الذاهبة إلى الماضي الواضح
كنا نحمل تعبنا ونصعد به تلال مستقبلنا الغامض
مزنرين بالصوت والصخرة والطير والأطفال
بالصوت نناده عليهم
على الصخرة ننقش أغانينا
والطير نحمّله الكلم الطيبّ
يطوف به على نوافذهم

ومن الأطفال نتعلم حبنا
نحن نواطير الزمان العربي
نحن التساؤل
ويكون أن نمشي المضايق
ويكون أن نمشي الوديان
مزنرين بأشواك العلّيق
ندمى
ويدانا ماتزال ترفع وردتها
لعل مولودة من الخليل
تلمحهـــــا
وتحلم أنها نجمه
وفي سعيها للوصول
تلاقي ولداً يكبر وراء النجمة / الوردة
وعندما تتشابك أصابعهما
يبدأ النهر
يسيران معاً على ضفته
ولعلهما لحظة الوصول
يمدان أيديهما
إلى الطفل المنسي على سور القدس

يحتضنانه
ويشعلان له القنديل .

. . .

١١ –

مبارك خطوك في الأرض
مبارك اليوم الذي يمر بك في طريقه الى الأولاد
مباركة يدك على رؤوسنا
نحن أولادك المتسائلون
تمرين بنا
وتلقين لنا المفتاح

. . .

١٢ –

مسنونة هي الصخور في طريقنا
نحن أولادك المتسائلون
نبدأ رحلتنا إلى مساحات تعرفينها ونَنْشُدهَا
أنت الرفيقة . .
ومبارك خطوك في الأرض .

. . .

كتاب وتحليل

مقدمات لدراسة المجتمع العربي

رجاء طايع

المؤلف : هشام شرابي
الناشر : الدار المتحدة للنشر
بيروت ١٩٧٥

من خلال نظرة عامة على خارطة توزع المفكرين العرب المقيمين خارج حلبة العالم العربي تقع على نتيجة قد تبدو مستغربة بعض الشيء وهي أن المقيمين منهم في الولايات المتحدة الأمريكية يتفوقون عدديا على اقرانهم في دول أوروبا الغربية ـ فرنسا وانكلترا على الاخص.

وهذه النتيجة غير متوقعة كليا إذا اخذنا بعين الاعتبار القرب النسبي لدول أوروبة الغربية من العالم العربي ، وأن هذه الدول كانت إلى عهد قريب على اتصال استعماري مع دول المنطقة العربية ، وأن هذا الاتصال الاستعماري كان يتخذ في كثير من الاحيان طابع الهيمنة الحضارية .

ويعتبر المفكرون العرب والسوريون خاصة في الولايات المتحدة الامريكية عنصراً نشيطا وفعالا في الحركة الفكرية (الاكاديمية بشكل خاص) ، وفي مختلف الاختصاصات ، ولاسيما في مجال العلوم الانسانية . وهم من خلال تفاعلهم مع البيئة الحضارية الامريكية يتوزعون على ثلاثة مواقف فكرية أساسية .

أ ـ الموقف الاول يتسم بطابع المحافظة الشديدة ، والتعصب الانغلاقي الكامل على كل ما هو قديم وتراثي .

ب ـ الموقف الثاني يتسم بطابع التمثل التام للمنطلقات الفكريةالليبرالية ،والانطلاق في الفكر والممارسة من خلال منطق متشبع بقواعد التفكير والسلوك الأمريكي .

جـ ـ الموقف الثالث يجمع بين أسس التفكير الليبرالي العام مع ميل أو تأثربالنظريات الفكرية الماركسية والاشتراكية .

تتجاذب كل من هذه المواقف أو التيارات ، المفكرين العرب في أمريكا وجميعهم على اختلاف منطلقاتهم يصلون في مواقفهم هذه إلى درجة من العمق والمستوى الرفيع تدعو إلى الدهشة . ولكن ، هنالك قاسم مشترك واحد بين هذه التيارات الثلاثة ، وهي أنهاجميعها تهتم بالقضايا القومية وتتابع بتعاطف كبير تطورات المسألة العربية .

نستطيع اعتبار الدكتور هشام شرابي من الفئة الثالثة من هؤلاء المثقفين ؛ وهذا ما اشار إليه بوضوح من خلال مقدمة كتابه « مقدمات لدراسة المجتمع العربي » . والكتاب عبارة عن مجموعة دراسات حول بعض القضايا الاجتماعية العربية المعاصرة ، والقسم الأكبر من هذه الدراسات ينصب على الفرد العربي ، وبالقضايا النفسية والاجتماعية والتاريخية ، والابعاد المختلفة للشخصية ، كما تقوم بإبراز وتحليل بعض عيوب الشخصية النمطية لما أسماه الإنسان البورجوازي ـ الاقطاعي مع التركيز على الشروط الحضارية المتخلفة التي تدخل في علاقة تفاعلية بعيدة المدى مع هذه الشخصية ، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى خلق أوضاع أخلاقية وفكرية ونفسية ذات طابع إشكالي .

ومن خلال نظرة كلية على هذا الكتاب نستطيع أن نمسك ببعض المنطلقات الاساسية المعتمدة في تأليفه :

١ ـ التحليل النفسي والعرض الاجتماعي .

٢ ـ ملاحظات شخصية نتيجة اختبارات طفولية ذاتية عند الكاتب .

٣ ـ ملاحظات عامة عن طبيعة الترابط بين السلوك الاجتماعي للفرد وبين تركيب المجتمع من خلال معايشة محدودة زمنيا ؛ وفي أوقات متفرقة .

٤ ـ الاستفادة من المعطيات الفرويدية في إلقاء الاضواء التحليلية على تكوين الفرد العربي ، والاستفادة من المعطيات الماركسية لتحليل بنية المجتمعات العربية ، وطبيعة العلاقات الانتاجية ـ الاجتماعية ؛ وانعكاساتها الايديولوجية المهيمنة على هذه المجتمعات

٥ ـ بعض الامثال الشعبية المتداولة في اجزاء العالم العربي ، واتخاذها كدلائل على خلفيات فكرية وحضارية تعكس بعض جوانب اللاشعور الجمعي للعقلية العربية بشكل عام.

وهذه المنطلقات التي اعتمدها الكاتب كمرتكزات لدراساته تتفاوت فاعلية كل منها تحت تاثير الطبيعة المعينة لمحتوى كل دراسة من جهة ، إضافة إلى تاثير الموقف الشخصي للكاتب وقناعاته الفكرية المحددة والصريحة من جهة أخرى ... مما جعل مؤشر نجاح هذه الدراسات وتكاملها يتارجح ويتفاوت بشكل ملحوظ في كل دراسة من هذه الدراسات .

الدراسة الاولى من هذا الكتاب خصصت للبحث في **بنية العائلة في المجتمع العربي**، وتكوين **الشخصية في إطار هذه العائلة** باعتبارها الوسيط الرئيسي بين شخصية الفرد والوسط الاجتماعي العام الذي ينتمي إليه ، ويركز الكاتب اهتمامه على تاثير العائلة الهام على الطفل انطلاقا من أن الطفولة هي المرحلة الحاسمة في تكوين شخصية الفرد . وينطلق في تأييد كلامه هذا من أن الطفل عند ولادته يكون ذاتا غير متكونة ، وهي تتكون تدريجيا بصورة تفاعلية مع ذوات الاخرين . وتمثل الأم الذات الاكثر اهمية في التاثير على الطفل ، ويشدد الكاتب على أهمية العوامل الوراثية الى جانب العوامل البيئية في تكوين الذات الانسانية وكذلك على اهمية طرق تربية الطفل ، إضافة إلى المواقف الذاتية للوالدين وعلاقتهما ببعضها البعض ، وكذلك الوسط الاجتماعي الاقتصادي الذي ينشأ فيه الطفل.

ويعتبر الكاتب نموذج العائلة الممتدة هو الاكثر شيوعا في بنية العائلة العربية ،حيث يتم تكريس الروابط والمفاهيم العشائرية ،؛ وهذا النموذج يكثر في أوساط الطبقةالوسطى وتخف حدته في الاوساط الفقيرة ، وبعض عائلات الطبقة الوسطى ذات الثقافة الغربية ، ثم ينتقل الى رصد الآثار السلبية لهذاالنموذج العائلي علىالطفل ، لتسلط الاب ،وتبعية الطفل لمطلقة للعائلة حيث أن عملية تماسك العائلة تتحقق بواسطة ادراج الطفل فيالمجتمع من خلال اعتماده على العائلة وربطه بها ، فينمو الطفل وهو يشعربأن مسؤوليته الاساسية هي تجاه العائلة لاتجاه المجتمع . وتصبح بذلك السيطرة المزدوجة من قبل الام والابعلى الطفل عاملاً هاما في تشويهه واحباط كثير من إمكانياته الفطرية ، وجعله يدور ضمندائرة تأثيرهما عن طريق التخجيل واشعاره بالذنب تارة ، وعن طريق التعليم القائم على التقليل من اهمية الاقناع والمكافأة ، وعلى زيادة اهمية العقاب الجسدي والتلقين تارة أخرى . وكذلك يجري تدريب الطفل على حب المباشرة ، وعلى اتقان فن المجاملة وارضاء الاخرين

والمسايرة والادب الشكلي مما يجعل منه في المستقبل رجلاً عاجزاً عن معالجة ومواجهة المشكلات المطروحة عمليا وبشكل فعال ، وحب المداورة والمجاملة الذي يستند في كثير من الأحيان على الرياء يؤدي فيما بعد وبصورة تلقائية إلى تغذية الروح العدوانية التي تظهر في الاستغابة » أي في النيل من سمعة الآخرين .

اما دراسته الثانية فهي بعنوان **الاتكالية ، التهرب ، العجز** ، ويعتبر هذه الصفات بعض نتائج « **التربية البورجوازية الاقطاعية في تكوين الفرد** » مع العلم ان هذا الوصف **لاينطبق على المجتمع ككل** » **بل على الشخصية البورجوازية** — الإقطاعية ، تماماً كما أن **القيم والقواعد التي تتحكم في السلوك البورجوازي — الاقطاعي** لايمكن أن تعزوها للجماعة ككل ، وذلك لانها تنبع قطعاً من الثقافة الطبقية . فالثقافة البورجوازية — الاقطاعية لايمكنها ان تطبع الثقافة القومية بطابعها الخاص إلا بقدر ماتكون عامة الشعب مشاركة في قيمها وتطلعاتها وخاضعة لايديولوجيتها . إلا أن ثقافة الطبقات المسيطرة لايمكنها أبدا أن تطابق ثقافة الجماهير مطابقة كلية ، بمعنى أنها قد تتعايش وإياها في حركة استقطاب متعارضة ولكن دون أن تحل محلها » .

ثم ينتقل الكاتب الى تحليل كل من الاتكالية والتهرب والعجز كصفات سلبية في الانسان البورجوازي الاقطاعي ... وقبل استعراض آرائه التفصيلية في هذه الناحية يجب التنويه الى أن هذا الفصل يعتبر بحد ذاته مليئا بالمغالطات ، لان الكاتب في تقسيمه الطبقي هذا يلغي شيئا هاما أبعد بكثير من أن نصفه بأنه ايديولوجية طبقية ، إنه يلغي ما يمكن تسميته بروحية المجتمع ... إن العيوب التي يتحدث عنها صحيحة وموجودة ومتعششة إلى حد كبير في مجتمعاتنا العربية ، ولكنها ليست عيوباً طبقية ، أي ليست عيوباً بسبب هيمنة فكرية لطبقة معينة ... إنما هي صفات تشترك فيها جميع الطبقات ، إنها صفات اجتماعية جذورها تمتد إلى عهود بعيدة جداً ... مما جعل هذه الصفات شيئاً — مع الاسف — راسخا في روحية المجتمعات العربية وخصائص شبه ثابتة في الشخصية العربية إن النظام الطبقي الذي يتحدث عنه الكاتب يساهم جزئيا في ترسيخ هذه الصفات ، ولكنه ليس السبب ، وتغييره ليس الحل الوحيد للقضاء عليها كما أكد الدكتور شرابي .

إن آراء الكاتب تحمل قدراً من الصحة على الصعيد النظري ، لكنها عملياً ومن خلال معايشة حقيقية للواقع الاجتماعي العربي تنطوي على قدر كبير من التجاهل ومجانبة الموضوعية :

١ ـ لانه عندما يتحدث عن بعض العيوب كالكبت الجنسي مثلا واثره السلبي على قدرات الفرد ، او عندما يتحدث عن رد فعل الأم التي تهلع اذا ضرب ابنها من قبل ابن الجيران ، نلاحظ أن هذه العيوب ، وردود الفعل التي يعزوها الى الشخصية البورجوازية الاقطاعية ويقصرها عليها نجدها في الواقع واحدة ومتشابهة عند جميع أفراد المجتمع بغض النظر عن انتماءاتهم الطبقية .

٢ ـ إنه يستخلص بعض نتائجه من بعض الامثال الشعبية العامية ، ويعتبرها تعكس مفاهيم الشخصية البورجوازية ـ الاقطاعية ، بينما هي في الواقع تعكس روحية المجتمع ككل ، وآلية تفكيره ، فهو مثلاً يقول في معرض حديثه عن النزعة القدرية الغيبية لدى الفرد البورجوازي ـ الاقطاعي « والجبرية في جوهرها » نوع من عدم التبصر وعجز عن التهيئة للمستقبل ....فهو ـ الفرد البورجوازي الاقطاعي ـ لايفسح للمستقبل سوى مجال محدود وغامض كما في القول : مرقني اليوم وغرقني بكرا ... » .

وتبقى عملية استخلاص الاحكام الثابتة من الامثال الشعبية في الاساس غير علمية وغير سليمة ، لأن تراثنا الشعبي مليء بالامثال المتناقضة المتباينة والتي لانستطيع إذا أردنا أن نكون موضوعيين أن نستخلص منها أي شيء نقتنع بصحته بشكل نهائي وثابت ، والمثل الشعبي الذي استشهد به الكاتب يوجد في تراثنا نقيضه تماما مثل « خبي قرشك الابيض ليومك الاسود » وهكذا .....

ان روحية المجتمع ، او الشخصية الاجتماعية النمطية لاي مجتمع ، لا تتكون بفعل وضع اقتصادي ـ طبقي فقط . هنالك عوامل أخرى لاتقل أهمية عن الوضع الاقتصادي ، وطبيعة العلاقات الانتاجية . ان المناخ أحياناً يلعب دوراً في تكوين هوية اجتماعية محددة ، حتى البيئة الطبيعية التي يتعامل معها انسان منطقة ما ، تحدد له الكثير من الخصائص النفسية والفكرية الجوهرية ، وبالتالي تحدد نوعية استجابته تجاه الحياة والطبيعة ، وكثيراً ما يكون الوضع الاقتصادي نتيجة لاسبباً ، مظهراً لاعلة ... في مثل هذه الامور يصعب الجزم واستنباط أحكام ثابتة استنادا الى نظرية احادية لتفسير مشكلة متعددة الابعاد ، إشكالية الطابع ، مهما كانت قوة هذه النظرية وصلابة أرضيتها المادية .

وفي دراسته التالية بعنوان **الوعي والتغيير** ينطلق الكاتب من ضرورة أن يعي الانسان العربي ذاته للتخلص من رواسب التخلف ولاحداث التغيير الجذري والشامل في مختلف مستويات حياته . والخطوة الاولى التي يجب عليه اتخاذها هي نقد الفكر الغربي ؛ وذلك برفض النموذج الحضاري الغربي المهيمن على أذهاننا كغاية مثالية للحضارة . وينطلق الى تفنيد بعض مظاهر التزييف الحضاري الغربي القائم على ما أسماه بظاهرة الخبل والاستغلال والقهر والتمويه ؛ وحجب الحقيقة عن الذات . وانتقد النزعة المثالية في انماط التربية والتعليم الغربية والتي تجعل من الانسان يعيش أزدواجية رهيبة بين الواقع القاسي والمثال الخيالي الملقن عنطريق التعليم... ثم ينادي بالمعرفة الذاتية النقديةكبديل للمعرفة الدفاعية التبريرية عن الماضي التي أطلقها المثقفون العرب منذ بداية عصرالنهضة، ويدعو الى تفهم الواقع تفهما يرتكز على العقلوالحقيقة العلمية . ويتعرض بعدذلك لعملية التمويه النفسي والفكري والاخلاقي التي تمارس على الفرد في مجتمعنا وفي جميع مراحل حياته ، وان على الفرد العربي تحطيم جدار التمويه للوصول الى المعرفة الذاتية .

ويفرد الكاتب قسما خاصا يعالج فيه موضوع **الانسان العربي والتحدي الحضاري** ، ويقترح معالجة مشكلة التحدي الحضاري التي يواجهها العرب بالانطلاق من قاعدة الواقع الاجتماعي ،، وتناول القضايا المطروحة من زاوية التحليل العلمي للتوصل الى فهم يشكل بداية العمل في صلب الواقع من أجل تغييره وتجاوزه . ويقترح ثلاث قضايا ملحة تشكل القاعدة الاساسية التي يقوم عليها المجتمع العربي وعلى تغييرها يتوقف كل تغيير جذري في هذا المجتمع وهي : علاقتنا بأطفالنا وبالمرأة وببعضنا البعض . ويدعو بعد ذلك الى تغيير نظرتنا الى الغرب ، وادراك حقيقة التحدي المستمر الذي يشكله الغرب بالنسبة لمجتمعنا . والكف عن الشعور بالنقص تجاهه ؛ والتحرر النفسي والحضاريمن سيطرته ، ولكن هذا لا يعني اننا نرفض الغرب وثقافته وعلمه بلا قيد أو شرط ؛ بل يجب ان نستمد منه نماذج وأفكارا لانعاش حياتنا الاقتصادية واعادة تنظيم مجتمعنا ، واحياء ثقافتنا العربية على أساس التعامل مع الغرب كند لنا وعلى أساس المساواة . لذلك تحدد مقدرة العرب على مجابهة التحدي الحضاري في أمرين : ١) فهم صحيح لحقيقة الغرب وما نريده منه . ٢) ــ القدرة على تجاوز مبدأ التحديث والتقليد الاعمى والسير في طريق حضاري مستقل ومستمد من معطيات بيئتنا .

الدراسة الاخيرة بعنوان **المثقف العربي والمستقبل** ، والمثقف عند الكاتب هو الانسان الذي يمتلك قدر من الوعي يتمكن من خلاله من رؤية المجتمع وقضاياه بنظرة شمولية تحليلية ، وبالتالي يستطيع أن يلعب دوره الاجتماعي المتميز استنادا الى هذا الوعي ،

والى اختصاصه المهني أو كفاياته الفكرية . فالعامل الذاتي الشخصي هو العنصر الاساسي والهام في تكوين المثقف .

ثم يقوم بتعداد فئات المثقفين وهم : ١) ــ المثقفون الملتزمون : أي الذين يتطابق لديهم الفكر والممارسة ، فالوعي والممارسة لديهم وجهان لحقيقة واحدة هي وجودهم ذاته . وهم اقلية طليعية مسؤولة عن التغييرات الاجتماعية الاساسية . ولا يوجد بينهم قاسم مشترك في الخلفية الطبقية أو الاختصاص المهني .

٢) ــ أهل القلم : الادباء والكتاب المساهمون اجتماعيا بالكلمة لا بالممارسة المباشرة والتزامهم معنوي .

٣) ــ الاساتذة والمعلمون : وهم كسابقيهم ملتزمون معنويا .

٤) ــ المهنيون : الاخصائيون التكنوقراطيون وهم أكثر الفئات الاجتماعية بعدا عن الوعي الايديولوجي والسياسي ، وتأثيرهم الاجتماعي الوحيد ينبع من ممارستهم المهنية .

بعد هذا التعداد لفئات المثقفين ينتقل الى الحديث عن دورهم ، ويقوم باستعراض تاريخي سريع لدور المثقفين العرب منذ مطلع هذا القرن ، وينوه الى أن دورهم في البداية كان اكثر فعالية في عملية التغيير الاجتماعي التي تعرض لها العالم العربي ، ولقد فقد دورهم اهميته حاليا بسبب ظروف سياسية معينة ، وهذا الفقد يشكل ظاهرة مرضية في مجتمعاتنا .

ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن مزايا المثقفين ، وأوضاعهم النفسية والفكرية والاخلاقية والاجتماعية ، ويبين أن المجتمعات المتخلفة تدفع بمثقفيها الى تقديم التنازلات للتأقلم مع الواقع الاجتماعي تحت وطأة الدافع الاقتصادي ، فيفرض المثقف رقابة ذاتية على فكره وأقواله وعمله ، أو أنه يرفض الوضع القائم فيعمل ضده أو يهجر وطنه . فالعامل المادي لا الفكري والمبدئي هو الذي يلعب دوره في تحديد سلوكيات المثقف ، وتدريجيا يتحول ارتباطه الايديولوجي الى ارتباط لفظي ، ويزداد التصاقا بالاوضاع القائمة ويعيش ازدواجية صعبة بين عالمه الداخلي المقموع وبين واقعه الحياتي الخارجي . لذلك نجد التذبذب الفكري والانتهازية والنزعة التبريريةوالفوضويةصفات ملاصقةلمثقفينا ثم يتحدث عن دور المثقفين والايجابيين منهم خاصة لتوحيد ارادتهم الذاتية والعمل على الدخول بالمجتمع العربي الى عالم القرن العشرين ، مستنفرين كل طاقاتهم وقدراتهم وللوقوف الى جانب الجماهير الشعبية صانعة المستقبل .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا الكتاب بمجمل دراساته يتميز بأنه واحد من كتب قليلة طرحت موضوعاتها بقدر كبير من الجرأة ، مستفيدة من مناهج بحث علمية لتحليل البنية الاجتماعية العربية ، وتكوين الفرد العربي ، وان غلب على بعض هذه الدراسات الطابع الدعاوي ، والطرح الاحادي كما في دراسته عن الوعي والتغيير .

مراجعات

تروتسكي والأدب والثورة

هيفاء خليل

ترجم السيد جورج طرابيشي ، قبل سنة ، كتاب « تروتسكي » : (الادب والثورة) (*) ولقد اثار هذا الكتاب اهتماما واضحا من قبل اوساط عديدة ، فكرية وادبية وفنية ، مما يعني ان للكتاب اهمية راهنة بالنسبة لواقعنا ، سواء بالنسبة لمقدماته او بالنسبة للنتائج التي انتهى اليها . غير أن المترجم اوضح في هامش (ص ٥) بانه أهمل ترجمة القسم الاول بحجة انه (لايعني شيئا للقارىء العربي) . غير ان هذا القسم مهم للغاية . فهو يتناول بالتحليل آثار كتاب وشعراء وفنانين آخرين شكلت اتجاهات

(*) الترجمة العربية من منشورات دار (الطليعة) بيروت .

(*) الترجمة الانكليزية :

Leon Trotsky

Literature and Revolution Translated by Rose Strunsky 1950 .

— ANN ARBOR PAPERBACKSThe University of Michigan Press .

مؤثرة في الادب الروسي ما قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ . وهذا التحليل الاساسي كان المقدمة الضرورية لما توصل اليه تروتسكي من نتائج في القسم الثاني من الكتاب والذي اكد المترجم بانه القسم (الفني بالتعميمات النظرية والسوسيولوجية) قد تم تشويهه من قبل المترجم . فعند مقارنة الترجمة العربية مع الترجمة الانكليزية ، وجدنا ما لا يقل عن ثمانين خطا ، بالاضافة الى العديد من الاضافات وحذف فقرات عديدة من النص الاصلي . نضيف الى كل هذا رداءة اسلوب المترجم في معظم الفصول التي ترجمها . فاي مصير آل اليه هذا القسم الفني (بالتعميمات النظرية والسوسيولوجية) على يد المترجم لا

من الصحيح جدا ان هذه المقارنة كان يجب ان تتم مع الترجمة الفرنسية . غير اننا لا نعتقد ان الترجمة الانكليزية تحوي بالمقارنة مع الترجمة الفرنسية هذا القدر من الاخطاء والتحريفات والحذف والاضافة . سيكون عملا مفيدا للغاية لو ان السيد جورج طرابيشي او غيره قام بمقارنة الترجمة الفرنسية مع الترجمة الانكليزية وذلك بهدف فضح اخطاء وتحريفات الترجمة الانكليزية ايضا ، ان كانت موجودة بالفعل .

لقد قارنا فصلين من اصل خمسة فصول ترجمها السيد جورج طرابيشي ، والفصول الباقية من ترجمته تجري على المنوال نفسه .

نامل ان تكون هذه بداية للمزيد من الاهتمام بشأن الترجمة عن اللغات الاخرى ، وخاصة ان الترجمة ليست عملا تجاريا محضا ، وانما هي موقف فكري وسياسي .

(١) ص ٦

لن تدوم شهورا وانما سنينا وعشرات السنين ، ولكن ليس قرونا وكم بالاحرى الوفا من الاعوام .

ص (١٨٥)

Will last,not months and not years, but decades-decades, but not centuries, and certainly not thousands of years.

لن تستغرق شهورا ولا سنينا ، انما عقودا ـ عقودا ، لكن ليس قرونا ، وليس بالتاكيد آلاف السنين .

(٢) ص ٧

ان الكلام المبهم الغامض عن البروليتارية ، قياسا على الثقافة البرجوازية ومعارضة لها

ص (١٨٦)

The formless talk about proletarian culture, in antithesis to Bourgeois culture.

ان الكلام المشتت حول الثقافة البروليتارية كنقيض للثقافة البورجوازية .

(٣) ص ٧

بين الدورة التاريخية للبورجوازية والتطور التاريخي للطبقة العاملة .

Between the historic development of the Bourgeoisie and of the working class .

بين التطور التاريخي للبورجوازية والتطور التاريخي للطبقة العاملة

(٤) ص ٦

هكـذا تكون السيرورة الاساسية لتراكم عناصر الثقافة البورجوازية .

ص ١٨٧

Thus the fundamental processes of the growth of Bourgeois culture .

هكـذا تكون السيرورة الاساسية لنمو الثقافة البورجوازية .

(٥) ص ٩

خالقة لنفسها نقاط ارتكاز ثقافية .

ص ١٨٨

and created its cultural foundation .

وخلقت مؤسستها الثقافية

(٦) ص ٩

قبل فترة طويلة من استيلائها على الدولة علنا وجهاراً ، على راس الطبقة الثالثة

ص ١٨٨

Long before it openly took possession of the state .

قبل فترة طويلة من استيلائها على الدولة علنا وجهاراً . (اما بقية الكلمات فهي اضافة من المترجم .)

(٧) ص ١١

والعديد من المبتكرات الكيمائية

ص ١٨٩

and to many mechanical discoveries.

والعديد من الاكتشافات الميكانيكية

(٨) ص ١١

سوف يؤرخ بيوم ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ على اغلب الظن أيضا

ص ١٩٠

Will be dated from November 7, 1917 .

(على اغلب الظن أيضا ، اضافة مـن السيد طرابيشي .)

(٩) ص ١١

ومن المرجح

ص ١٩٠

We think .

نعتقد .

(١٠) ص ١٢

ان نحوز رسمياً .

ص ١٩١

Take Possession, Politically

ان نستولي سياسياً .

(١١) ص ١٣

لقد وصلت البورجوازية الى السلطة مسلحة أتم التسليح بثقافة عصرها ...

ص ١٩١

The borgeoisie came into power fully armed with the culture of its time. The Proletariat, on the other hand, comes into power fully armed only with acute need of mastering culture .

حذف السيد طرابيشي من الفقرة مايلي: تاتي البروليتاريا الى السلطة ، من جهة اخرى، مسلحة أتم التسليح بالحاجة الشديدة الى الثقافة المسيطرة فحسب .

(١٢) ص ١٤

لقد حيكت .

ص ١٩٣

Was developed

لقد تطورت .

(١٣) ص ١٥

لا تكمن في تجريد ثقافة جديدة .

is not the abstract formation of a new culture .

ص ١٩٣

ليست التكوين المجرد لثقافة جديدة .

(١٤) ص ١٥

والحال ان بناء هذه الثقافة بالتعاون مع الطبقة ،

And to build culture in cooperation with the working class

ص ١٩٤

ولبناء ثقافة بالتعاون مع الطبقة العاملة .

(١٥) ص ٢٣

وثائق هامة في تاريخ الفن .

are significant cultural and Historical documents

ص ٢٠٣

وثائق تاريخية وثقافية متميزة .

(١٦) ص ٢٣

قمينة بان تدل على طريق التقدم السياسي

ص ٢٠٣

may reflect the path of the political growth .

قد تعكس طريق التقدم السياسي .

(١٧) ص ٢٥

ليست المسالة اذن هنا محض مسالة قلة انتباه واهتمام ، وانما مسالة شروط تاريخية ابعد غورا واعمق .

ص ٢٠٣

it is, therefor, not a matter of their being neglected - the cause lise in a deeper historic condition.

انها ، اذن ، ليست مسالة كونهم مهملين وانما يكمن السبب في ظرف تاريخي أعمق .

(١٨) ص ٢٥

أما اولئك الذين لن يقدروا أبـدا على امتلاك التقنية

But they who refuse to master technique .

لكن اولئك الذين يرفضون السيطرة على التقنية .

(١٩) ص ٢٧

بيد ان الاسلوب لايولد مع الطبقة في زمن واحد

However, style is not born with a class at all .

ص ٢٠٥

على اي حال ، لايولد الاسلـوب مـع الطبقة على الاطلاق .

(٢٠) ص ٢٨

بالنضال في سبيل حق الاتحاد

Through a struggle for the right to organize

ص ٢٠٦

بالنضال في سبيل حق التنظيم

(٢١) ص ٢٩

بعد السطر الثالث ، المقطع التالي محذوف :

For instance, many Proletarian Poets have an undoubted trace of Futurist influence. The talented Kazin has imbibed the elements of futurist technique. Bezimensky is unthinkable without Mayakovsky, and Bezimensky is a hope

ص ٢٠٧

مثلا ، يحمل العديد من الثوار البروليتاريين جزءاًمؤكدامن التأثر بالمستقبلية فكازين الموهوب يتشرب عناصر تقنية المستقبلية. بيزمنسكي لا يذكر دون مايكو فسكي ، و بيزمنسكي هو أمل .

(٢٢) ص ٢٩

لقد ظهرت السياسة الاقتصادية الجديدة ، بوصفها مرحلة من مراحل الثورة، الى حيز الوجود في مناخ فـن يشبـه مهارة الغوريـلا .

« The NEP - stage of the Revolution found it self surrounded by an art which resembles the grimaces of a gorilla »

لقد وجدت مرحلة النيب من الثـورة نفسها محاطة بفن يشبه تكشيرات غوريلا »

(٢٢) ص ٣١

والتفكير في مثل هذه الشروط ببيلنسكي بزفرات أسى بزيع النقاب ـ وا اسفاه ! وا اسفاه ! ـ عن روح استنكافوعزوفمميزة للحلقات الفكرية الصغيرة ، على اسلوب

ليس فيه من الابهة شيء) شعبوي يساري، ملؤه الورع والتقوى .

To sigh for the Belinskys under such a condition, is to reveal - alas ! - the isolation of an inteligentsia group, entirely in the style (Far from monumental) of the most pious populists of the left - the Ivanov - Razuumniks .

ص ٢١٠

والتحسر من أجل بيلنسكي في مثل هذا الظرف ، هو اظهار ـ بالحسرة ـ لانفصال مجموعة الانتلجنسيا ، تماما في الاسلوب (البعيد عن الفخامة) لاكثر شعبوبي اليسار ورعا : ايفان راز وميتكس .

(٢٣) ص ٢٢

نحن نعرف كيف نتدبرأمرنا ، ولانخشى كائنا من كان !

This is familiar business : we'll cover it all with our hat !

ص ٢١٠

هذه امور شائعة : سنغطيهاكلهابقبعتنا !

(٢٤) ص ٢٢

والحق ان هذا الثمل البدائي استولى ايضا على نفوس كتاب بورجوازيين تماما .

But this primitive intoxication affected all the bourgeois writers as well,

ص ٢١١

لكن هذا الثمل البدائي اصاب كل الكتاب البورجوازيين ايضا .

(٢٥) ص ٢٣

أما الارض فمن الممكن ان تكون بالنسبة الى «الكونيين» ، كما بالنسبة الىالصوفيين وسيلة وواسطة .

But the earth ? as in the case of the mystics, it may prove simply to be a springboard to the cosmos .

ص [illegible]

لكن الارض ؟ كما في حالة الصوفيين ، قد تثبت كونها وببساطة نقطة انطلاق الى الكون .

(٢٦) ص ٢٥

بل انه يستخدم علانية" وجهارا الاشكال القديمة المكرسة ، المطوبة .

He even emphasizes the fact that he uses the sacred old forms .

ص ٢١٢

بل انه يؤكد حقيقة انهيستخدم الاشكال القديمة المقدسة .

(٢٧)

الفصل الثاني في ترجمة (طرابيشي) هو الفصل السابع في الطبعة الانكليزية .

(٢٨) ص ٣٧

العنوان الذي وضعه طرابيشي للفصل هو : سياسة الحزب في الفن

Communist policy toward ART

ص ٢١٥

السياسة الشيوعية في الفن .

(٢٩) ص ٣٧

طفق مؤخراً بعض الكتاب الماركسيين يلجؤون الى وسائل الجازر الجماعية تجاه المستقبليين .

There are Marxists in literature who have taken an arrogant attitude toward the Futurists

ص ٢١٥

هناك بعض الكتاب الماركسيين الذين يتخذون موقفاً متغطرساً تجاه المستقبليين .

(٣٠) ص ٣٩

حذف السيدطرابيشي الكلمات التالية الموجودة في الطبعة الانكليزية وهي ...

which began after 1905

الذي بدأ بعد ١٩٠٥ ...

انظر الطبعة الانكليزية ص ٢١٦سطر٢٧

(٣١) ص ٣٩

وبدلالة ذلك ، ينبغي علينا ان نعرف كيف نرسم وننشيء سياسة فنية .

One has to keep this fact in mind when shaping a Political attitude toward art.

علينا ان نتذكر هذه الحقيقة عندما نريد اتخاذ موقف سياسي في الفن .

(٣٢) ص ٤١

خطوة خطوة

Consciously and step by step

ص ٢١٨

بشكل واع وخطوة خطوة

(٣٣) ص ٤٣

على دعم للاقتصاد الفلاحي .

Uulimited support for a peasnat economy .

ص ٢٢١

على دعم غير محدود لاقتصاد فلاحي .

(٣٤) ص ٤٤

حذف السيد جورج طرابيشي هذه الكلمات :

At the same time, the peasantry will develop a creative intellingentsia of its own

ص ٢٢٢

انظر السطر ٢٢ من الصفحة المذكورةفي الطبعة الانكليزية وترجمته : في الوقتنفسه

سيلود الفلاحون طبقة الانتلجنسيا المبدعة الخاصة بهم .

(٣٥) ص ٤٥

عمل" رجعي

is historically reactionary.

ص ٢٢٢

هو تاريخيا عمل" رجعي .

(٣٦) ص ٤٦

والمحطة الكهربائية لا تتألق الا بغيابها .

even the electric station is still nonexistent.

ص ٢٢٤

حتى المحطة الكهربائية لم توجد بعد .

(٣٧) ص ٤٦

والفن البروليتاري الالهام (شعراء عمال ومستقبليون) .

Proletarian art, which includes groups of working - class poets and communists-Futurists

ص ٢٢٤

الفن البروليتاري ، الذي يتضمن مجموعات من شعراء الطبقة العاملة والمستقبليين الشيوعيين .

• • •

الهروب في "المسافة"

عبدالكريم الناعم

المسافة (قصة) اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٤ تاليف : يوسف الصائغ
١١٠ صفحات من القطع المتوسط

منذ البداية ؛ يبدأ الهروب في المسافة . وباتساع رقعة الاحداث وتشعبها يتخذ الهرب اشكالا جديدة ، ويتجسد في هيئات مختلفة..

ما أن يجتاز الشارع : « هو » ، و « هي » ، ويخلفانه وراءهما حتى تنفتح المسافة ، وتبدأ أول الخطوات .

الشارع مليء بالمسلحين ، واصوات الرصاص ، وهما يبحثان عن النجاة ..
الباب موصد ، وعليهما أن يجانبا المواجهة ..

واللاقاة ، والحديقة ، وظلام الليل يفصلانهما عن الناس ، وليس سوى المطر ، والبرد ؛ وانفرادهما ، وبعض النوافذ المضاءة ، وغربتهما في لجة من الحزن .

حين احتواها احس انه بدائي ، واحس ان ما تم شيء كالولادة ، كالموت ، لا يتكرر إلا مرة واحدة ..

كان الجسد طريقا آخر للهرب ، مجرد راق ، ولو للحظات ، وربما كان بحاجة لمثل هذه الذكرى في مستقبل ما ، حيث يصبح التذكر نافذة يطل منها على الافق المقفل في وجهه .

قد يهرب الانسان من أشياء كثيرة ، ولكنه لا يستطيع الهرب من نفسه . وحين تلتصق به الاشياء من الداخل ، فمعنى ذلك انه يحمل الجحيم ، وبخاصة حين يود التخلص فلا يقدر ، وهذا ما جعله [هو] يقول اثناء الهرب من [ب] :

« كرهته لأنني احسسته أنه يخيفني » .

لقد كان يكره فيه احدى نقاط نفسه الفائرة ، وربما كان ذلك دافعا له في ان يعبر الشارع ، ويتركه في الطرف الآخر ، وخوفه منه .. ، وتطلعه اليه كمثل ، وكرمز — بالمقابلة مع ما كان يحسه في داخله من مفارقة : لعب دورا كبيرا في احتوائه لها ، وكأنه يعلو عليه ، أو يتوحد فيه عن طريق جسدها ، فيصيره بطريقة ما ، ان لم يجابهه بشكل حاد .

كان تحسسه ، وترصده ، وتوجسه عالما قلقا تصعب مواجهته إلا من زاوية واحدة ، ولذا كان يرى وهو قابع في الظلمة :

« كم السترة مثل يد مشنوق » !!

الرعب والحساسية حين يسيطران لابد أن يوصلاه الى الحافة التي وقف عليها .

انه قلق ، ممزق ، لدرجة تبدو فيها الأشياء الأسهل قاسية ومرة ..

حتى الاستسلام بدا تلك اللحظة بحاجة الى القوة ..

انه الهروب الى كل اتجاه ، حتى في الجنس .

بدأ الهرب ..

بدأ الليل عند ساعة منسية في معصمي كانت القيم مفرغة من معناها تماما ، كانت مطلقة وانسانية الى ابعد الحدود ...

ومع الفجر ، مع قدوم انور الذي قد يمثل المواجهة يقول :

« كنت خائفا من احساس بالحاجة اليها ، وبانتهاء هربي ، وبرغبتي الملحة في الاستسلام » منذ البداية هو مستسلم بالتفكير ، هارب من كل مواجهة :

« كنت أخاف من ان نلتقي صباحا » منذ هروبه ، وحتى القاء القبض عليه .. أو تسليم نفسه .. يعتبر حدا في القضية ، حدا كحدث . ويبدأ حد ثان ، خاطف ، لكنه مضاء حين ينهار ، ويقرر التعاون « معهم » ..

هنا يكون الهروب الى التبريرات معتمدا على اثارة المشاعر الانسانية العاطفية ، الخيرية ، ليجد أرضا يقف عليها .

في التبرير ، وفي الاقناع يصبح الجميع .. ، جميع النظارة لديه جزارين ، لانهم لايعطون للتفاصيل الدقيقية ، وللحظات الضعف ، والانهيار ما لها من فاعلية ، وكان الواقفون في الصف الآخر يلاحقونه بما يلاحق به نفسه ..

انها لخديعة ، انه يمارس لعبة المسكنة ليكسبهم الى صفه ، ليعطفوا عليه ..

وكان عليه أن يكسب تماسكه ، أن يحقق شيئا في هربه اليهم ، ولذا كانت غايته من عرض المجريات ان يضعهم جميعا امام امتحانه ، وان يهز الثقة الزائفة التي تملأ أصواتهم :

« يبدو لي أن القاضي العادل يجدر به أن يساوي محكومه في التجربة .. أيها الناس هل انتم واثقون أنكم لو خضتم تجربتي وعانيتم عذابي ، وضعفي ، .. وقوتي ، لكنتم مؤهلين للخروج من كل ذلك بالبطولة».

« الفرق أنكم حين تخرجون من المسرحية تتركون الابطال والخونة يموتون كل على طريقته ، وكل منكم حين يأوي الى بيته يأخذ الى الحائط نموذجا من بطل يزين به جدار البيت ، وينطوي في اعماقه على خائن يخافه ويحقد عليه .. لهذا فانتم غير جديرين بالحكم علي » .

يقول للنظارة :

« انظروا ، وصفقوا .. وابصقوا .. ذلك هو دوركم ، انما عليكم أن تذكروا أنكم لستم سوى متفرجين غير جديرين .. »

★ ★

« حين واجهت الموت .. حينما خيرت بين الخيانة والموت جاء صوت وهتف في أعماقي : افعلها أيها الغبي ، أليس ظلما أن تكون ميتا في الوقت الذي يمتلىء فيه العالم بالجماهير .. والحشرات .. والنمل .. ، تصور ستموت .. ، وكل هذه المخلوقات ستكون مؤهلة لان تعيش ، لايحاصرها خيار البطولة والخيانة .. »

★ ★

« حين فكرت بالموت .. ، حين خيرت بينه وبين الحياة .. احسست أن الموت أكثر الاشياء ذلة . . ليس ما هو أذل من الموت .. »

« الحياة تعاش مرة واحدة ، فرصة واحدة . . ، لهذا رفضت الموت » .

★ ★

وبقبوله التعاون : الخيانة ، يبدأ حد ثالث .

تختفي العالم الخارجية ، ويبدأ الصراع مع الذات ، تبدأ المواجهة القاسية ..

فقد ألقي القبض على (ب) « الشامخ » . واستجوبهم « هو » مدة خمسة أيام ، متعهدا أن يجعله يعترف ، ويتعاون ــ أي يبـ معهم .

ويبدأ رحلة العذاب ، والقهر

هنا يتخذ الهرب صورة اخرى ، صورة الانقاذ ، فالنموذج ، المثل ، بين يديه .

يعرض عليه الهرب ــ الهرب مرة أخرى ــ على أن يقبله فليس ثمة مكان يهرب اليه . وحين يكتشف الاثنان أنهما كانا ضحية خدعة « خدعة المسدس » ، ينهال «هو» ضربا عليه ، وركلا ، وانتقاما ، لكأنه الحاجز الوحيد الذي وقف في وجهه ليحول بينه وبين التخطي .

صورة الانقاذ هذه تنقلب الى تحد صارخ حين لا ينهار « الشامخ » ، وتسد المنافذ في وجهه ، ينقطع عنه الهواء رغم أنه ــ هو ــ يرجوه الانهيار . ولكن الواضح أن انهياره كان بالنسبة له المبرر الوحيد لكل فعلته ،

وبرهان على أن للانسان طاقة محددة من الاحتمال .. ينهار بعدها

صار هربه البانا ، ووثيقة جديدة يريد انتزاعها رغم تمزقه ، وحبه لنفسه ، وصيامه مثله عن الطعام ، يجب أن ينهار .

وهنا يبدأ حد رابع ..

يبدأ باستعمال كافة الاساليبالتي مورست في تعذيبه ـ هو ـ

ربط الارجل والايدي بشدة

منعه من التبول

صب المياه الغالية على قدميه ،

كل ما يتفتق عنه ذهن الابالسة .

وهو صامد .

كان يعلم أنه خائف ، ومع ذلك يسأله ليتأكد .

لم تعد له ثقة حتى بمشاعره فصار يبحث عنها لدى الآخرين ..

حين ضربه حتى أفقده الوعي كان يرجوه ألا يموت لانه لو مات فليس ثمة مبرر لبقائه ، لا نفسيا ، ولا تصميا . كان يرشوه بقناعاته ..

مامعنى أن تصبح بطلا وانت ميت لاتحس بذلك ؟ وحين تقتحم كل انسانية (ب) « الشامخ » ، ويلوي عوده ، يرجو « هو » ان يقتله ، ويريحه من العذاب ..

زيظل يضغط بيديه على رقبته ، وذاك يتخبط : « اع .. اخ » ، حتى يموت ..

★ ★

تبدأ رحلة الاصواتبيتام الجنس ، وتنتهي بالخنق حين يطلبون ان يحدثهم عن القتيل يقول :

« ليس سهلا الحديث عن ذلك .. »

« تخيلت نفسي مكانه وكان بي من التحدي مايكفي لان أموت بنفس الطريقة الغامضة .. حتى ولو تبولت على نفسي

★ ★

« كنت أقتل نفسي .. صدقني »

★ ★

« كنت أضغط على رقبته ، وكان شيء ما يتقصف في مكان ما من روحي .. »

وهنا الهرب الذي يبلغ به حد التخلص . لا الخلاص ، المطر الذي كان يملأ الشارع لحظة هروبه الاولى معها ، حين تركه .. ، والمطر الذي يغسل روحه وهو يضغط على رقبته ..

★ ★

يستفيد الكاتبفي تكنيك القصة من المسرح، فيخيل لك انك في مسرحية .

كما يستفيد من تكنيك التمثيلية الاذاعية ، فتظن انكتقرأ تمثيلية اذاعية .. ، معالمحافظة على شكل القصة العام في بنائها الدرامي ، وتوترها النفسي ، وتداعياتها .. ولا يهمل جملته الشاعرية المشحونة بالحس والتعبير .

الحـــزن المتفــائل

أديب عـزت

لماذا الحزن ـ خالد الساكت ـ مجموعةشعرية ـ ١٧٦ ص مطبوعات الجمعية العلمية الملكية ـ الاردن ١٩٧٥

« ناظم حكمت » الشاعر التركي العالمي كـان يقـول :

« على الشاعر ان يحاول إبداع القصائد التي تكون كالمراكب ، كالسفن التي تنقل الناس من عتمة الليل إلى شفاف الصبح والأمل والإيمان بالإنسان . »

و « بول إيلوار » الشاعر الفرنسي كان يقـول :

« على الشاعر ان يقف على الحاضر ؛ يستشرف الآتي ، ويمنح الرؤية »

والشاعر العربي الاردني « خالد الساكت » في مجموعته الشعرية الجديدة « لماذا الحزن » ينقل القارىء عبر القصائد بعيداً عن الطقوس الحياتية السائدة ، بعيداً عن مدن الزيف والكراهية والاحقاد وتردي العلاقات الإنسانية إلى عالم جميل آخر ، يمور بالمحبة والصفاء والبراءة والحنان المفقود: يقف على أحزان الحاضر ويبشر بالفرح القادم.

ويحدد الشاعر في مطلع مجموعة هذه ، موقفه الانساني الواضح والشفاف :

« بودي ان اصوغ الكون الحانا
لكل المتعبين
وان يكون الحب عنوانا
لكل مسيرة ، نبضا
تحايا للوداع ، الشوق ، الف ذراع

جنينا طالعا للنور ، بساما

وعبر هذا الموقف المحب للناس ، والرغبة في قول ما هو معهم ، منهم ، واليهم ، تنساب قصائد الشاعر يجمع بينها خيط إنساني بسيط عادي ، ملتزم بالإنسان وقضايا الإنسان والحق والخير والجمال ، دون زعيق ولا خطابية ولا إفتعال . والشاعر هنا في المجموعة يسافر كما يقول :

« فالحفرة تعمق ، والديدان
تنهش تنهش ويموت الانسان
ياأهل الحي أريحوا أنفسكم
فانا في زحمة حيكم ، مذ كنت
مسافر
في وطن الانسان
مع الإنسان . »

ومع أن الاحلام تنتشر من المحيط إلى المحيط ، وأنه : « من ذرة التراب في بيتي القديم إلى أقاصي الظما المحموم .. يمتشق الشر القيم جيوشه الجرارة ، ليحقن الأحلام بالسموم ، ويسحق الطهارة ويبتني قصر الكل ذي شطارة . فان الشاعر لاينسى كل الرفاق الذين شرقوا وغربوا وشردوا ونهبوا .

« رأيت في الاحلام انني فارس
اقل اطفالا يتامى ضالعين
إلى كروم ثرة العيون
.. أشد رحلي . قائداً معارس
حولي من المقاتلين
التائهون والمدهون
والمتعبون
والناشدو يوتوبيا
ومن "هم" مهددون
وكل من تلسعهم عقارب السجون
والسنون
ومن دوائهم ونبضهم
يصب أنهراً في ابحر محرمة
.. وخفقة العين تدور ملحمه
وتمحي من الوجود كل مظلمة
فالغد للاطفال ، والسلام
للدروح
والحياة ملهمه . »

والإنسان في المجموعة يقف ببسالة ورجولة في وجه الليل ، الموت ، الاحزان ، يتجاوز الليل ، يقهر الحزن ، وفي وجه الموت يصمد ، يقاوم ، ولايعرف إنحناءة القهر والإستسلام . ففي قصيدة الحزن جديدا ص «٤٣» يرثي الشاعر والده الراحل ، يتحدث عنه .. عن لحظاته ... حياته قبل الرحيل إلى القرية التي لاعودة منها .. وذلك كما يقول « تأملت حكمت » عن الموت :

« كان حنين ابي لحديث مع جار
لهفة عينيه اليائستين
وا أسفاه
كل القصص العذبه
ذابت في الصوت المخنوق
كم كان يجاهد الا يعلم إنسان

ـ والكل صلاه
الا" تلتقط العينان الخارقتان
من لهف الاوجـه ـ
أن الداء التاخر .. سرطان

وأمام هذا الموقف الإنساني الصامد في وجه الليل والموت يحدث الشاعر والده :

« يامن يثوي في القاع البارد
..مثلك عشت" اعيش" وحيداً
واموت" وحيداً لكني
لن اذرف دمعة
فانا ابن الحب العابر ، والصامد

والشاعر في مجموعته هذه.. يحرص على الاختيار ، على اتخاذ موقف ، فالانسان دون موقف في الحياة شبح إنسان ، ظل إنسان :

« سقراط مات ، والحلاج مات
وسلمت لنا الحياة
دربين مرعبين
فاي" معنى" أن نكون
بين بين ؟

ومهما كانت الصعاب .. وحتى لو كانت كل الابواب منسدّة والكون كل الكون صحراء فان القادم أجمل :

« نادى .. كانت أبوابا منسدّة
واجال الطرف ، رأى كونا صحراء
مـن ايـن ؟
وسار بلا هدف وبدون رجاء
لاتوقف

ضع يدك على قلبك
صـلّ
تعثـر
تجـد الباب

ويختم الشاعر مجموعته بالتأكيد على أن « الحكمه ماانبثقت إلا من جرح مرويطالب القارىء بأن :

إسفح اعط امدد سلّم"
لاتخشى ملام
فالعار" العار
الا تمنح محروماً كلمة
بسمـة
أن النعمة
الا تعرف طعم النقمة .

وكما ذكرت في مطلع هذه المراجعة تتسم المجموعة بالبساطة والشفافية وقاموس كلمات الشاعر مألوف ورقيق ، غير أنه إلى جانب ذلك ثمة في المجموعة بعض الخلل والارتباك واحيانا التعثر في توزيع التفعيلات ولم ينجح الشاعر دائما في الوصول إلى تشكيلات ناضجة وغير متعثرة ، بل وقع احيانا في مايشبه السجع:

« وحنيني ذاك « العبر »
واحة عمري « الصحراء »
حرّق وجهي لهب الشمس « الشمطاء »
ارهف جسدي « الاعياء »
روحي تطلب قطرة « ماء »
ظلاً .. غصناً « أخضر »

كما ان القصيدة بشكل عام في المجموعة تفتقد « الموضوع » الواحد فيها . فالموضوع في قصائد المجموعة يظهر بشكل سلسلة من الهواجس والمعايشات .

و .. المهم في هذه المجموعة الشعرية البساطة والموقف ، موقف الشاعر مع الانسان وقضايا الانسان في مرحلة يلجأ فيها الكثير من الشعراء الى الابهام والتمركز في ذاتية مغلقة لاعلاقة لها بما هو عام ، وانساني وشامل .

وبشكل عام فان المجموعة جديرة بالقراءة وتعطي فكرة عن الحركة الشعرية في القطر الاردني عبر صوت « خالد الساكت » الذي يعتبر واحدامن الاصوات الهامة في تلك الحركة .

* * *

وقائع

السينما أداة كشف واكتشاف
حين كانت السينما اثنين يعلمان

صلاح دهني

السينما
اداة كشف واكتشاف

كنت دوما اؤمن بان السينما وسيلة متميزة للثقافة ولاكتساب المعرفة . وهي في مدى إشعاعها ، لاتلمس الآخرين فحسب ، صغاراً وكباراً ، رجالاً ونساء ، من مختلف الملل والنحل والمستويات الفكرية والاجتماعية، بل ان عصاها السحرية تبلغ ان تلمس صانعيها، الواقفين خلف الكاميرات وفي عتمة الاستديوهات .

ليست السينما اداة كشف للآخرين فحسب ؛ عن شؤون الحياة وشجونها ، عن المواقف الدرامية ، عن الزوايا الحادة في مسيرة عمر ، عن الخلجات الخفية والعواطف في استعارها .. هي ايضا اداة استكشاف للسينمائيين انفسهم : استكشاف عوالم ما كانت لتتاح للمرء لولا مهنة السينما .

من خلال عمله على تحقيق الافلام الوثائقية ، يتعرف السينمائي الى جغرافية وطنه بنحو تطبيقي وتدقيقي لايخطران له في بال لدى بداية ممارسته المهنة . يتعرف الى المواقع ، الى الآثار ، الى المنجزات ، الى الناس ، بنحو مدهش . ان السينما تقوده يوما بيوم ، وفيلما بفيلم ، لان يجتاز أرض الوطن بالطول وبالعرض ، وبكل الزوايا الجغرافية . وتقوده مستلزمات التصوير لأن يدقق النظر في كل ثامة ، في كل لحظة ، في

كل تفصيل ، كيما يستكشف ادق اللقطات تعبيرا وأفضل الزوايا اداء . فهو لايرى بعين السائح المستثير فحسب ، بل عليه كذلك واجب النقل والايصال بالصورة الأكمل والأجمل .

فاذا تصدى لتصوير مشروع انشائي ما ، في موقع ما ، كان عليه ان يتعرف عليه بكل دقائقه ، او لتصوير نشاط اجتماعي أو صناعي أو زراعي ، كان عليه ان يتدارس أمره مع المختصين ، ويقرأ عنه ، ويبحث ، حتى يبلغ ان يستشف كنهه ويتفهم روحه ومميزاته ، وما يقال فيه ويروى ، وما يغفل ويهمل . وانني لأعرف زميلاً يقع عليه ان يصور سد الفرات العظيم في فيلم ، بات يبدو في نظري كأحد اختصاصييه ، وهو يحدثك بإحاطية ورشاد عن عمليات التجريف ، ومستوى المياه ، والمخزون ، والتصريف ، والتوليد ، والعنفات ، وما اليها من تعابير غريبة عن فهمك وعلمك وأعرف من تجربتي أنني حين صورت فيلما عن « الاثار العربية في سورية » لم يقدني الفيلم الى ان أجوب مناطق من سورية لم أكن احلم يوما ببلوغها فحسب ، بل قادني ايضا لان اقرا وادرس اكثر من مرجع عن هذه الآثار ، قبل ان أتصدى لعمل الفيلم . وكذا فإني قبل أن تدور الكاميرا لتصوير فيلم لي عن « الزجاج في سورية في اربعين قرنا » ، كنت قد زرت كل المتاحف الخاصة والعامة التي تضم قطع الزجاج القديم وزرت معامل الزجاج الحديث ومشاغل الحرفيين ، والتهمت كل الدراسات والكتب التي وقعت عليها في مادة الزجاج بمعرفة وبتوجيه من ذوي الاختصاص .

اما اذا تصدى السينمائي لصنع أفلام روائية مستمدة من حياة الناس ، فمهمته لاريب اخطر ومسؤوليته اكبر . انك يمكن أن تكون مستمعا جيدا للموسيقا أو قارئا جيداً للرواية ، او مشاهداً اريبا للسينما او المسرح .. هذا ممكن . اما ان تؤلف الموسيقا او تكتب الرواية او تصنع الفيلم او تقدم المسرحية ، بنحو متميز وبمستوى ملموس من الجودة الفكرية والفنية ، فهذا شيء آخر . إن تذوق الفن شيء ، وصنعه شيء آخر .. الاول عملية شعورية متطورة ، والاخر عملية ابداعية . وفي سبيل أن يكون المرء قادرا على الابداع فلا بد له من ان يكون في الاصل مشحونا بالطاقة التي تؤهله للقيام بعملية الابداع .

إن العملية الابداعية لاتتأتى بالاحتراف وحده . لامعدى للسينمائي لكي يبدع في العمل الروائي من أن يحيط بالحدث الذي يتصدى لتصويره من جميع نواحيه ومعانيه ، لابد له من أن يقاربه من الزاوية المثلى الاكثر مقدرة على التعبير وعلى الجهر بالمقصد المرغوب . وهو في سبيل ان يبلغ هذا المرام ، بكل مايتطلبه من حنكة في القص واقتصاد في الكلام والمشاهد والمواقف ، يجب أن يتحلى

بالمقدرة على الموازنة والمعايرة في كل آن . وهذه الامور يتعلمها السينمائي من فن المصور في لوحته ، ومن موسيقا اللحن ، ومن شعر الشاعر ، ومن حركة الراقص ، ومن كتابة الكاتب ، ويتعلمها من الانسجام اللوني في الطبيعة ، ومن تناغم امواج البحر في اندفاعها وفي انحسارها .. لكنه يتعلمها اكثر من اي مصدر آخر ، من معاشرة الاعمال السينمائية المجيدة ومن انجازات من سبقوه من كبار محققي الافلام وجهابذة السينما .. ويتعلمها اكثر مايتعلمها من معايشة الناس ، وملاحظة تفاصيل الحياة اليومية ، ومن التواصل مع عواطف الآخرين في جيشانها وهمودها ، في مدها وجزرها ، في صدقها وكذبها ، في شططها او تبلدها .

إن السينمائي بحالة دؤوب في الحيط القاري للانسان ، محيطه الخارجي ومحيطه الداخلي على حد سواء . وهو بقدر مايستكشف ويتعرف ويختزن فإنه يهيء الأسباب للعطاء الاولى .

إن السينما تغير شيئا ما في مشاهديها ، لكنها تبدأ اولا بتغيير صانعيها .

اجتياز عتبة النجاح وحسرة العمر

بعد انقطاع دام عدة سنين ، وضعتني مهمة سينمائية جديدة على تماس بسينمائي من رفاق الايام الأولى في سينما القطاع العام . انه مدير التصوير جورج خوري . ولجورج خوري قصة مع السينما تستحق أن تروى .

كان في أواخر الخمسينات ، بغياب شهادة عالية تفتح له الطريق الى وظيفة مأمونة حكومية ، يتكسب من مهنة التصوير الفوتوغرافي . عمل هنا وهناك ، ثم استقل لحسابه بمشغل . وكان المشغل قد بدأ يدر عليه مالاً اوفر من مال الوظيفة حين بدأ يشيع لنباهته ذكرٌ طيبٌ في الناس . وفي الحقيقة كان هو يصور وغيره يصور ، لكن صوره ــ الخبيث ــ كانت ترقص وتغني . انه يملك بغير ريب ، ذاك الشيء الصغير الذي يسمونه موهبة ، إضافة الى الخبرة .

فلما بدأنا العمل السينمائي كدائرة ناشئة في وزارة الثقافة الناشئة في أوائل عام ١٩٦٠ ، وجئنا بخبير اجنبي في التصوير السينمائي ، كان عليّ ان اختار شاباً سورياً يقبل بالعمل كمساعد مع الخبير ، ويملك معلومات اولية على الاقل في مهنة التصوير لعله يستوعب العمل ، ولعله ــ اذا كان على قدر من الذكاء والحنكة ــ أن يلتقط منه اصول المهنة .. وذلك في انتظار أن توفد البعوث الى الخارج ، ثم تعود البعوث من الخارج بعد اربع او خمس سنين ...

كان من الواضح امام جورج خوري حين انضم الى دائرتنا ، أن العمل السينمائي في بدايته ، وأن مكسبه منه لن يتجاوز جزء

الجزء مما بدأ يدره عليه مشغله الصغير الآخذ بالتوسع والازدهار ، وأنه انما يطلق "عملا" ثابتاً مستقلاً" ، ويستبدل به عملاً" قلقا ، وظيفيا ، مقيداً ، لاتؤهله لأن يتقدم في مراقيه شهادة ، ولادعم من جهة ؛ ولا ظهر ، ولا مايحزنون .

واقدم الشاب المأفون بمحبة السينما على إغلاق « المحل » ، واستجاب لكلماتي المجنونة والمعسولة عن السينما ، وجاء لينضم الى « دائرة ! السينما ! » العظيمة ، التي كان اعضاؤها فقط لاغير انا وزميل آخر (تركنا بعد شهور لقدر آخر وطريق آخر) ، مع « خبير » في الاخراج جاء بعده « خبير » في التصوير ، والاثنان من يوغسلافيا (التي كانت على صلة حميمة بعهد الوحدة) .

انضم الينا اذن جورج خوري وتتها براتب أعلاه وقدره مئتان وخمسون ليرة سورية ، وترك المئات التي كان قد بدأ يدرها المحل . واذا كنت قد فرحت به يومها متمرنا واعداً ، لكن غرا ، في فن السينما ، فقدكنت في أعماقي ، في زاوية منزوايا ضميري ، أؤاخذ نفسي في أوقات على مافعلت .. وفي اوقات اخرى كانت ثقتي العظيمة بأن فن السينما في بلدي لابد له من النماء والتوسع والتقدم في السنين المقبلة ، تهدهد قلقي على مستقبله وتسكن فورة الالم في ذاتي .

واني لاحمد الظروف التي ساعدتنا من بعد على السير بالسينما في بلدنا من العدم المطلق تقريبا الى الوجود ، ومن الخمول الى التطور والحركة ، واحمد الذين ساعدونا من اداريين وقانونيين ، وأشيد بكفاح السينمائيين القدامى .. وحين ألقي الآن نظرة الى وراء ، ارى على بعد الشقة ، مسافة الرحلة وطول الطريق .

ارى في جملة ما ارى ، أن « خبير » التصوير اليوغسلافي الذي جئنا به وقتها ، بات في يومنا هذا اسما كبيراً في عالم التصوير السينمائي ، لافي بلده وحده ، بل في أوربا كلها . حتى ان يوغسلافيا حين قررت تنفيذ فيلم عن بطل استقلالها وقائدها « تيتو » استدعت لتصويره « خبيرنا » السابق « توميسلاف بينتر » .

وارى في جملة ما ارى ، شابنا الغر الذي تتلمذ على يديه شهورا معدودات فحسب ، قد « سطا » منه على قدر من المعلومات والارشادات تكاد لاتتوفر إلا في معهد او كلية متخصصة .. عبها بقوة وبسرعة كاسفنجة بحرية .

وكما هو شان معلمه ، فإن جورج خوري اليوم اسم ذو بال في السينما السورية الجديدة . وقد حقق الكثير الكثير .. وراءه اليوم عشرات الافلام الطويلة والقصيرة ، الملونة وغير الملونة . والسينما تدرعليه اليوم-

ضمن امكانات بلد كبلدنا ـ مالا طيبا ، يربحه بعرقه وجهده في القطاعين العام والخاص ..

مع ذلك ..

مع ذلك ، او رغم ذلك ، وهنا بيت القصيد ، نجد الفنان برما بالحياة ، متأففا من ظروف العمل ، تتآكل الحسرة قلبه ، لا من بكاء على ما فات ، لكن من اشفاق على ما لا يأتي

إن مشكلة الفنان ليست في مبلغ ما جمع من وراء فنه ، بل في نوعية هذا الفن الذي حققه . وهو قد يعمل بنحو كثيف ويجمع من وراء ذلك مالاً وفيراً ؛ لكنه يظل برما متأففا اذا هو أحس في أعماقه بانه إنما كان يهدر جهده في الزائل من المتاع التجاري ، لا في الأزلي من الانجاز الفني .

وهذا شأن جورج وغير جورج من فنانينا الذين تقودهم ظروف الحياة وظروف السينما عندنا لان يهدروا الكثير والعزيز من وقتهم وفنهم فيما لا طائل وراءه .. في الزائل وليس في الازلي .

حين كانت السينما اثنين يحلمان

جمعتنا اذن مهمة جديدة . حملتنا السيارة الى الساحل من جنوبه الى شماله ، ثم الى حلب ، فحماه ، فحمص ، فعودة الى دمشق .

على طول الطريق التي كثيرا ما اجتزناها معا ، كان سيل الذكريات يتدفق ، وحبلها يتصل .. ذكريات البدايات قبل خمسة عشر عاما .

أتذكر الطفل احمد الذي عثرنا عليه في الحارات الضيقة الصغيرة المتراكبة (الميني ، تقول اليوم ..) من جزيرة ارواد وجعلنا منه بطلا لفيلم « الشاهد الوحيد » !

أتذكر حين قادتنا ظروف العمل في فيلم « الوان من الجمال » لان نستكشف مجاهل جبال العلويين ، ظنا منا انها حقا مجاهل لنجد فيها الحياة « على الطبيعة » .. فاذا المدنية قد سبقتنا اليها ، واذا التقدم في المأكل والملبس والمسكن قد فاق اكثر تصوراتنا ايجابية .

أتذكر موقع « القسطل » فيما بين اللاذقية وحلب ، المعلق في الجبال المشجرة ، حيث تخر المياه وتتدفق من كل صوب ، ايام كنا نصور فيلم « سائق الشاحنة » ، اول الافلام الروائية في القطاع العام ..

أتذكر حين قدم لنا الفلاحون في سفح الجبال الشاهقة المطلة على سهل الغاب ذاك الـ « شنكليش » العجيب الذي لا تضاهيه افخر اصناف الروكفور الفرنسي ، ايام كنا نصور اول افلامنا الوثائقية في دائرة السينما .

على طول الطريق كانت الذكريات تنبعث وتستيقظ ، وتنهض حية متجددة .

كنت اتذكر ، وكان هو يتذكر .. كان كل شيء ، كل التفاتة ، كل تفصيل ، يعيد ببساطة وعفوية ذكرى الايام الاولى ، حين كنا ، انا وهو وحدنا ، في وزارة الثقافة ، السينما السورية .

عمر ابن ارواد يسجل عمر السينما

حدثني جورج في جملة ما حدث عن الطفل احمد ، ابن ارواد ، الذي ساعدنا على اعادة تشكيل التاريخ المجيد والعريق لجزيرته .

« بعد ست سنوات من تصوير فيلم « الشاهد الوحيد » – يروي جورج – كنت أصور مع المخرج « بوشكو » فيلم « سائق الشاحنة » في اللاذقية . وفي ذات يوم ، خلال حركة التصوير وزحمته ، رأينا فتى مراهقا يتقدم منا . قال : أتذكرونني ؟ قلنا : لا ! قال : كيف ؟ انا احمد من ارواد .

« سلمت عليه بحرارة ورحبت به عند ذاك . اصبح الطفل السابق فتى يافعا متين البنية . ناديت على بوشكو الذي كنت اتفاهم معه بالفرنسية .. فاخذ احمد بين ذراعيه ، وقبله وهو يغمغم ويهمهم باللغة العربية ، وأمر له بكرسي ، وأغدق عليه من محبته وعطفه الشيء الكثير . وفي المساء غادرنا أحمد وقد أفعم وأفعم قلوبنا حنانا » .

ويمضي جورج قائلا :

« بعد سنوات قليلة أخرى كنت أصور في طرطوس مع خالد حماده كمخرج ، فيلم « السكين » . وخلال التصوير وتجمع الناس من حولنا ، رأيت شابا في البزة العسكرية يشق طريقه ويتقدم مني .

– استاذ جورج ، أليس كذلك ؟

« لم أعرفه للوهلة الاولى . وحين عرفني على نفسه ، رأيتني اترك الكاميرا واشد على يده بقوة ومحبة . مرة أخرى كان ذاك أحمد الذي عرفتني به السينما طفلا ، ثم يافعا ، ثم هو ذا امامي الآن شابا مكتملا يقوم بواجب الخدمة العسكرية .

أليست تلك حكاية غريبة ومصادفة [illegible]

سينما الشهادة كحافز ومحرض

مرة أخرى تتهيأ السينما لكي تروي قصة المهدي بن بركة ، زعيم المعارضة المغربية الذي اختفى قبل نيف وعشر سنوات .

وهذه المرة ينطلق الفيلم من كتاب أصدره عضو مؤسس في « لجنة اظهار الحقيقة حول قضية بن بركة » يدعى دانييل غيران ، وعنوان الكتاب « قتلة بن بركة » .

كان الزعيم المغربي منفيا في باريس حين اختطف في قلب العاصمة الفرنسية ، أيام حكم الجنرال ديغول ، من قبل اثنين مع

رجال الشرطة ، وعميل مزدوج في مصلحة التجسس ، ومرتزق يعمل لحساب ما لم يتبين الى يومنا هذا اية جهة .

ان الموت وحده لم يعد موضع شك ، الا أن الجثمان ظل غائبا لا يقع له احد على اثر . وظلت في ضمير الغيب كذلك الوسيلة والغاية من هذه الدراما الجديرة بشكسبير، والتي تشكل احدى علامات العصر .

ومهما كانت دوافع الجريمة ، ومهما كانت المصالح التي تدور حولها ، فان عمليات التحضير والتنفيذ لهذه الجريمة السياسية ظلت ، ولامد طويل ، تستثير الاذهان حول ماهية اللقاء الغريب الذي يصل احيانا بين اولئك الذين يحترفون مهنة الدفاع عن القانون واولئك الآخرين الذين يحترفون مهنة خرقه .

وعقد الاشكال سكوت جميع الجهات، في مختلف مراحل الاجراءات القضائية ، عن قول الحقيقة : من مرحلة التحقيق الكاذبة، الى الاخباريات الخادعة ، الى نص الدعوى الخاتل ، الى المحاكمة المزيفة .. كان كل من تلك العوائق بمثابة قفل اضافي يوضع على باب الحقيقة ، ولم يمكن الى اليوم ايجاد المفتاح لهذا الباب الرهيب .

الامر الذي جعل مؤلف الكتاب ، بعد عشر سنوات من التحقيقات الشخصية المضادة يكتب في فاتحة كتابه : « حتى الآن ، ما زلنا نجهل أين وكيف وبيد من ، مات المهدي بن بركة » . وأمام ارتطامه المستمر بالباب المغلق على الحقيقة المرعبة ، يقول المؤلف الذي استحال الى شرطي سري ، عن طبيعة المأساة ذاتها : « ان كل ما أمكن روايته لا يمكن التحقق منه . لذا فانني أجرب أن اتخيل ».

ومن حسن حظ السينمائي الذي سيحقق الفيلم المقبل عن بن بركة ان مخيلة الكاتب خصبة ، خصوصا لانها يغذيها هوى سياسي جارف واعجاب عظيم بالمناضل الذي كان . وهو لا يستبعد أن يكون القاتل عميلا للاجهزة الفرنسية ، او الاسرائيلية ، او الامريكية ، او لعله ينتسب الى اكثر من جهاز من بينها؛ اما عن ادلته على ذلك ، فيقول : « لكن ذلك يالضبط هو الفن الرفيع الذي تمتلكه بعض الاجهزة السرية التي تعمل دون أن تخلف آثاراً » .

ان فضل هذا النوع من الكتب وهذا الضرب من الافلام ، وقد شارف مرور الزمن ان يهيل التراب على القضية ، هو أن يحولا دون أن يقتل النسيان بن بركة مرة ثانية .

على هامش عام المرأة الدولي

د. عـزة مريدن

جاء في احد الاساطير الهندية ، ان الله تعالى حينما خلق الرجل ، أسكنه الجنة يتمتع بخيراتها وثمارها وانهارها ، ولكنه حينما وجد نفسه وحيدا ، مل الاقامة في الجنة فسأل ربه ان يمن عليه بشريك لحياته ، فأخذ الله قطعة من ضلعه الايسر ، وخلق منها المرأة ، فأنس بها وسكن اليها ، ولكنه مالبث ان رأى فيها كثيرا من المتناقضات ، لمس فيها نعومة الراغب وقساوة الماس ، وذاق منها حلاوة العسل مرارة الصبر ، ورآها رقيقة كالنسيم العليل ، متقلبة كالريح العاصفة ، وكانت له أسلس انقيادمن الماء ، ولكنها عنيدة عناد الحجر الاصم ، في بعض الاحيان ، تمل المرأة وتمنى الخلاص منها ، وحينما كانت تغيب عنه لبعض حاجتها ، كان يشعر بالضيق والوحشة ، فتحتم في قلبه ومايزال يتحتم الى الابد ، وبلاء ، لا يطيب لي العيش معها ، ولا احلو لي العيش بدونها .

ولعل واضع هذه الاسطورة ، كان يريد ان يقول : إن المثالية التي يريدها الرجل في المرأة ، مطلب بعيد المنال ، كالمثالية التي تريدها المرأة في الرجل ، ولكن هذا لا يمنع الرجل ، وهو الذي يسعى لطلب المرأة منذ قديم الزمان ، أن يحسن تخيرها ، بحيث تجيء اقرب شيء الى ما يجب ان تكون عليه .

يروى ان خالد بن صفوان ، قال لاحد اصدقائه ، حيثما سأله من سبب تأخره في الزواج : أريد زوجة ذات عقل وافر ، وخلق طاهر ، وجمال ظاهر ، كريمة المحتد ، شريفة المولد ، رخيمة الصوت ، والمنطق ، لاالطول

أزرى بها ولا القصر ، فقال له صديقه : إسأل الله أن يفتح لك أبواب الجنة ، فلعلك تجدها بين الحوريات؛ على أن حسن التخيُّر، يجب أن يتناول بالدرجة الاولى ، صحة الجسم والنفس ، مقرونة بصفات خَلقية وخُلقية ، لابد من توافرها اذا اريد أن تكون الأجيال الآتية قريبة من المثالية . أما اذا كان التخير مستندا الى اعتبارات لا صلة لها بالقوانين الوضعية والوراثية فقد يؤدي الى غير النتيجة المطلوبة ، والامثلة على ذلك عديدة ، لعل أوضحها أن رجلا دميما مفرطا في الطول قال في سره ، لو تزوجت من امرأة قصيرة وجميلة ، فان أولادي سيرثون طولي وجمال أمهم ، وقد فعل ، وتخيرها قصيرة جميلة ، ولكن قواعد الوراثة لا تتفق دوما مع الرغبات ، بل تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، فجاء أولاده قصارا كأمهم ودميمين مثلـه .

ولقد درج كثير من الناس في الزواج ، على اغماض العين عن كل ما تجب ملاحظته في الزوجين ، الى البحث عن حالة الزوج أو الزوجة المالية ، وعن مركزها في الاسرة والمجتمع ، وفي هذا ما فيه من ضرر قريب أو بعيد ، على الاسرة نفسها وعلى الأمة كافة ، يقول العلامة (شارل ريشه) «لايجوز ان يكون الزواج حقا من حقوق الفرد وحده ، بل يكون حقا تكسبه الجماعة للفرد ، وقد جاء في الحديث المأثور : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس ، إياكم وخضراء الدمن ، وهي المرأة الحسناء في منبت السوء» ولايجوز أن يكون هذا التخير عفويا غير مرتبط بنظام أو قاعدة، بل لابد فيه من اتباع شروط موضوعة ، يقوم الطبيب على جزء غير قليل ، من تنظيمها وتطبيقها ، إذ لا يكفي أن يقبل الخاطب او المخطوبة أو ذووهما ، بل لابد من قبول الطبيب أيضا ، حتى اذا قال لا ، فلا يصح عقد الزواج أبدا ، فهو يبحث في الحاضر والماضي ، وما يمكن أن يكون عليه المستقبل ، حتى يطمئن الى سلامة الزوجين من العاهات والامراض المختلفة ، المكتسبة أو الوراثية ، وقد يحتاج حين الشك ، الى فحوص مخبرية وشعاعية ، وقد أصبح الفحص الطبي ، قبل عقد الزواج ، فرضا محتوما ، وبه نجنب الزوجين ونسلهما ، العلل والامراض ، وانه لمن المؤسف حقا ، ان يتغاضى بعض الاطباء ، عن اجراء الفحص الدقيق ، أو يتساهل في اعطاء الشهادة الطبية ، بعد فحص سطحي ، أو من غير فحص احيانا ، وهذا لعمري أبشع تحطيم لجلال الشرف الطبي ، وهو في الوقت نفسه ، خيانة للمبدأ الانساني ، وتهديم مروع لأركان الأسرة والمجتمع ، وكم وقفنا نحن الاطباء ، على خاطب مسلول أو خاطبة موبوءة ، فمنعنا زواجهما قبل الشفاء مما هما فيه ، وكم كشف الفحص المخبري عن

اصابات شديدة بامراض سارية ، ولن يكون شان ابناء هؤلاء الازواج ، اذا تم التزاوج والانجاب ، مستندا الى الحب والهوى وحدهما ، إلا أن ينطبق عليهم القول المأثور : الآباء ياكلون الحصرم ، والأبناء يضرسون . ومن المؤسف أيضا ان يجد بعض الناس غضاضة في مثل هذا الفحص الطبي ، ومنهم من يعتبره اهانة للخاطب او الخاطبة ، وقد وقفنا خلال فحوص اجريت على اسر معروفة بمكانتها ، على امراض سارية ، لم تكن نتوقع وجودها لولا الفحص الطبي الدقيق ، الذي نستقرى به الماضي البعيد ، من الجدود وأجداد الجدود ، سواء أكان ذلك من جهة الخاطب او من جهة المخطوبة ، لنقف على ما يمكن أن يكون فيهم من امراض اسرية او وراثية كما نستقرىء فيهما تاريخ حياتهما منذ الطفولة حتى المراهقة والصبا والشباب.

ويجب أن ينصح الطبيب بعدم الزواج من القريبات ، لان عيوب الاسرة وامراضها واضطرابات اخلاطها تشتد بمثل هذا التزاوج ، وفي الحديث المأثور : اغتربوا لا تضووا ، اي تزوجوا بالغريبات لئلا يأتي ولدكم ضاويا هزيلا ، ومن الثابت ان قرابة الدم ، تعمل على تضخيم عيوب الام وامراضها الموروثة ، اكثر من عيوب الاب وامراضه ، لذلك كان السعي الى تخير الزوجة واجبا محتوما ، ومرد ذلك الى ما تحمله بيضة الام من مورثات ، والى ما يكتسبه الجنين منها وهو في بطنها خلال تسعة شهور ، من دمها واخلاطها ، والى ما يتبع ذلك من اضطرابات المرأة المستمرة ، خلال أيام الحمل ، وأخيرا الى تغذية طفلها بلبنها بعد الولادة .

واكثرنا يعرف بعض الأسر ، التي تقصر زواج بناتها ، على شباب الاسرة نفسها ، من ابناء العمومة والخؤولة ، الا نرى الهزل والضوى ، ونقص المقاومة والدفاع ، وكثيرا من العلل والامراض ، تنخر في اجسام أكثر افراد هذه الاسر ، ولقد دلت الاحصاءات الدقيقة ، على أن عشرة بالمائة من الصم البكم ، وخمسة بالمائة من العميان ، وخمسة عشر بالمائة من البلهاء ، كانوا ثمرة الزواج بالقريبات ، وقد أحصيت عاهات التزاوج بين الاقرباء في (٧٥٧) زواجا في الولايات المتحدة ، فكان منها (٢٥٦) من الصم والبكم والبلهاء والعميان ، وتمنع قوانين كثير من البلاد مثل هذا التزاوج ، تحت طائلة العقوبة كما يقال ، واذا أضيف الى عاهات القرابة الدموية وجود امراض موروثة ، فهناك الحاضر المؤلم ، والمستقبل المظلم ، اذ أن الوراثة تنقل الامراض نفسها أو تنقل لاستعداد لها ؛ وتستطيع الاسرة الوارثة لبعض الامراض ، ان تتخلص من عللها الموروثة ، وأن تصلح ما فسد فيهم ، اذا هي عمدت الى الزواج بالغريبات من أصحاب البنية الحسنة والصحة الجيدة ، حتى اذا مرت أنسال ثلاثة ، اختفت او كادت ، تلك الامراض العيلية

المرضية ، وليست الاسر التي تتبع أسلوب التزاوج بين الاقارب بقليلة ، وأسرة معروفة في دمشق ، لا يتزوج شبابها الا من فتيات الاسرة نفسها ، فاذا أولادهم هزيلون ضعفاء، تقل فيهم مقاومة الامراض ، وتكاد تنعدم وسائل الدفاع ، وقد انفرد من هذه الاسرة ، عالم ولغوي كبير ، تزوج بغريبة عن الاسرة ، نجاء أولاده ، رحمه الله ، على جانب أفضل من الصحة الحسنة ، أما أحفاده فمثاليون في الجمال والصحة والذكاء .

ويروى ان أبا الاسود الدؤلي ، قال يوما لبنيه : لقد احسنت اليكم صغارا وقبل ان تولدوا ، قالوا كيف أحسنت الينا قبل ان نولد ، قال اخترت لكم اما صالحة ، ذات خلق طاهر ، وجمال ظاهر ، وعقل وافر ، ولسان فصيح ، وقول صريح ، وجسم صحيح .

ولعل هذه الصورة ، هي التي أوحت الى بعض الامم ، بضرورة تعقيم المجانين والمجرمين والمدمنين على المسكرات ، أو المصابين بضعف العقل والامراض المزمنة التي لا يرجى شفاؤها ، وأكبر المنادين بهذا هو العالم الانساني الكبير (آدولف لورنتز)وذلك كما يقول : في سبيل خير الامم والبشرية جمعاء .

ولقد نشرت في العام الفائت ، عام المرأة الدولي ، آراء وأحاديث كثيرة ، يجمع فيها الباحثون ، على أن المرأة تتحمل قسطا كبيرا في حياة أمتها ، لذلك كان لا بد أن تتوافر فيها صفات خَلقية وخُلقية ، منذ نشأتها صغيرة ، حتى البلوغ ، ومنذ مشاركتها الرجل في معظم أعماله ، حتى الزواج والحمل والوضع والارضاع ، والقيام على تربية أطفالها ، تربية سليمة صحيحة ، الى أن يكبروا ويجابهوا صعوبات الحياة ، ولذلك كان علينا ان نوليها من جميل الرعاية وحسن العناية ، ما يكفل لها أداء مهمتها على الوجه الاكمل ، فهي قطب الرحى طفلة تجب احاطتها باسباب الرعاية والعناية ؛ وفتاةلوجه الوجهة المثلى ، لتكون فيصباها مثال الانثى الصالحة، القدمة على القيام بدور أساسي في الحياة ؛ زوجة وحاملا وأما مرضعة ومربية مثالية ، تستجيب في كل أعمالها وتصرفاتها ، لداعي العقل والخير والانسانية ، ولعل أهم دور تحتله في هذه الحياة ، هو واجب الامومة ، الذي يتجلى بأوفر نصيب من الحب والعطف والحنان ، فلا شيء يعادل قلب الام وحبها وعطفها وحنانها وتحضرني في هذه المناسبة ، قصة تينك المرأتين ، اللتين جاءتا الى سليمان الحكيم ، ومعهما طفل تدعي كل واحدة منهما أنه ولدها ، ولما اشتد الجدال والاصرار ، دعا سليمان باثنين من رجاله الاشداء ، وقال للمرأتين ، سوف يمسك كل واحد منهما بساق ، ويقسمان الطفل بينكما ، وتأخذ كل واحدة نصفه ، فاذا بالام الحقيقية ، تصعق

من هول ما سمعت ، فتصرخ من صميمها ؛ بالله عليك لا تفعل ، انه ولدها أعطها اياه ، فقال سليمان الحكيم لا والله ابتها المرأة الصالحة ، انه ولدك رانت امه واعطاها اياه ؛ ولقد جاء في قوانين الفلسفة الافريقية: ان المرأة الحامل اذا مرت بجمع من الرجال قعود ، أو نفر من الفرسان ، يقف الرجال ، ويترجل الفرسان ، احتراما لها ولمن تحمله في بطنها ، فقد يجوز ان يصبح هذا الجنين ذات يوم ، شيئا عظيما في حياته .

وحينما اطلقت كلمة الجنس اللطيف على المرأة، لم يكن هذا الاطلاق اعتباطا ، او مجرد مداعبة او اكرام وانما استند هذا الوصف الى طبيعة خلقها وتكوينها، ولاسيما في مجموعها العصبي، فهي شديدة الاحساس رقيقة الشعور ، تثار بأبسط الاسباب ؛ ولذلك فهي لاتصلح للطعن والنزال ، وان كان كثيرات من النساء يقمن بها اليوم ، مثلما هي تصلح للتمريض والمواساة وتربية الاطفال ، وهن سريعات الحزن والعطب، ولا قبّل لاعصابهن الحساسة، باحتمال الشدائد والآلام ، ولو احصينا مرضانا نحن الاطباء ، لوجدنا ان أكثر من ٦٠ بالمائة من الجنس اللطيف ، فاذا كان هذا حال المرأة في حياتها العادية ، فماذا عساه ان يكون حالها، حينما تتعرض للحوادث المختلفة ، اللاصقة بأنوثتها والمتعلقة بها أولا ثم بمن يحيط بها ؛ ان هذا الجنس اللطيف ، هذه القارورة الناعمة الحساسة ، تتعرض

في حياتها الى العديد من المشكلات ، فلقد خلقها الله لحفظ الجنس والنوع ، ولولاها لما تكاثر البشر ، ولا وجدت حياة على الارض، فما هي هذه المشكلات ؟

قلت ، يجب على الرجل أن يحسن التخير قبل الزواج ، فاذا تم هذا على وجه صحيح مقبول ، وتآلف قلبان في حياة زوجية سعيدة، فان المنغصات لا تلبث في بعض الاحيان ، أن تمد ذوائبها ، وتفعل فعلها ، في تعكير صفو السعادة الزوجية ، منها ــ ولعله أهمها ــ تأخر الانجاب أو انعدامه ، والمرأة قد تكون أكثر حرصا على سرعة الانجاب ، لاعتقادها بأن الولد يدعم الرابطة الزوجية ويقويها ، ولذلك فهي كزوجها يحاول كل منهما ، بوسائل شتى ، معرفة اسباب تأخر الحمل أو العقم مطلقا ، فمن طبيب الى طبيب ، ومن قابلة الى قابلة بلهفة واندفاع ، منعا لما قد يجره العقم أو تأخر الانجاب ، من فصم عرى الرابطة الزوجية ، اذ قد يؤدي ذلك الى الطلاق احيانا ، أو الى تعدد الزوجات ؛ هذا فضلا عن التعاسة المريرة ، التي ترهق حياة الزوجين، مثلما ترهق ذويهما ، فكيف السبيل الى حل هذه المشكلة ؟ يجب أن يتم البحث الاول ، عما اذا كانت أسباب العقم تكمن في الرجل قبل أن تتهم المرأة ، وذلك لسهولة البحث وقدرته على الحكم الأكد ، وتتم معرفة ذلك بتحري النطف ومعرفة وجودها أو فقدانها وضعفها ونشاطها وعددها ، وعلينا نحن الاطباء

حينما تواجهنا هذه المشكلة ، أن نتحرى في سوابق الزواج ما اذا كان قد اصيب في ماضي حياته بمرض الكاف (أبوكعب) أو بالسيلان (حرقة البول) اللذين اختلطا باصابة الخصيتين ، أو بالداء الافرنجي ، أو برض شديد عليهما أحدث التهابا مضاعفا ، ويؤسفني أن أصرح أن الطب عاجز عن ايجاد علاج فعال لهذه الحالات المختلفة ، اذ تكون النسج قد تصلبت ، والاقنية قد ضمرت وانسدت ، وما على الزوج حينئذ الا أن يستسلم للقضاء والقدر ، وأن يزداد حبه لزوجته مع العطف عليها ، وهي التي قد اتهمت بالعقم ظلما ، ولاقت في سبيل ذلك ما لاقت ، من الزوج وذويه ، وعلى الزوج ألا ينحرف مع تيار الجهالة بالطلاق أو بالزواج الثاني وربما الثالث والرابع ، على الرغم من براءة الزوجة ، وتأكيد المخبر والطبيب ، ان اسباب العقم في الزوج لا في الزوجة .

أما اذا دل الفحص المخبري على سلامة الزوج ، وجب التحقيق حينئذ عن الاسباب في المراة ، هذا مع العلم بأن الاحصاءات المختلفة ، كشفت عن حوادث عديدة ، تأخر الانجاب فيها من غير سبب ظاهر ، كما أبانت البحوث العلمية ، أن الحمل يرتبط بظروف عديدة ، تتعلق بالزمن والطقس والمزاج ، وبأسباب كثيرة أخرى ، ورب زواج لم تحمل الزوجة فيه ، إلا بعد عدة سنين ، قد تصل الى العشر او اكثر .

ولعقم المراة أسباب عديدة ، منها الاتفيد فيها المعالجات شيئا ، كالعقم التالي للالتهابات الشديدة التي أدت الى انسداد البوقين ، أو الاصابة السابقة بالتهاب الصفاق الدرني (ألبريطون) ، ومنها ما ينجم عن سوء تشكل خلقي ، كما هي الحال في الطفالة التناسلية ، ومنها بعض انعطافات الرحم الامامية أو الخلفية ، التي قد يمكن اصلاحها بالعمل الجراحي ، ومنها المفرزات الشديدة الحموضة او الشديدة القلوية ، وهذه حالات يمكن معالجتها من قبل الاختصاصيين ، وهناك اسباب هرمونية ، لا تمكن معرفتها الا بعد دراسة مخبرية مفصلة ، لمفرزات المبيضين وطبيعة نسجهما .

ويتبين من جميع هذا : أن الحكم السريع على العقم ، وأين تكمن أسبابه ، أمر على جانب كبير من الخطورة ، ويجب النظر بدقة وامعان ، في جميع الاسباب المذكورة ، في الرجل والمراة ، قبل أن تبرز للوجود حلول مرتجلة ، تهدم الحياة الزوجية .

وهنا لابد من التنويه بالاصوات العالية ، التي ترتفع اليوم في كل مكان من الارض ، بعد أن تزايد عدد السكان ، بشكل بات يهدد البشر بالمجاعات والحروب ، فقد تنبأ علماء الاحصاء ، بأن عام الالفين ، لن يحل الا وقد أصبح عدد سكان الارض ٧ مليارات ، وانه لن يمر خمسون عاما بعد ذلك ، حتى يصبح

العدد ١٥ مليارا ، وهذا هو التحذير الذي يعلنه العلماء ، والذي حملت رايته شركة (ماك كينزه) العالمية، وهي من أعظم الشركات الادارية والاحصائية في العالم ، وتضم أكابر العلماء والمفكرين وأساطين المهندسين والاداريين ، وقد نشرت مؤخرا كتابا فيه كل الخوف والتحذير ، وهي على حق في ذلك والواقع اننا نعيش اليوم ، حياة الخوف والقلق والاضطراب ، من مآس لا حصر لها ، ينخلع لها القلب ، ونقف حيالها مشدوهين ، لا نقوى على محوها أو تعديلها ، حتى اذا ضج العالم لمقتل الابرياء ، قام حق النقض (الفيتو) وهو الذي فرضته القوة ، فقضى على كل القيم والاعتبارات ، والضحية دائما هو الانسان يقتله الانسان ، يضاف الى ذلك تزايد واضح في عدد السكان ، نقص في الغذاء، شح في الماء ، تضخم نقدي وغلاء فاحش في كل مكان ، حروب ساخنة وباردة ، فضلا عما في عالم اليوم من مشكلات وتناقضات ، جوع وتخمة قصور وأكواخ ، ثورات متلاحقة في كل مكان ، انصراف عن الزراعة الى الصناعة، مع ما يتبع ذلك من تلوث الاجواء والانهار والبحار ، وما يؤدي ذلك اليه ، من اضرار كثيرة مختلفة ، تسابق في ابتكار آلات الحرب والتدمير ، خطف الابرياء ، من الاطفال والفتيات والشباب قتل سادي الطبيعة ، تمثيل وتشويه واجهاز واحراق وتدمير ، اختطاف طائرات وقاطرات ، لاغراض تتصل بشريعة الغاب أو لقاء أموال وفديات ، تمييز عنصري ، سيطرة القوة على الحق ، والى غير ذلك من المشكلات والمفارقات العجيبة الكثيرة، التي نعيشها ، نحسها ونلمسها ونشمئز منها، ونرفضها سرا وعلانية أو نرضى بها كارهين ، كل ذلك أثار في نفوس العاملين المخلصين ، كوامن البحث عن الوسيلة ، وكان من بينها ولعله أكثرها أهمية ، ضرورة الحد من تزويد العالم بابناء لا يعلم إلا الله ، ماذا سيكون مصيرهم الغامض المجهول ؛ في مستقبل الايام، التي اصبح القول الفصل فيها للذرة والقوة والسيطرة على العالم ، وابتكرت في سبيل ذلك حلول عديدة ، منها الحبوب المانعة للحمل ، التي تبين بعض اضرارها ، ومنها الاجهاض الطبي الصريح ، الذي أصبح مسموحا به في بعض الامم ، ولو كان لمجرد عدم الرغبة في الانجاب ، أو لأسباب اجتماعية أو اقتصادية أو مرضية ناجمة عن حالة صحية سابقة أو طارئة ، فأما الاصابة بمرض قلبي ، والتي كانت تكون من أهم أسباب الاجهاض الطبي ، بل كنا نمنع المقلوبة (المصابة بمرض قلبي) من الزواج والحمل مطلقا ، فقد اعتدل هذا الراي ، بعد أن تبين أن الخالق عز وجل ، أودع في ولادة المقلوبة، اليسر والسهولة ، حيث ينقص كثيرا زمن مخاضها ، وتلد بيسر وسرعة وسهولة ، إلا إذا كانت مصابة بالتورم أو بمرض كلوي أو انتاني وأما الاجهاض المحرض ، فقد تضاءل

الأخذ به للخلاص من الحمل ، وذلك لما يفضي اليه من نزوف وانتانات ومضاعفات ، على اننا كثيرا ما رأينا وسمعنا ، أن بعضهن تناولن السم الناقع ، ولم يحدث فيهن الاجهاض ، ومنهن من أدت لديهن أسباب بسيطة تافهة الى الاجهاض ، على أن اللجوء الى استعمال الادوية التي تتداولها الالسنة العامة ، والتي يكون معظمها ساما ، أمر على جانب من الخطورة ، لأنه قلما يسلم بدن الحامل من اذاها ، فأحرى بجنينها اللطيف الضعيف ، ان تتأثر بها اجهزته واعضاؤه ، حتى اذا أتم الحمل شهوره ، على الرغم من ذلك ، جاء المولود هزيلا مستعدا للاصابة بأمراض شتى وبالموت الباكر ، ولئن أصابت بعض هذه الادوية ، الغاية التي ترجوها انانية المرأة ، فهي في كل حال ، قتل سريع ، واذا كان الحمل في نظر بعض الانانيات من النساء، أو بعض الانانيين من الرجال ، مشكلة تجب معالجتها ، فان محاولة الاجهاض ، تسجل على صفحة المشكلات ، ما هو أكثر تعقيدا واصعب حلا ، ويكفي أن تعلم ، ان مشكلة المولود المريض أو المعاق ، تعد بحق اقسى على الاهل والامة ، من المشكلات الاخرى ، بل يجب أن تعلم ، أن الجنين ليس ملكا لابويه وحدهما ، يتصرفان به كيفما يشاءان ، بل تشترك الامة به أيضا ، تحافظ عليه وترعاه ، ومن ذا الذي يستطيع أن يعلم ، ما عساه سيصبح هذا المخلوق المسكين ، في مستقبل الايام ، ونحن نستغل ضعفه وعجزه، فنسطو عليه بالسموم أو الآلات ، وانه لمن العجيب حقا ، الا يطال القانون بعقوباته ، هذه المحاولات التي تظل في الغالب مكتومة ، اما الاطباء والصيادلة ، والويل كل الويل للحانثين منهم بالايمان ، فقد اقسموا حين تسلموا شهاداتهم : الا يجهضوا والا يعطوا دواء مجهضا ولا يعلمونه ولا يدلون عليه ولا يرشدون اليه ومن المفارقات القائمة على هذه الارض ، ان تنادي بعض الامم بضرورة الاجهاض تخفيفا للنسل أو بمنع الحمل بالحبوب التي توزعها على النساء ، وان تغدق امم اخرى بالجوائز والاعطيات ، على الذين ينجبون اكبر عدد من الاطفال ، على انه لا يجوز التصرف في هذه الاحوال ، بطريقة عشوائية ، بل لابد من دراسة واسعة تأخذ في الاعتبار ، أحوال الزوجين المادية والاجتماعية من حيث امكاناتها في حسن القيام بواجباتها نحو أبناء شعبها ، حتى ان بعض الدول ، فكرت بفرض ضريبة على الازواج ، الذين ينجبون أطفالا يعجزون عن القيام على شؤونهم بشكل يحفظ الكرامة الانسانية .

وأما الاجهاض الطارىء ، فقد يكون مجهول السبب ، ولعل التعب المفرط ، والصدمات النفسية ، والتعرض للبرد الشديد، والاصابة بمرض انتاني بسيط أو شديد ، تعتبر أسبابا ممكنة في حدوث هذا الاجهاض ، وهي أسباب قلما ينتبه اليها ، على أن بعض الاسباب

التافهة ـ في المستعمرات ـ قد تحدث الاجهاض من غير سبب ظاهر وتروى في ذلك قصص كثيرة ، منها أن حاملا ذهبت الى خياطتها لقياس ثوبها ، وأرادت الخياطة مداعبتها حينما رأت زيادة حجم بطنها ، فربتت بلطف عليه ، مثلما تربت على كتف الطفل استحسانا وتشجيعا ، وقالت لها : مبروك ؛ هل أنت حامل ، وكان هذا الربت الخفيف سببا في حدوث الاجهاض ، فما ان وصلت الحامل الى بيتها ، حتى كان قد تم النزف والاجهاض ، على الرغم من التعرض للرضوض الكبيرة والصدمات الشديدة ، فقد سقطت حامل من الطابق الثالث ، وأصيبت بكسور واسعة عديدة ، في اطرافها واضلاعها وجمجمتها ، واعترتها غيبوبة ظلت ثلاثة ايام ، ومع ذلك فقد بقيت محتفظة بحملها . ولقضية الاجهاض اهمية كبيرة في مسائل الطب الشرعي ، لان ادعاء الاجهاض ، بسبب الضرب أو الرعب او الصدمات الجسمية أو النفسية ، تؤلف رقما غير قليل ، في عدد الدعاوى في المحاكم المختلفة ، فيجب على الطبيب الشرعي ، حينما يسأل رأيه في ذلك ، أن يبحث عما اذا كان الاجهاض حقيقة ثابتة ، أم هو مجرد ادعاء تدعيه المرأة تشفيا وانتقاما ، ونحمد الله على أن المخابر تستطيع كشف حقيقة الحمل ، مثلما يستطيع الفحص الطبي الدقيق ، أن يتبين علامات الحمل والاجهاض ، وعلى الطبيب أن يتنزه عن الوقوع في اخطاء قد تؤدي لابطال حق أو إحقاق باطل .

على أن الاصل في كل حال ، أن تساعد على تمام الحمل حين حدوثه ، وان ما يمكن اجراؤه من الوسائل المانعة للحمل ، يجب ان يتم قبل وقوع الحمل ، والا فان محاولة الاجهاض في الاشهر الثلاثة الاولى ، تعرض الحامل لنزيف شديد ، وقد تقع فريسة الانتان الخطر ، ولنعلم أخيرا انه لابد من تشريع دولي ، تقوم به منظمة الصحة العالمية يمكن نشره وتعميمه على دول الارض كافة للعمل به ، وذلك بعد دراسات واسعة عميقة ، رائدها النظر البعيد ، الى ما يمكن أن يصيب البشرية جمعاء ، من جراء تزايد عدد السكان على الارض ، والخوف من المجاعات وأخطار الحروب .

أما متى وقع الحمل وانتهى الامر ، فان الواجب يقضي بالمحافظة عليه ، واحاطته بكل رعاية وعناية ، مع ضرورة فحص الحامل في أدوار حملها المختلفة ، اما من قبل الطبيب الذي سيشرف على الولادة ، أو من قابلة خبيرة مخلصة ، ترسل الحامل الى الطبيب ، اذا رأت فيها من الاعراض ما يوجب ذلك .

وللمرأة الحامل خصائص وأعراض ، تتفرد بها عن سواها ، منها الوحام الذي قد يكون بسيطا يقتصر على الغثيان والنعاس واشتهاء بعض الاغذية الخاصة ، ومنها ما يكون شديدا قد يبلغ حد الانسمام الحملي ، ويتطلب توليدا قبل الاوان ، تنتهي به كل الاعراض الجسمية والنفسية ، ومن أهم الخصائص

التي تتصف بها بعض الحاملات ، والتي قد لا ينتبه اليها إلا بالمشاهدة الدقيقة ، صدق الحامل في الحدس والتخمين ، ولاسيما متى كانت على جانب من الثقافة وقوة الفراسة ، اذ قلما تخطىء في حكمها على صحة بعض الحوادث او خطأها ، وتروى في ذلك قصص كثيرة ، لعل ادهشها حادثة تلك السيدة الحامل ، زوجة حاكم المقاطعة ، التي قالت لزوجها : ان المراة التي حكمتم عليهابالاعدام، هي حامل في أشهرها الاولى ولا يجوز تنفيذ الحكم فيها قبل أن تضع حملها ، فجمع الحاكم هيئة طبية لفحص المراة المجرمة ، فاعمى الله بصيرة الهيئة ، وقررت بعدالفحص عدم وجود الحمل ، ونفذ في المسكينة حكم الاعدام ، وما كان أشد الدهشة والالم ، وما كان اشد الاسف والندم ، حينما اجري فتح الجثة ، واستخرج منها جنين في الشهر الثالث .

وتبدو المشكلة أمام الحامل وذويها ، منذ ما يبدأ التفكير في المكان الذي سيتم فيه الوضع ، وتظل دور الولادة ، المكان المفضل الامين ، للحصول على ولادة مضمونة بقدر الامكان ، اذ لا يمكن التنبؤ بمجرى الولادة من أوله الى آخره ، وكثيرا ما تكون الولادة سهلة وطبيعية في اولها لم تبدأ بالعسر بعد ذلك ، وفي دور الولادة اسعاف سريع ومراقبة فنية وملازمة دائمة وعناية حسنة بالوالدة ووليدها ، يقول العلامة (براندو) يجب أن يعلم كل الناس ، ان الولادة وان كانت حادثا طبيعيا ، لكنها قد تفاجأ باختلاطات لا يمكن القضاء عليها ، إلا في دور الولادة الحسنة ، وعلى الحامل ان تقصد دار التوليد للولادة ، مثلما تقصد المستشفى لاستئصال الزائدة أو الورم الليفي فالحمل مرض والولادة عملية جراحية .

ان المشكلات التي تحيط بشؤون المراة من نواحيها الطبية والاجتماعية قد تفوق مايحيط بالرجل ، أليست هي العنصر الاساسي بحفظ الجنس والنوع ، أليست هي التي تحمل وتلد وترضع وتربي الاطفال ، ولابد لي هنا من أن أتعرض لمشكلة يؤسفني ان أصرح انها على الرغم من تقلص بعض ظلها ، فهي مازالت قائمة بين معظم الطبقات ، الا وهي مشكلة جنس المولود ، التي يبدأ التفكير فيها من أول الحمل الى آخره ، ولكنها تشتد في آخر ايام الحمل ، فيسال المولد او القابلة ، عما اذا كانا يعرفان لهذا السؤل جوابا ، وقد اعتاد أكثر المولدين والقابلات ، أن يكون الجواب ابتسامة التمني والرجاء ، بأن يمن الله على الحامل بالمولود الذي تشتهيه ، كيف لا وهذا الامر من المغيبات ، التي استعصى حل رموزها على العلماء الكثيرين ، وان كنا نسمع اليوم عن وصول العلماء الى معرفة الجنس او التحكم فيه ، على أن نسبة هذه المعرفة ، ليست عالية . وان كان بعضهم يدعي أن معرفة الجنس اصبحت ممكنةبنسبة

تزيد على ٧٠ بالمائة ، بعد الاستعانة بفحوص مخبرية خاصة . وقد اقترح أحد المولدين ، ان يكون الجواب مخالفا لرغبة الحامل وذويها، معتقدا ان الصدمة النفسية في هذه الحالة ، بطيئة الاثر غالبا ، ويرى في تعليل طريقته انه ان أصاب في تعيين الجنس ، دل ذلك على سعة علمه واطلاعه ، وان أخطأ ، فان الفرحة التي تصيب الحامل وذويها ، من الحصول على ما يرغبون ، تنسيهم خطأ الطبيب ، وتكبر هذه المشكلة ، حينما يلقى السؤال بعد الولادة مباشرة ، ولاسيما حين يكون جنس المولود ، مخالفا لرغبة الوالدة وذويها ، كأن تكون انثى ، بينما تتحرق الام وذووها ، للحصول على الذكر ، وهذا مع الاسف هو الاكثر شيوعا ، أو يكون الامر على عكس ذلك ، وهذا أمر نادر .

وقد تفضي الصدمة النفسية الى انحلال قوى الدفاع في الام ، وصولة الجراثيم عليها، حتى أنها قد تصاب بالحمى النفاسية ، او بازدياد النزف وتعذر انقطاعه ، او بانحباس بعض اجزاء الولادة ، او بجفاف الثديين وانقطاع اللبن ، لهذا وجب على المولد او القابلة ، التذرع بالحكمة في توجيه الإجابة، بحيث لاتؤدي الى مثل المحاذير المذكورة ، ويقترح بعضهم أن يصم المولد او القابلة اذنيهما عن سماع السؤال ، متظاهرين بالاهتمام في تصريف شؤون الوالدة ، وكل هذه الاساليب ، تبقى عقيمة مالم تسيطر الجدة على العقول والعادات ، وتنبذ التقاليد الجاهلية ، التي احتلت وباللاسف عقول الشرقيين بصفة خاصة ، بينما يرحب الآخرون باي مولود جاء ، وماذنب المولودة الانثى حتى تتفشى لمجيئها الجباه ، ويسود الصمت والوجوم ، وما فضل الذكر عليها حتى تضحك له القلوب وتشرق النفوس بالبهجة والسرور، وكم من ذكر اصبح في مستقبل ايامه ، ويلاً وشقاءً على ذويه وامته ، وكم من انثى كان فيها الخير والسعادة والبركة ، وتباً للعادات والتقاليد الجاهلية الموروثة وانّا لنحمد الله ، على ان هذه العادات ، بدأت بالتقلص والانحلال ، بعد ان اصبحت المرأة شريكة الرجل في العلم والعمل ، في كل مرافق الحياة، فهي نائبة وطبيبة ومهندسة ومحامية ووزيرة ورئيسة وزراء واحزاب ، مثلما هي عاملة في المعمل والحقل والمنجم ، وسائقة سيارات وقاطرات وطائرات ، ولابد من التنويه بتفوقها في السباحة والعدو والرياضة الاولمبية ، كما ذكرت الاذاعات العالمية ، فوز امرأة في سباق السيارات الدولي واشادت باعجاب واكبار ، كيف قهرت سيدة مغامرة جريئة ، قمة (إيفرست) في هملايا ، وهذا انجاز كبير عجز

عن تحقيقه كثيرمن صناديد الرياضيين ،ومات مئات المغامرين ، قبل الوصول اليها ، واذا كان الرجل فيما مضى من الايام ، هو الذي حرم المراة حقوقها ، فقد علم اخيرا ، انه هو العامل الاول في مجيئها انثى الى هذه الحياة ، وذلك بعد أن وضح علميا ، بما لايقبل الشك مطلقا ،ان الرجل ، هو المسؤول الأول والاخير ، عن جنس المولود ، ولا دخل للمراة في ذلك مطلقا .

ان البحث المفصل في شؤون المراة عامة ، وفي المشكلات التي تحيط بها ، واجب بحثه مؤتمرات المراة ، التي انعقدت في العام الفالت في معظم بلاد العالم ، وماأتيت عليه ، ليس الا جزءا يسيرا مما يجب ذكره .

المـــرأة
من مكسيكو إلى برلـين

غـادة الجـابي

مما لا شك فيه انه طرأ تحسن أساسي على الوضع القانوني الدولي للنساء ، وذلك نتيجة للمساعي المستمرة للقوى التقدمية ، وللرجال والنساء المؤمنين بالعدالة والتقدم ، ونتيجة لنشاطات المنظمات الوطنية والعالمية، ومن ضمنها المنظمات النسائية المتعاونة في العمل من أجل الوصول الى هذا الهدف وقد اثر اصدار القوانين الخاصة بحقوق المرأة في عدد من البلدان ، وبخاصة في الدول الاشتراكية تأثيرا ايجابيا الى حد بعيد في وضع واقرار أصول وتشريعات عديدة تهدف الى تحسين وضع المرأة، وعلى الرغم من ذلك فان المرأة لا تزال معرضة عمليا وفي الكثير من البلدان للتفرقة وانعدام المساواة مما لا تسمح به الوثائق الدولية .

واذا استعرضنا التشريعات القانونية الوطنية المتعلقة بحقوق المرأة وامكانيات تحقيقها، فاننا نجد فروقا كبيرة بين البلدان المختلفة التي تحدد بالتركيب السياسي والاقتصادي والثقافي الاجتماعي ، وكذلك بمستوى تطور كل بلد ، فهناك بلدان لم يؤمن فيها للنساء غالبية حقوقهن الاولية ، واخرى اعترف فيها بالمساواة بين الجنسين ، ولكن التفرقة وعدم المساواة مازالتا قائمتين في التشريع القانوني، وبلدان ثبتت في تشريعاتها القانونية مساواة المرأة بالرجل في جميع مناحي الحياة ، ولكن

الواقع العملي لم يقدم أية ضمانة مادية أخرى تضمن تطبيق هذه القوانين ، وأخيرا ثمة بلدان ثبتت وتحققت فيها مساواة المرأة دستوريا وتشريعيا وعمليا ، واعتبرت مبدأ من مبادىء سياسة الدولة التي تقدم للمرأة امكانيات متزايدة للتمتع بحقوقها على أساس التطور الاقتصادي ، ورفع المستوى الثقافي .

ولقد درس مؤتمر مكسيكو الذي عقدته الامم المتحدة في شهر حزيران الماضي بمناسبة العام الدولي للمرأة هذا الموضوع ، وانتهى الى توجيه توصية الى الحكومات باتخاذ اجراءات للتوصل الى مساواة المرأة بالرجل ، ومن جراء ذلك فانه يترتب على الحكومات أن تعيد النظر في تشريعاتها القانونية الخاصة بوضع المرأة وفقا لمبادىء ومعايير حقوق الانسان الدولية ؛ وقد أبرز مؤتمر مكسيكوالنجاحات الهامة للعديد من البلدان في توصلها الى تحقيق هذه المساواة ، وأكد على ضرورةالقيام بتحولات اجتماعية اقتصادية تقدمية لتحقيق المساواة الفعلية بين المرأة والرجل .

كما تناول المؤتمر العالمي في برلين أيضا هذا الموضوع بالدراسة فربط بين مسألة مساواة المرأة بالرجل في الحقوق وبين النضال من أجل تحقيق السلام العالمي والنضال ضد الامبريالية والاستعمار ومن أجل الاستقلال الوطني .

ونتيجة للمناقشات ، فقد تم التأكيد على وجوب تنظيم حملة على الصعيد العالمي لاقرار معاهدة للامم المتحدة حول ازالة التمييز ضد المرأة ، والنضال من أجل اصدار قوانين من شأنها خلق التوافق بين التشريعات الوطنية والمعاهدات الدولية حول وضع المرأة ولاسيما بين هذه التشريعات وبين البيان الذي أعلن القضاء على التمييز ضد المرأة ، وكذلك التأكيد على وضع خطط وبرامج شاملة وفعالة من شأنها خلق ظروف اجتماعيةتضمن في ظلها المساواة الحقيقية للمرأة ، وتنظيم حملة عالمية على الصعيد العالمي للقضاء على الأمية التي تعتبر قضية خطرة في البلدان النامية ، والنضال من أجل تأمين الحقوق السياسية المتساوية ، لضمان الاشتراك التام للنساء والرجال كشركاء متساوي الحقوق في جميع المجالات ، وتقوية النضال المشترك بين النساء والرجال من أجل ازالةالامبريالية والاستعمار بشكليه القديم والحديث والسيطرة الاجنبية والاحتلال والفاشية والتمييز العنصري والصهيونية والتفرقة العنصرية .

واذا استعرضنا الطاقات البشرية في العالم، وجدنا ان أكثر من نصف سكان العالم نساء، وهؤلاء يشكلن ثلث القوى العاملة التي يجب أن نضعها في خدمة الانسانية وفي سبيل تحقيق رخاء المجتمع والاسرة والفرد . وبالرغم من الجهود والنجاحات التي أحرزت في بعض البلدان بصدد تحسين أوضاع المرأة ، فانه مازال يلاحظ وجود اجراءات تمييزية مختلفة

الاشكال تمارس بحق النساء ، ومن بين العوائق التي تقف امام النساء البطالة والاستغلال والامية ، ونقص امكانيات التعلم والتخصص ، وينجم عن ذلك بالتالي عدم ادماج المرأة في برامج التنمية والتطور بالشكل اللازم .

وقد درس مؤتمر مكسيكو ذلك ، واكد انه يتوجب على الدول من اجل ادماج المرأة في التنمية ادخال التعديلات الضرورية على سياساتها الاقتصادية والاجتماعية لان من حق المرأة المساهمة والمشاركة في الجهود الكلية لعمليات التنمية واشراكها في وضع مختلف خطط التنمية والتطور وتنفيذها ولان المرأة تشكل نصف الطاقات البشرية المتوفرة في العالم ، كما اشار المؤتمر الى ان الاوضاع الحالية للعلاقات الاقتصادية الدولية تقف حائلا جديا في وجه استخدام الطاقات البشرية والمادية استخداما صحيحا في سبيل دفع عملية التطور الى الامام ، وتحسين المستوى المعاشي في البلدان النامية وذلك بهدف القضاء على الجوع ووفيات الاطفال والبطالة والامية والجهل والتاخر ، هذه الآفات التي تسيء الى المرأة بشكل خاص ، والى الانسانية بشكل عام ، لذا فانه من الضروري تكريس نظام اقتصادي دولي جديد يشكل الميثاق الخاص بحقوق وواجبات الدول الاقتصادية العنصر الاساسي فيه ، على ان يرتكز هذا النظام على الاخلاق والمساواة في السيادة والاستقلال والمصالح المتبادلة والتعاون بين كافة الدول ايا كانت انظمتها الاجتماعية ، وكذلك على بذل جهود الاسرة الدولية في سبيل التقدم الاقتصادي والاجتماعي لجميع البلدان وخاصة البلدان النامية ، وعلى تقدم الدول التي تتشكل من مجموعها الاسرة الدولية .

وأكد مؤتمر مكسيكو على أن انجاز الاهداف الاقتصادية والاجتماعية رغم أنها شروط اساسية لاتاحة الفرصة أمام المرأة لممارسة حقوقها فهي لا تكفي لضمان اندماج المرأة اندماجا كاملا في عمليات التنمية على قدم المساواة مع الرجل ، إلا اذا اتخذت اجراءات حاسمة في سبيل القضاء على جميع اشكال التمييز الذي يمارس ضدها . لذلك كان من الواجب وضع خطة تتيح للمرأة المشاركة في جميع مجالات النشاطات المختلفة ، وتوفر لها امكانيات التعليم المتساوي وتمنحها جميع التسهيلات التي تعجل بنقل الاعباء المنزلية المضنية الى الخدمات العامة . كما أكد المؤتمر نفسه على أن مكننة القطاع الزراعي في مناطق شاسعة من العالم هي عنصر اساسي للتقدم ، خاصة وانها تتيح لملايين النساء الريفيات في العالم الاسهام في التنمية ، ويتوجب العمل على تطوير استقلالية المرأة الريفية ، ومساندة المشاريع الهادفة الى استخدام الامكانيات المتوفرة استخداما كاملا ، وكذلك اكد المؤتمر على ان الجهود الرامية الى مضاعفة اندماج المرأة فيعمليات

التطور لا يمكن أن تكلل بالنجاح الا اذا كانت جزءاً لا يتجزأ من برنامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشامل ، باعتبار أن الحقوق الشخصية لا يمكن أن تمارس بمعزل ولكن يجب أن تكون في اطار التطور الشامل .

وقد درس مؤتمر المرأة العالمي في برلين موضوع ادماج المرأة في عملية التنمية ، من منطلق أن اشتراك المرأة في النضال من أجل التطور ذو أهمية حاسمة . ويتوقف عليه والى حد كبير نجاح مساعي شعوبها من أجل حياة أفضل ، وان وضع المرأة ودورها في المجتمع يرتبطان وبشكل وثيق بالواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لشعبها ، وانه في أجزاء كثيرة من العالم تواجه النساء صعوبات كبيرة لدى محاولتهن تحسين وضعهن القانوني والاجتماعي ، وللقيام بدور فعال في حياة بلدانهن ، وممارسة وظيفتهن كأمهات وعاملات ومواطنات ممارسة كاملة ، وكذلك فانه بالاضافة الى الاستغلال الذي تتعرض له أكثر شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، حيث تنعكس في بلدانها آثار السيطرة الامبريالية والاستعمارية القديمة والحديثة في عالم اليوم ، فان المرأة تواجه التمييز الذي يضعها في المرتبة الثانية في الحياة الاجتماعية .

وقد انتهى مؤتمر المرأة العالمي في برلين الى أن اقامة نظام اقتصادي عالمي جديد وعلى أساس المساواة في السيادة والاحترام المتبادل والمنفعة المتبادلة في العلاقات الدولية ، وكذلك التعاون المشترك بين جميع البلدان ، يشكلان شرطا للتطور ، ويؤديان في الوقت نفسه الى اشتراك المرأة في هذه العملية ، كما انتهى الى ضرورة بلوغ مستوى ثقافي أعلى للنساء والفتيات وتحسين امكانات التدريب والاعداد المهني ، وازالة التقاليد القديمة وخلق امكانات العمل لجميع النساء واعطائهن حق الاجر المتساوي للعمل المتساوي أسوة بالرجال ، والمطالبة باحترام الامومة باعتبارها وظيفة اجتماعية مهمة ، ودون أن يسمح بأن يؤدي ذلك الى عدم المساواة ، وانتهى أيضا الى أن اشتراك المرأة في ادارة شؤون بلدها ، وفي ادارة الامور السياسية والاقتصادية والثقافية هو مساهمة هامة من جانب المرأة في الحياة الاجتماعية ، لذلك ينبغي النضال من أجل حق جميع النساء على الاطلاق في الترشيح والتصويت في الانتخابات ومن أجل أن يزداد وعلى مر الايام اشتراكهن في جميع ميادين الحياة الاجتماعية . وضمان مساواة المرأة مع الرجل في التعليم والتأهيل المهني على جميع المستويات ، وايجاد ضمانات لنفس الحق في العمل ونفس الاجر لقاء نفس العمل ، وحماية النساء من طوارىء العمل وضمان رعايتهن الصحية ، وضمان تشغيلهن التام وفقا لتحصيلهن العلمي ، وتأمين ضمان اجتماعي ، وذلك على نفس الاسس كما هي

الحال بالنسبة للرجال ؛ وبالتالي ازالة جميع العراقيل التي تعترض سبيل مشاركة النساء بصورة شاملة في حياة البلد السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

غير أنه لا يمكن تحقيق المهام الكبيرة في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتكنيكية إلا إذا تم الحفاظ على السلام العادل وتطوير التعاون على أساس المنفعة المتبادلة لجميع الدول .

وكان ذلك مثار اهتمام مؤتمر مكسيكو حيث اكد انه لا يمكن ان تتحقق أهداف العام الدولي للمراة إلا في عالم ترتكز فيه العلاقات بين الدول على المبادىء التالية :

المساواة في السيادة بين جميع الدول ، وحرية الشعوب في تقرير مصيرها ، وعدم قبول حيازة الاراضي بالقوة ، ورفض الاعتراف بمثل هذه الحيازة ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى ، كما أكد على أن التعاون والسلام الدوليين يتطلبان الحرية والاستقلال الوطني والقضاء على الاستعمار الجديد والاحتلال الاجنبي والصهيونية والتفرقة العنصرية والتمييز العنصري بجميع صوره واشكاله ، وكذلك الاعتراف بكرامة الشعوب وحقها في تقرير المصير ، وانه يقع على النساء وبالاتفاق مع الرجال عبء القضاء على مختلف اشكال الاستعمار المشار اليها ، ويجب اعتبار جميع أشكال القمع والمعاملة غير الانسانية الموجهة ضد المرأة أو الرجل أو الاطفال بما فيها السجن والتعذيب والمذابح والعقوبات الجماعية وتهديم المنازل والطرد الاجباري وتقييد حرية التنقل ، يجب اعتبارها جرائم موجهة ضد الانسانية ، وخرقا فاضحا للاعلان العالمي لحقوق الانسان ولجميع المؤسسات الدولية الاخرى .

كما تناول مؤتمر المرأة العالمي في برلين هذا الموضوع بالمناقشة ، ونوه بدور المرأة ومسؤوليتها في النضال من أجل السلام ، وبيان تعبئة القوة المتزايدة للنساء من أجل النضال في سبيل السلم والاستقلال الوطني تكتسب أهمية بالغة ، وذلك لتحقيق مساواة المرأة بالرجل في الحقوق ولمشاركة المرأة ، وبشكل فعال في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وقد دعا المؤتمر الى القيام بحملات تستهدف صيانة السلام ، على أن يكون المنطلق في ذلك الظروف الموضوعية السائدة في كل بلد من هذه البلدان . وقد نوه المؤتمر بالقلق العميق الناتج عن الاخطار التي تهدد بالانفجار ، والتي يخفيها في طياته الوضع في الشرق الاوسط بسبب عدم وجود حل عادل للمسألة الفلسطينية ، هذا التوتر الذي يتصاعد مع تزايد دور الولايات المتحدة الامريكية التي تقدم دعما عسكريا واقتصاديا وسياسيا شاملا لاسرائيل ، الامر الذي يشجعها على مواصلة سياستها العدوانية التوسعية ، وبدون حل القضية الفلسطينية

فانه من المستحيل ازالة خطرا الحرب في هذه المنطقة من العالم .

لذلك لقد راى المتحدثون في المؤتمر بأن لتحقيق سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط يتطلب تحقيق شرطين جوهريين :

ـ انسحاب القوات العسكرية الاسرائيلية من جميع الاراضي العربية المحتلة .

ـ الاعتراف بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني ، وبوجه خاص بحقه في العودة الى وطنه ؛ وكذلك حقه في تقرير مصيره ، واسترجاع كيانه الوطني .

كما ادانوا المناورات المستمرة التي تقوم بها الامبريالية من اجل تدعيم مواقعها الاستعمارية الجديدة في الشرق الاوسط ومحاولاتها الراقية الى ضرب وحدة الشعب العربي بهدف عزله عن كل دعم من قبل القوى المعادية للامبريالية ؛ وفرض حلول جزئية عليه بواسطة اتفاقات ثنائية ، واكدوا على ان السياسة العدوانية والتوسعية الصهيونية التي تنهجها اسرائيل ، تعتبر تحديا لجميع شعوب العالم المحبة للسلام والعدالة .

واخيرا يمكننا القول بان قضايا عصرنا الكبيرة من اقامة سلام عادل ، ونضال في سبيل الاستقلال الوطني وضد العنصرية والصهيونية ، وكذلك الكفاح من اجل الحقوق والحريات الديمقراطية والتقدم الاجتماعي؛ هذه القضايا لايمكن ان تحل بدون المشاركة الفعالة للنساء اللواتي يلدن الحياة ويعتنين بأثمن رأسمال تملكه الانسانية ، ونعني بذلك الاطفال ، كما ويخلقن في الوقت نفسه قسما كبيرا من القيم المادية والفكرية ويكافحن في سبيل حياة افضل وإنه من البدهي ان اعلان عام للمرأة لايعني ان جميع القضايا التي تواجه المرأة ستحل خلال هذا العام ، بل ما يعتبر جوهريا هو طرح مشكلة المرأة في تاريخ البشرية على الصعيد الدولي وبشكل يمس البشرية باجمعها ؛ ويلزمها المسؤولية ؛ ووضع خطط مبرمجة تأخذ بعين الاعتبار وضع القرارات الصادرة عن المؤتمرات المحلية والاقليمية والدولية موضع التنفيذ ضمن الظروف الموضوعية لكل بلد من البلدان .

وقد اهتم مؤتمر المرأة العالمي في برلين بذلك ؛ وقرر تشكيل لجنة للمتابعة مهمتها البدء بالاعمال اللازمة والناتجة عن التوصيات والاقتراحات والخواطر الواردة في المؤتمر ، وذلك على المستويات الوطنية والاقليمية والدولية .

ومن الجدير بالذكر ان الاتحاد العام النسائي في هذا القطر قد تقدم باقتراحات مماثلة على الصعيد العربي خلال الاحتفال الذي اقامه بمناسبة العام الدولي للمرأة ، والذي اعتبر تتويجا لجملة نشاطات خاصة بهذا العام

وذلك بتشكيل مكتب دائم لعام المرأة الدولي في الاتحاد النسائي العربي العام ، تنبثق عنه ثلاث لجان للمساواة وللتنمية والسلام ، مهمتها وضع خطط مبرمجة من أجل وضع القرارات الصادرة عن المؤتمرات العربية والعالمية خلال العام الدولي للمرأة موضع التنفيذ ، مع مراعاة الظروف الموضوعية في كل قطر من الأقطار العربية .

وفي قطرنا العربي السوري تتوفر الظروف الموضوعية المجيدة لمزيد من الخطوات الجدية في سبيل تقدم المرأة ، وزيادة اسهامها في حياة المجتمع ، وان الدعم المطلق لنضال المرأة في هذا القطر في سبيل تحقيق تطلعاتها كاملة، وفي سبيل توطيد وجودها الفعال في بناء الحياة والتقدم ، ذو اهمية بالغة في وضع كل مايخصها من مقررات وتوصيات موضع التطبيق الفعلي .

* * *

تقارير

أمير خسرو

صفوان قدسي

بين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من شهر كانون الثاني الماضي، انعقدت في مدينة نيودلهي حلقة دولية عن الشاعر والفيلسوف والموسيقي والرسام الهندي « امير خسرو » .

وكانت منظمة اليونسكو قد قررت في اجتماعها في شهر إيلول ١٦٧٥ ، احياء ذكرى « امير خسرو » الذي كان له أثر كبير عن ثقافة اقطار جنوب آسيا وأواسطها .

وقد شكلت لجنة هندية لتنظيم الاحتفال سميت بالجمعية الوطنية ، ويرأسها فخريا رئيس جمهورية الهند . وشارك في هذه الحلقة الثقافية وفود من سورية ومصر والباكستان وبنغلادش وافغانستان وايران والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية ، الى جانب وفد من الهند ، الدولة المضيفة .

وقد ترأس الاستاذ فوزي الكيالي وزير الثقافة والارشاد القومي وفداً سورياً ضم كلا من الدكتور شكري فيصل ، الاستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق ، وصفوان قدسي رئيس تحرير مجلة المعرفة .

● ● ●

من هو « أمير خسرو » ؟ .

لا يوجد في اللغة العربية إلا اقل القليل عن امير خسرو . وكل ما يقوله كتاب « الاعلام » عن امير خسرو هو انه اشهر شعراء الهند – بالفارسية – في عصره ، وانه كان ماهراً

بالموسيقى علما وعملا" . وله شعر عربي فيه ضعف ، ومصنفات قد يكون بينها ماهو عربي، منها « الاعجاز الخسروي » في البدائع ومحسنات الكلمات ثلاثة أجزاء ، و « تحفة الصغر » و « وسط الحياة » و « غرة الكمال » و « البقية النقية » و « نهاية الكمال » و « خمسة دواوين فارسية)) .

أما كتاب « الثقافة الاسلامية في الهند » فانه يقول عن امير خسرو بأنه مع براعته في لغة الفرس ، كان ماهرا بالعلوم العربية ، من النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية وغيرها ، ومن مستخرجاته نوع في البديع ، وله ابيات رائعة باللغة العربية.منها قـولـه :

يا عاذل المشـاق دعني باكيا ان السكون على المحب محـرم

من بات مثلي فهويدري حالتي طـوال الليالي كيف بات ميتم"

غير ان « دائرة المعارف الاسلامية » تتوسع بعض الشيء في الحديث عن أمير خسرو ، وتكتب عنه النص الآتي :

« خسرو » أبو الحسن أمير بن أمير سيف الدين محمود شمس ، ولد بالهند عام ٦٥١ (١٢٥٣ م) وكان ابوه تركيا من قبيلة لاجين ، هاجر من هزارة بالقرب من بلخ الى الهند خلال حكم جنكيز خان واستقر في بتيالي وتزوج ابنة عماد الملك وهو شريف كبير من اشراف بلاط دهلي . وقد مات ابوه وهو حدث في التاسعة من عمره ، نشب في رعايةجده لامه . وكان خسرو واسع الذكاء مشغوفا بالدرس . وقد ساعده الحظ فنال الحظوة لدى سبعة ملوك متعاقبين من ملوك دهلي وهم :

١ – محمد سلطان بن سلطان غياث الدين بلبن (٦٦٤ – ٦٨٦ ﻫ = ١٢٦٥ – ١٢٨٧م).

٢ – سلطان معز الدين كيقباد (٦٨٦ – ٦٨٩ ﻫ = ١٢٨٧ – ١٢٩٠ م) .

٣ – سلطان جلال الدين فيروز شاه الثاني بن جلال الدين (٦٨٩ – ٦٥٦ﻫ = ١٢٩٠– ١٢٩٥ م)

٤ – سلطان محمد شاه الاول ، علاء الدين (٦٩٥ – ٧١٥ ﻫ = ١٢٩٥ – ١٣١٥ م)

٥ – سلطان مبارك شاه الاول قطب الدين (٧١٦ – ٧٢٠ ﻫ = ١٣١٦ – ١٣٢٠ م)

٦ – سلطان تغلق شاه الاول ، غياث الدين (٧٢٠ – ٧٢٥ ﻫ = ١٣٢٠ – ١٣٢٤ م)

٧ــ سلطان محمد الثاني بن تغلق (٧٢٥ ــ ٧٥٢ هـ = ١٣٢٤ ــ ١٣٥١ م) .

وكان خسرو تلميذا أو قل ملازما لنظام الدين أوليا المتوفي عام ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) وكان يجله أعظم الاجلال ويخلص له اشد الاخلاص ، ويقال انه صحب غياث الدين تغلق شاه في حملته على البنغال ، وبلغه وهو في الطريق نعي استاذه الروحي ، فلما سمع ذلك بادر بالعودة الى دهلي ، وتخلى عن خدمة مولاه ووزع جميع مايملكه على الفقراء ، واعتكف عند قبر هذا الولي ثم توفي بعد ذلك بستة أشهر في دهلي عام ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) .

وخسرو صاحب التواليف التالية :

١ ــ تحفة الصغر ، وهي الاشعار التي نظمها فيما بين الخامسة عشرة والتاسعةعشرة من عمره

٢ ــ « وسط الحياة » وهي الاشعار التي نظمها فيما بين العشرين والرابعةوالثلاثين من عمره .

٣ ــ « غرة الكمال » وهي الاشعار التي نظمها فيما بين الرابعة والثلاثين والثالثة والاربعين من عمره

٤ ــ « بقية نقية » وهي مختارات مما بقي من اشعاره وهو متقدم في السن .

وقد طبعت على الحجر مختارات من هذه الدواوين الاربعة السابقة الذكر بعنوان « كليات امير خسرو » في مطبعة ناقال كشورة بلكنهو

٥ ــ « نهاية الكمال » وهي مجموعة من الغزل والرباعيات .

٦ ــ « مفتاح الفتوح » وهو رواية شعرية لاخبار حملات جلال الدين فيروز شاه الثاني خلال السنة الاولى من حكمه اي من اعتلائه العرش عام ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) حتى رجوعه الى دهلي في عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م)

٧ ــ « مطلع الانوار » وهي منظومة دينية اخلاقية على نسق « مخزن الاسرار »لنظامي

٨ ــ « شيرين وخسرو » وهو على نسق (خسرو وشيرين لنظامي)

٩ ــ « مجنون ليلى » وهو على نسق « ليلى ومجنون » لنظامي ، وقد طبعت على الحجر في كلكته عام ١٢٤٤ ، ولكنهو عام ١٢٨٦ م .

١٠ ــ « ائينة اسكندري » وهو على نسق « اسكندر نامة » لنظامي

١١ ـ « هشت بهشت » وهي منظومة عن غرام بهرام ، وقد نظمت على نسق «هفت بيكر » لنظامي

١٢ ـ « قران السعدين » وهي منظومة وصف فيها لقاء السلطان معز الدين كيقباد والده نصير الدين بغراخان سلطان بنغال على ضفاف نهر جهاكرا في اوذه عام ٦٨٨ هـ وقد طبعت هذه المنظومة على الحجر في لكنهؤ عام ١٢٥٩

١٣ ـ « نه سبهر » وهي منظومة وصف فيها بلاط قطب الدين مبارك شاه مع ذكر أهم الاحداث في عهده .

١٤ ـ « دولراني خضرخان » ، وهي منظومة عن المغامرات الغرامية لخضرخان ابن السلطان علاء الدين مع دول راني ابنه رائي كرن الكجراتي

١٥ ـ « أعجاز خسروي » وهو كتاب في البلاغة ، وقد طبع على الحجر في مطبعة نافال كشور في لكنهؤ وفي عام ١٩١٤ بذلت محاولة تحت اشراف نواب حاجي محمد اسحاق خان الذي كان وقتذاك سكرتيرا لكلية بعليكرة (وهي الآن جامعة عليكرة الاسلامية) لطبع كليات خسرو طبعة منقحة ، ولكن لم يطبع من الكتب السالفة الذكر الا الكتب المرقومة بـ ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ بسبب وفاة النواب .

وقائع الحلقة :

حضر الحفل الافتتاحي رئيس جمهورية الهند فخر الدين علي أحمد ، ونائب رئيس الجمهورية . وقد طلب الى الاستاذ فوزي الكيالي وزير الثقافة والارشاد القومي أن يلقي كلمة الوفود الاجنبية المشاركة في هذه الحلقة ، وان يترأس فيما بعد جلسات الحلقة ، وان يدير مناقشاتها . وكان هذا تكريما خاصا اعتبره السيد وزير الثقافة تكريما لسورية التي بدأت تحتل مكانة مرموقة في العالم تتناسب مع دورها السياسي النشط والفعال .

وقد القى الاستاذ الكيالي الكلمة التالية :

حين تحتفل الأمم بذكرى المشاهير من رجالها ، والنابهين من علمائها ، فانما تفعل ذلك في اطار قيمتين كبيرتين ، اولاهما الوفاء لهؤلاء الرجال الذين صنعوا تاريخها ، أو جوانب من تاريخها ، في المعرفة أو في الفن أو في الفلسفة . والقيمة الاخرى إنما هي في تسليط

ضوء جديد على دراسة هؤلاء الرجال في نطاق معرفة التاريخ القومي وادراك ابعاده وجلاء الجوانب التي لم يتح لها ان تستجلي من هذا التاريخ ، حتى ينشأ هذا الجيل وهو على معرفة بقديمة في ضوء الحداثة التي يفرضها التطور ضمن مسار التاريخ البشري .

وكلتا هاتين القيمتين تنبعان من الذاتية الوطنية لتصبا بعد ذلك في وعاء الانسانية الكبير الذي يتسع للتجارب الوطنية ، أيا كان منشؤها وبلدها ؛ ويضيف إليها .

والهند التي تحتفل اليوم بذكرى هذا الشاعر والموسيقي الكبير ، إنما تؤكد هاتين القيمتين : القيمة الذاتية والقيمة الانسانية في آن واحد . إنها تفي لجزء من تاريخها وتؤكد هذه النسبة بينها وبينه ، ثم هي من نحو آخر تضرب المثل الكبير على هذا التواصل الانساني في نطاق الفن أو في نطاق المعرفة الانسانية : اعني في النطاق الحضاري .

وفيما يعهد عن تربة الهند انها كانت على مر العصور غنية بهذا الوفاء . ولعل من هذا الوفاء تنبت الصورة المثلى للحياة في هذا البلد الكبير الذي يعتبر واحداً من أكبر بلاد العالم ، والذي تتلاقى فيه لغات وأقوام كانت مهمتها على مدى الزمن ، أن تصهر ذاتيتها في نطاق انساني عام ، على ان يظل لهذه الذاتية دائماً تألقها واشعاعها .

والهند في ذلك إنما تتابع تقاليدها الحضارية في الاخذ والعطاء ، في التعاون والتبادل ، في تفاعل الطاقات الانسانية وانمائها على طريق انماء الحضارة الانسانية .

ان تجربتنا في الاقطار العربية مع الهند ، من خلال الاسلام في الماضي ، كانت تجسيداً لهذا التفاعل : فحين فتح العصر العباسي ذراعيه لاحتضان الثقافات العالمية الكبرى ، ترجمةً وفهماً واغناء ، وتقديمها للطرف الاخر من العالم ، الطرف الغربي منه ... حين فعل العصر العباسي ذلك ، كانت الثقافة الهندية في رأس الثقافات التي أفاد منها وأفادها . ومن طريق هذه الثقافة كانت نهضته ، أو بعض نهضته ، في علوم الفلك والرياضيات وفي بعض الدراسات اللغوية ، ثم في هذه الروح المتصوفة التي تفاعلت مع روح التصوف ، فلسفة وادبا ، ثم أخيراً هذه الذخيرة من القصص والحكايات التي كانت تلخص تجارب الشعوب وحكمتها .

وكان هذا التفاعل بعض هذا الذي داخل الثقافة العربية الاسلامية من الهند ، فقد كان يقابله ماداخل حياة الهند في اقطار من اقطارها ، وجماعات من جماعاتها ، مع الاسلام ،

لم مع الثقافة الاسلامية ، لاتاخذ منها فقط ولكنها تاخذ وتعطي ، ولاتكتفي بالتعرف إليها ، وإنما تقبل على ممارسة مبادلها والاخذ بلغتها . ومن ذلك كان هذا الجزء من تاريخ الهند المسلمة ، او تاريخ الهنود المسلمين ، والذي تعتد الهند الحديثة به على انه جزء من تاريخها وثقافتها . وما هذا الاحتفال الذي تقيمه الهند اليوم لشاعرنا المبدع أمير خسرو إلا صورة من صور هذا الاعتداد .

لقد قلت ، ايها السادة ، إن في الهند تنصهر الثقافات المختلفة ، كما تنصهر الاجناس ..ولعل أمير خسرو ان يكون خير ممثل لهذه الروح الهندية . كان تركياً في أصوله الاولى ، وكان فارسياً في الاحتذاء والاستمداد ، وكان عربياً في بعض القيم الفنية ، ولكنه استطاع قبل ذلك وبعد ذلك وفوق ذلك ، أن يصهر كل هذا في الوعاء الهندي الجميل الذي لم يكن مجرد احتواء ولا تلوينا وإنما كان مخالطة وتفاعلا ، وكان ابداعا وخلقا جميلا .

ايها السادة ، إن الهند التي تحتفل بشاعرها الذي يمثل جملة هذه القيم الفنية: الموسيقية والشعرية والقصصية والصوفية تفعل ذلك غير غافلة عن القيم المعاصرة في الحياة العلمية والعملية . انها حين تفجر الذرة تعرف أن الشعر والموسيقى هما الوجه الآخر للانسان الذي يجب أن لا يمحوه الانبهار بالعالم والانصراف الى الاستمتاع بتطبيقاته العملية . وكأنها في هذين الخطين معاً ، تريد أن تضع أمام العالم الطريق الذي تؤمن به ونؤمن به في الوطن العربي : طريق الامة الوسط من الناس .. فالانسانية لا تستغني عن هذا التطلع الدائم إلى اكتشاف العالم ومعرفة اسراره وتسخير قواه ، والانسانية كذلك لاتستغني عن هذا التطلع الدائم الى اكتشاف النفس الانسانية وأسرارها . وسواء عندنا في نزعتنا الحضارية تفجير الذرة أو تفجير الكلمة الطيبة .

والهند التي تشغلها اليوم المهمات الكبرى التي تضطلع بها في مجالات السياسة الدولية والاقتصاد العالمي والتطوير الداخلي وبناء الحياة الجديدة على ارضها والتي تحاول أن تتخلص من تبعات العهود الاستعمارية البغيضة ومخلفاتها الثقيلة لم تشأ أن تغفل في ذات الوقت عن أن تحتفل بذكرى شعرائها وفنانيها وعلمائها .. لان هنالك دائماً هذا الخط المتصل بين عملية الانماء للذات البشرية وعملية الانماء للحياة الاقتصادية .. وذلك رأينا جميعا في العالم الثالث لان سورية نفسها في غمرة المجابهة الشرسة التي تواجه بها الحركة العنصرية الصهيونية والمؤامرات الامبريالية وعلى وجه الخصوص الآن في لبنان دفاعا عن الحق العربي وعن الوجود الفلسطيني وتقدم في سبيل ذلك اكثر ماتملك ؛ سورية

في غمرة هذه الظروف لا تتأخر عن أن تسعد بمشاركتكم في هذا المهرجان وأن تبعث بوفدها ليكون وجوده تجسيداً لهذه المشاركة وتواصلا معها .

في ختام هذه الكلمة كما في مطلعها أحب أن أشيد باسم الوفود المشتركة في هذا المهرجان بالرعاية الكريمة التي بسطها فخامة السيد رئيس الجمهورية السيد فخر الدين علي احمد على هذا المهرجان واهله وان اقدم الشكر جزيلاً وخالصا لحكومة الهند وشعبها لما لقينا من كريم الرعاية ووافر العناية . وان نعلن عن تقديرنا العميق للجهود الباسلة التي تبذلها حكومة الهند برئاسة السيدة انديرا غاندي ويبذلها الشعب كله من ورائها في سبيل بناء الهند الحديثة وفي سبيل تطوير حياة شعبها نحو مزيد من الثورة ومزيد من ازدهاره ومزيد من التقدم .

* * *

وفي الجلسة الاولى التي تلت جلسة الافتتاح ، كان الموضوع المطروح للمناقشة هو : « حياة امير خسرو وعصره : أعماله وعلاقتها بالهند » . واستمرت مناقشة هذا الموضوع في الجلسة الثانية أما الجلسة الثالثة فكانت مخصصة لمناقشة موضوع آخرهو : « اسهامات امير خسرو على صعيد الادب » . وجرى تخصيص الجلسة الرابعة لمناقشة موضوع ثالث هو « فكر امير خسرو وعقيدته وتأثيرهما في الهند في الخارج » . وكانت الجلسة الخامسة والاخيرة مكرسة لموضوع آخر يتصل باسهامات امير خسرو على صعيد الموسيقى .

وفيما يلي نماذج من المناقشات التي جرت حول هذه الموضوعات :

الدكتور صفاء : مدير المجلس الاعلى للثقافة في ايران :

تحدث الدكتور صفاء عن الوضع الثقافي والاجتماعي في دلهي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر حيث كان الناس من مختلف انحاء العالم الاسلامي يفدون الى دلهي بل يهاجرون اليها نظرا للجاذبية التي اقترنت بها دلهي في تلك الايام ـ خاصة بوجود ظاهرة تمازج رائع في الثقافة والحضارة . واكبر دليل على ذلك ان الامير خسرو نفسه كان ينتمي اصلا الى بلاد ما وراء النهر ولكنه جاء الى الهند واعجب بدلهي واتخذها موطنا له . وكان مع ذلك يؤلف باللغة الفارسية ، فهو باختصار في حد ذاته كان يجمع بين عناصر شتى في شخصيته بحيث اظهر مزايا الحضارات المختلفة .

الدكتور سليمان عباس من جامعة بنارس في شمال الهند :

التصوف الاسلامي متأثر بلا شك بالفلسفة اليونانية والهندوسية ولكن التصوف الاسلامي في أول الامر كان قاصرا على المدارس الدينية لم أخذ ينتشر شيئا فشيئا فيما بعد ، ــ فعلينا الا نخلط بين التصوف وبين النزعة للكلام عما وراء الطبيعة ــ فانا أرى أن خوسرو لم يكن متصوفا بمعنى الكلمة .

فلذا اريد ان اقول ان هناك فرقا كبيرا بين أن يقال ان خوسرو كان متصوفا أو أنه كان تلميذا لمتصوف كبير حقيقي هو نظام الدين أولياء ــ فعلينا أن نكون على حذر في هذا الموضوع .

السيد نثار أحمد فاروقي من جامعة دلهي :

العلم مقسم الى ظاهري وباطني في نظر العلماء ــ ان التجربة التصوفية موجودة في كل دين ــ ولكن الاسلام لم يبعد التصوف عن جوهر الدين وان كان المتصوفون الغلاة وضعوا ثلاث مراحل للتصوف : الدرجة الاولى التمهيدية هي العمل بالشريعة ، الدرجة الثانية الاعلى منها هي الطريقة ، ثم الدرجة الثالثة العليا هي الحقيقة .

الاستاذ فوزي الكيالي :

الاسلام هو دين الموقف الوسط بين الانصراف عن الدنيا الى الآخرة ، وبين الانصراف عن الآخرة الى الدنيا ، هو الموقف المتوازن بين الانسان كحيوان له حاجاته المادية التي تحكمه وبين الانسان الإله ، او الذي فيه من روح الله .

الحقيقة موجودة في الظاهر كما هي موجودة في الباطن ، أي موجودة في المادة وموجودة في الروح .

يقول الرسول العظيم :

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا

واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

واذا كان التأمل الباطني هو احد الوسائل الاساسية للبحث عن الحقيقة ، فان العمل هو احد الوسائل الاساسية للتعرف على الحقيقة ؛ ولذلك كان العمل في الاسلام من أرقى انواع العبادات .

الدكتور ناكيندرا رئيس قسم اللغة الهندية في جامعة دلهي :

كان خوسرو شاعرا ومفكرا في الصعيد الرومانتي ؛ وكذلك كان مؤرخا ومؤلفا .

وكان شاعرا مرهف الحس وشعره حول الحب من أحسن انتاجه وانتاج خوسرو في اللغة الهندية انما يعكس الجوانب الاقل أهمية من شخصيته .

الدكتور نارنك استاذ اللغة الاردية في الجامعة الملية :

نتاج خوسرو في اللغة الهندية يحتاج الى كثير من التحقيق والتمحيص لان هناك أشياء كثيرة تنسب الى خوسرو بينما لا صلة لخوسرو بتلك المؤلفات .

الدكتوره ماجدة أسد مدرسة اللغة الهندية في جامعة دلهي :

تحدثت عن مقدرة خوسرو في اللغة الهندية وأكدت على مقدرته في الجمع بين الكلمات العربية والفارسية مع الهندية في مؤلفاته الهندية .

السيد شهاب سرمدي أستاذ في قسم التاريخ ـ في جامعة عليكرة الاسلاميــة :

تحـدث عن اسهام خوسرو الموسيقي وقال اننـا اذا اردنا فهم فن الموسيقى الهندية لا بد أن نرجع الى مؤلفات خوسرو في هذا الشـان .

وقد استمد خوسرو معلوماته الموسيقية من مؤلفات ابن سينا كما ثبت لي ذلك من مخطوط وجدته في مؤسسة دائرة المعارف في حيدر اباد .

وليس من الصحة تماما أن يقال ان خوسرو هو أول من فهم فن الموسيقى لان هناك كثيرا ممن سبقوه .

السيد حسن عسكري ـ من ولاية بيهار :

اود أن أعرف ممن لديه العلم حول تأثير الفلسفة الافلاطونية الحديثة على التصوف هناك أمران وحدة الخالق ووحدة الوجود وهناك الفلسفية الهندوسية الفيدانتية التي تتحدث عن وحدة الوجود والخالق أي لا فارق بين المخلوق والخالق .

ـ لا نستطيع أن نقطع بالقول ان خوسرو كان متصوفا بمعنى الكلمة كما قال المتحدث السابق الدكتور يوسف حسين خان .

كان خوسرو رجل الدنيا بقدر ما كان متصوفا وكان عنده شيء من الدهاء السياسي ودليل على ذلك قصة محاولة خوسرو للتقليل من التيار الصوفي السائد في زمنه بايحاء من السلطان غير انه لم يوفق في ذلك .

الدكتور يوسف حسين خان نائب مدير جامعة عليكرة الاسلامية سابقا ـ وشقيق الرئيس الهندي الاسبق ذاكر حسين :

اريد ان اقول ان خوسرو كان يجمع في نفسه عناصر ومزايا شتى تكاد تكون متناقضة ، فهو كان يعجب بعناصر الفلسفة الهندوسية بقدر ما كان يعجب بعناصر التصوف الاسلامي ـ وكذلك نجد عنده تناقضا كبيرا في موضوع الوطنية ايضا فهو من جانب يثني على كل من هو مخلص للهند ويتهم بالكفر كل من عادى وطنية الهند ولا شك أن خوسرو أول شاعر هندي أعرب عن الوطنية الى درجة انه قال انه غزال من الهند وليس جملا من بلاد العرب .

فلذا ينبغي علينا أن نكون حذرين في معرض الكلام عن خوسر وتقدير شخصيته ـ ولا يفوتنا أن نشير أيضا الى العنصر السياسي في شخصية خوسرو والذي كان مسئولا عن إثارة اشمئزاز استاذه نحوه .

ولا داعي لنا أن نثني على خوسرو الى درجة أن نعطي له صفة القداسة ـ كان خوسرو مرهف الحس ولم يكن نزاعا للتصوف فقط بل كان واعيا لكل ما حوله من عرض الحياة الدنيا فقد وصف في أحد دواوينه حي الداعرات وبنات الليل وكذلك وصف منظر الاسواق في دلهي في زمنه . كل هذا دليل على تعدد جوانب شخصيته .

واذا نظرنا الى شعر خوسرو لا نراه بارعا في الشعر كما يشاع عنه .

وهناك كثير من الاختلاط وسوء التفاهم حول التصوف الاسلامي . وكثيرا ما يقال ان التصوف الاسلامي تأثر بالفكر الصوفي من مختلف البلاد منها بلاد الفرس والهند — الواقع كان التصوف الاسلامي متأثرا الى حد ما في بداية الامر بالفلسفة الافلاطونية ويظهر انعكاس ذلك عند رابعة العدوية .

واما تأثير التصوف الهندوسي فقد ظهر في عصر متأخر جدا .

— وظهر نوع من المبالغة في الكلام حول تأثر التصوف الاسلامي بتصوف المذاهب الاخرى — وكان خوسرو نفسه من ابرز المبالغين في هذا الصدد الى درجة ان استاذه ومرشده كان غاضبا عليه الى درجة انه كتب في وصيته قبل الموت بعدم السماح لخوسرو بالحضور عند قبره . ولكن خوسرو حضر ومنعه الناس من الاقتراب الى القبر ولكنه اصر على البقاء هناك على بعد من القبر وهناك فاضت روحه .

ستسليلوف : من جمهورية طاجسكتان السوفييتية :

احدى قصائد خوسرو ترجمت الى اللغة الطاجيكية بعد خمسين سنة من وفاته . ورغم مضى ٦٠٠ سنة على وفاة خوسرو لم تمت آثاره ولم تقل اهميتها وما السر في ذلك ؟ انه كان يعبر دائما عن المشاعر الانسانية الحقيقية والمثل البشرية التي تؤثر على كل فرد وكان مخلصا لوطنه بلا شك ومع ذلك يؤمن بعالمية الوجود — بوجود كون موحد — كان يؤكد دائما على المساواة بين الدول وما كان يفرق بين المسلم والهندوسي وكان يحترم كل الاديان .

كان يسعى للوئام بين الطائفتين الهندوسية والاسلامية وايجاد الانسجام الثقافي بينهما.

وما هي العناصر تبناها لايجاد هذا الانسجام ؟ انه استفاد من العناصر من الطائفتين التي كان بينهما تفاعل وتجاوب . كتابات أمير خوسرو كلها كانت تسعى الى هذا الانسجام ولا تزال مصدر الهام كبير للحفاظ على هذا الانسجام .

ان هناك تشابها كبيرا بين مؤلفات خوسرو ومؤلفات نهرو . اريد أن اتحدث بايجاز عن الانسجام الذي أوجده خوسرو . كان يستعمل أفكاره من الادب الهندوسي القديم في اللغة السنسكريتية وكان بارعا في المزج بين اسمى ما فيه من معان بالمبادىء الاسلامية السامية .

وقد ساهم العلماء السوفييت في التنقيب عن آثار خوسرو واخراجها وتعميم نفعهـا وازدادت جهودهم خاصة بعد التوقيع على معاهدة الصداقة الهندية السوفييتية وبعد زيارة بريجنيف التاريخية للهند قبل ثلاثة أعوام .

* * *

في الجلسة الختامية ، ألقى الاستاذ فوزي الكيالي كلمة باسم الوفود المشاركة في الحلقة ، قال فيهـا :

أستطيع أن أقول ان الندوة كانت ناجحة جدا بفضل الجو الخسروي الذي سادها ، جو الحب ، والوحدة ، والشوق الى الحقيقة والى الجمال .

هذا الجو الروحي الذي عبر عنه الصوفي الاسلامي الكبير الشيخ محي الدين بن العربي المدفون في قلب مدينة دمشق والذي يسمى احد أحيائها باسمه ، بالابيات الشعرية الآتية :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... اذا لم يكن ديني الى دينه داني

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان وديرا لرهبان

واوراق توراة وكعبة طائف ... واسفار انجيل ومصحف قرآن

أدين بدين الحب انى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وايماني

هل يعود الفضل في خلق هذا الجو الى طبيعة خسرو ، الانسان المبدع الخلاق ذي الحس الجمالي المرهف ؟ .

هل يعود الفضل في خلق هذا الجو الى الموضوعات التي يثيرها خسرو في أدبه وشعره وموسيقاه حول الحب والوحدة أو الاتحاد وحول القيم العليا للجمال الذي كان يبحث عنه في الشكل وفي المضمون ، تلك الموضوعات التي لا تزال حية حتى الآن والتي لا تزال تطرح نفسها علينا كافراد وجماعات ؟ ...

هل يعود الفضل في خلق هذا الجو الى أن هذه الندوة عقدت على أرض الهند ، تلك الارض التي عاش عليها خسرو والتي الهمته أدبه وفنه وشعره وتصوفه ؟ ..

هل يعود الفضل في خلق هذا الجو الى مشاركة عدد من الوفود في هذه الندوة ، وفود تنتسب الى شعوب وحضارات وضعت بصماتها على أدب خسرو وعلى فنه وعلى شعره وعلى معتقداته ، وعلى شخصيته ؟ ..

انني اعتقد أن كل هذه العوامل مجتمعة كان لها الفضل في خلق هذا الجو الخسروي الذي ساد هذه الندوة : جو الحب والوحدة والنزاهة الفعلية في الدرس والبحث .
انني الاحظ على هذه الندوة الحيوية ، والنزاهة الفكرية .

وحيوية الندوة هنا تأتي من حيوية الموضوعات التي تطرحها دراسة آثار خسرو أدبا وشعرا وفنا . هذه الموضوعات التي لا تزال حية حتى الآن ، وكما كان الحب والوحدة اللذين تاق اليهما خسرو وأشاد بهما في شعره وغناهما في موسيقاه مطالب حيوية بالنسبة لشعوب زمانه عبر عنهما خسرو في شعره فكان في ذلك وجدانا لا لشعبه فقط وانما لشعوب هذه المنطقة كذلك نحس الآن وتحس معنا شعوبنا بنفس الحاجة الى هذا الحب وهذه الوحدة الذي لا بد من توفير وسائل الاتصال بينها أولا ووسائل اجراء الحوار حتى نتفاهم ونتعارف ونصل الى مرحلة الحب والوحدة .

اما النزاهة الفكرية : فتأتي من المستوى العالي للمساهمين في هذه الندوة .

واذا سمح لي اخواني اعضاء الوفود المضيفة والندوة تشرف على نهايتها ان اغتنم هذه الفرصة لاشكر باسمهم وباسم الوفد السوري مرة أخرى السيد رئيس الجمهورية الذي رعى هذه الندوة وحكومة الهند وعلى رأسها السيدة انديرا غاندي ، وأخص بالذات السيد وزير تربية هذه الحكومة التي عملت على عقد هذه الندوة ، والعلماء الهنود الذين أفدنا كثيرا من علمهم الغزير وفضلهم الكبير وان أشكر أولا واخيرا شعب الهند العظيم على ما لقينا في ربوعه من كرم وحسن ضيافة .

* * *

كان الوفد السوري الى هذه الحلقة موضع تكريم خاص ، فقد استقبله فخر الدين علي احمد رئيس جمهورية الهند ، كما استقبلت السيدة انديرا غاندي رئيسة الوزراء ، السيد فوزي الكيالي وزير الثقافة والارشاد القومي ، وجرت بينهما محادثات تناولت وسائل تعزيز العلاقات الثقافية بين البلدين .

سقوط الواحدية النقدية

خلدون الشمعة

التمرد والتقليد

يعلن كاتب معاصر ان الأدب كالموز لايؤكل إلا طازجاً . وتحتل هذه الرؤية التي تسلب الأدب فضيلة سوء التفاهم مع عصره ، جزءاً غير يسير من المشهد الأدبي العربي .

فالشعر الحديث يتوج أو يدان لمجرد انه شعر حديث . والقصة التجريبية القصيرة التي لايمكن تحطيم بوابة الإبهام التي تحول دون الدخول إلى مجالها الداخلي ، ترفع صوتها الأبح لتسيطر على الأصوات القصصية الأخرى لأنها قصة تجريبية . وهكذا يتحول التمرد على الإيقاع الأدبي السائد إلى تقليد أدبي لايلبث أن يدور في حلقة مفرغة جديدة .

فعشرات الشعراء يحاولون تقليد النماذج السائدة في التجربة الشعرية العربية المعاصرة . . وعشرات القصاصين يشقون في تقليد نماذج الحداثة في القصة العربية الجديدة .

وهكذا يكتسب الانقسام إلى (قديم) و (جديد) مظهراً نقدياً يمنح الاعتراف النقدي أو يحجبه ، إنطلاقاً من هذا التقسيم التاريخي . كما تختفي من المشهد الأدبي العربي مسألة التداخل بين الأجيال الأدبيــة .

ولكن ماذاعن مسألة البحث عن مقاييس نقدية غير أحادية الجانب . ؟ . . ماذا عن البحث عن معايير متحركة وغير مسبقة . ؟

وصية نقدية

الصائحون بوجود أزمة في النقد الأدبي هم أضيق الناس صدراً بالنقد عادة . وهم حين يتوقعون انفراج الأزمة ، فإنما يتوقعون أن تستنفر الأقلام ، تمتدح وتقرظ ، لاتنقد ولا تقيم . ويقوم افتراض هؤلاء على أساس ان كل ماينشر من نتاج أدبي إنما يستحق أكثر من مجرد التعريف . وكأن تاريخ النقد الأدبي في تجارب الآداب العالمية تاريخ رصد ومتابعة وتقويم لكل ماظهر من الكتب ولكل ماظهر من المجلات . ويذكرني هذا الافتراض بقصيدة قديمة توصي النقاد بألا يتعرضوا للأعمال الرديئة لابالنقد ولا بالتعريض . ذلك ان من ينهش عملاً أدبياً رديئاً فإنه سيكون أشبه شيء بالكلب الذي يعض رجلاً مسموماً : « يموت الكلب ويشفى الرجل المسموم » .

وبالطبع فأنا لست من القائلين بعدم وجود أزمة في النقد . غير أن معظم الذين يتناولون هذه الأزمة يتجاهلون جذورها الممتدة في صلب الانتاج الأدبي نفسه . إنهم يقدمون المسألة وكأنها قد ألقيت بمظلة هابطة من السماء. وبالتالي فهم يتجاهلون ان لها جذوراً متشعبة تتصل بالنتاج المنقود حيناً وبأصحاب هذا النتاج في أحيان أخرى .

ومن جهة أخرى فإن الذين يبحثون عن النقد إنما يبحثون عن التقريظ في معظم الحالات . وهم يفترضون ان أي موقف نقدي لا يقف من العمل المنقود موقف الانبهار إنما يعني ان الناقد يضع نفسه فوق العمل المنقود ، ولا يدركون ان العمل المنقود نفسه ربما كان دون مستوى النقد .

هذا ليس دفاعاً عن النقد . فمن البديهي ان مستوى النقد هو نفسه مستوى النقاد .

الصوت المنفرد

١. الناقد الأخلاقي :

ـ الأدب وسيلة للتعبير عن تقاليد المجتمع وأعرافه السائدة .

٢. الناقد الجمالي :

ـ بل الأدب غاية . الأدب يجب أن يقيم لذاته الفن غير السياسة بكل تأكيد .

٣. الناقد النفسي :

ـ المهم هو الشاعر والروائي . فالأدب يصدر عن مزاج ينبغي

رصده في الشخصية الإنسانية التي أبدعته .

٤. الناقد الانطباعي :

ــ السؤال الأساسي الذي يطرحه القارىء والناقد معاً في أعقاب قراءة قصيدة أو رواية يتصل بالأثر الذي خلفته في نفسه قبل كل شيء . هل هزني هذا العمل . ؟ . هل ترك في نفسي انطباعاً لايمحى . ؟ . .

٥. الناقد الأيديولوجي :

ــ ولكن ماذاعن الأساس الفكري الذي يصدر عنه الشاعر أو الروائي . . إن الأدب موقف محدد من العالم ، وانه لمن العبث ألا يحدد الأدب أهدافه ويسدد عليها بدقة طلقة مسدس .

. . . .

هذا الحوار الذي لاتخلو نبرته التبسيطية من السذاجة ، خيالي بطبيعة الحال . وبصرف النظرعن مدى تمثيله للأطراف التي تسهم فيه ، فإنه يعبر عن أزمة النقد التي يتجاذب أقطابها ويتنابذون ويتقابلون ويتعارضون ويتجاورون . وقد وقفت المحاولات النقدية العربية أمام هذه التيارات موقفاً مفعماً بالتردد والاضطراب .

وفي حين سعى بعض الأكاديميين إلى بلورة نظرية للنقد العربي من خلال التراث النقدي لدى العرب ، تأثر العقاد بالنقد الانكليزي ، وحاول مندور أن يصنع جسراً يصل بين التراث النقدي العربي والنقد الأيديولوجي . وكان فيذلك ناقداً أخلاقياً في إصراره على ضرورة صدور العمل الفني عن رؤية علمية للواقع وإشكالاته .

وقد كانت الأزمة الكبرى التي عانى منها النقد هي كونه أحادي الجانب . وانعكست هذه الأزمة بدورها على النقد العربي . غير ان المشهد النقدي في تجربته العالمية قد تبدل كثيراً . وتجلى هذا في ظهور النزعة المضادة للنقد الأحادي الجانب . . . أو إيجاد (رؤيا مسلحة) بلغة الناقد (ستانلي هايمن) . والمقصود بالرؤيا المسلحة انها رؤيا تعددية الجوانب وليست واحدية الاتجاه . فالواحدية هي الصوت المنفرد . ولا يمكن أن يتحقق مشروع الحوار الذي هو أساس العملية النقدية بصوت منفرد يحاور نفسه ويحدق بها كالطاووس في المرآة .

الامتياز

يعتبر « جون فاولز » أحد أبرز الروائيين العالميين الذين ظهروا خلال العقد الأخير من الزمن . غير ان (فاولز) كتب أعمالاً أخرى غير الروايات . ولعل كتابه (الأريستوس) أن يكون نموذجاً لنظريته في الفن والحياة .

إن كلمة (أريستوس) اليونانية تعني (الامتياز في الحياة) . وهي تستخدم هنا على سبيل المحاكاة لكتاب الفيلسوف اليوناني (هيراقليطس) . ولا يعرف من حياة (هيراقليطس) إلا النزر اليسير . ذلك انه عاش قبل العصر الذهبي للفلسفة اليونانية . وكل ماتبقى من أعماله صفحات متفرقة من مقاطع مختلفة تنتمي إلى أكثر من عمل واحد .

وقد استفاد (فاولز) من فكرة الصراع التي تنطوي عليها كتابات « هيراقليطس ».ففي روايته « جامع الفراشات » مثلاً ، كان فاولز يحاول تحليل بعض نتائج هذا الصراع . إن الرواية تقوم على حادث

اختطاف يقوم به « فرديناند » بطل الرواية لفتاة اسمها (ميراندا) . إلا أن الشر الذي تنطوي عليه شخصية الخاطف «فرديناند »كاننتيجة لدرجة تحصيله العلمي المحدودة ، وفقره ، وكونه قد فقد والديه في وقت مبكر . وهذه العوامل جميعها مما لاقبل له بالسيطرة عليه . وباختصار فقد حاول (فاولز) التأكيد على براءة « الأكثرية » مقابل « الأقلية » . لقد تعرضت « ميراندا » للخطف والاعتقال . ولم تكن تسيطر على ظروفها . فقد كان والداها يعيشان في بحبوحة ، ولديها فرص تعليمية ممتازة ، وتتمتع بالذكاء والموهبة . ولكن هذا لايعني انها كانت تتميز بالكمال . لقد كانت أبعد ماتكون عن الكمال . كانت تشتط في التأكيد على صواب رأيها . وكانت تعاني من « السنوبيزم » أي نزعة الادعاء والتعالي على الآخرين كما هو شأن بعض طلبة الجامعات .

إلا أنها كانت ستكون أفضل بكثير نتيجة لمحنة التطهير التي عانتها خلال الرواية ، لو ان حياتها لم تنته بالموت .

لقد تغلب الشر المباشر لدى (فرديناند) على الخير الكامن لدى « ميراندا » . لكن المؤلف لم يكن يقف موقفاً متشائماً من المستقبل ، وإنما كان يلح على ضرورة جعل الأقلية في المجتمع تتطهر من افتراضها الزائف بأنها تتمتع بتفوق بيولوجي على الأغلبية .

وفي هذا الكتاب « الأريستوس » يحاول « فاولز » أن يحلل حالة الصراع بين الأقلية وبين الأغلبية في حلبة الحياة والفن . وهو يقول في القسم السادس من الكتاب الذي يعالج فيه الطبيعة الصراعية للواقع الإنساني :

عالم الأضداد

— إننا نعيش بفكرنا في عالم من الأضداد ، نظراً لما نمتلكه من قوى على المحاجة والتخيل والافتراض . وقد يكون هناك نوع من الواقع المطلق الذي لايشبه هذا الواقع . إلا ان هذا الواقع الصراعي أو الاستقطابي هو الواقع الذي يعيشه البشر .

إن كل مايوجد أو مانتخيل انه موجود ، يمثل قطباً في الصراع . كل المشاعر والآراء والأفكار أقطاب صراع ، ولكل قطب قطبه المعاكس .

إن القطب المناقض والواضح لفكرة من الأفكار ، هو الفكرة المعاكسة .

العالم كروي . . العالم ليس كروياً . ولكن كل مايقف بين عقلي وبين تركيزه المستمر على الفكرة (العالم كروي) هو قطب معاكس أيضاً . وأما الفكرة المعاكسة « العالم ليس كروياً » فهي تلوح للوهلة الأولى أشد الأعداء خطراً على الفكرة القطب . ولكن جميع الأقطاب المعاكسة لها (الاهتمامات الأخرى ، الحوادث الأخرى ، الأفكار الأخرى) التي تستحوذ على اهتمام العقل وتصرفه عن الفكرة القطب إنما تعرضه لخطر أشد بكثير . والواقع ان هذا الخطر يصل إلى حد ان الفكرة القطب لاتوحي بوجوده وإنما هي تمحوه وتحيله إلى لاشيء . وهكذا فثمة معنى ينطوي على المفارقة ومفاده ان الفكرة المعاكسة توحي بالفكرة التي تقف سطحياً على النقيض منها .

وحتى عندما تكون الأضداد لامعنى لها أو بادية الزيف ، فانها تسهم في إضفاء الحياة والمعنى على الأشياء التي تقف منها موقفاً مضاداً .

الحرب أو الثورة

الركود الاجتماعي يحدث أكثر مايحدث في المجتمعات المتطرفة في انجاهين :

— المجتمعات البالغة العدالة والمجتمعات البالغة اللاعدالة . ولا بد ان يؤدي الركود الاجتماعي إلى نتيجة من أصل ثلاث نتائج : الحرب ، الانهيار والتحلل ، أو الثورة .

الاشتراكية تزكي الفكرة القائلة ان ثمة الكثير من عدم المساواة في العالم ، وان عدم المساواة يمكن أن يعالج . وأشد ماتطمح الاشتراكية إلى تحقيقه هو أن تنجز أكبر قدر من الحرية مع أقل قدر من العذاب الاجتماعي . هذا الهدف صحيح مهما كانت الوسائل التي تستهدف تحقيقه خاطئة .

الفاشية

١ — ترى الفاشية ان من واجب الأقوياء والأذكياء السيطرة على الدولة بحيث يمكن تنظيم الأكثرية والسيطرة عليها . وفي أفضل الصور الأفلاطونية للفاشية فإنها تظل أشد الفلسفات السياسية واقعية . إلا أنها تتحطم دائماً على الصخرة نفسها : الفرد .

إن الفرد في أعماقنا يجعلنا نشعر بالريبة تجاه الخطوات التي نوافق

على اتخاذها . إن في مقدورنا دائماً أن نضع أنفسنا في مكان أولئك الذين لانوافقهم على آرائهم . فالفردية قناة أو وسيلة يمكن أن يتواصل عن طريقها جميع الأفراد . إنها جواز سفر إلى جميع الأفراد . ولكن هذا الاتصال بالذات ، هذا الاتصال بين العقول هو الذي تقرر الفاشية أن تجهز عليه . إن الفاشية والمخيلة لايلتقيان .

٢ ـ الفاشيون يحاولون إيجاد مجتمع متوحد الأضداد ، فالجميع عليهم أن يتجهوا باتجاه الجنوب . لاأحد يمكن أن يتوجه صوب الشمال . ولكن في مثل هذه المجتمعات يوجد انجذاب نحو القطب المعاكس لكل ماهو مطلوب من قبل السلطة . فاذا ماأمرت الإنسان بأن ينظر باتجاه المستقبل فإنه سينظر إلى الحاضر .

وإذا ماأمرته أن يخدم الدولة فسيخدم نفسه .

إن المجتمع يحتاج إلى القواعد كما تحتاج الآلة إلى الزيت . ولكن العديد من المجتمعات طالبت بالامتثال لهذه القواعد في المواضع التي هناك أمس الحاجة إلى أن يوجد فيها العصيان ، وسمحت بالعصيان في المواضع التي ينبغي أن يحظر فيها . ليس ثمة ماهو أشد سوءاً في المجتمع من تخريب أو إساءة استعمال الرغبة في الامتثال للقواعد .

٣ ـ إن المجتمع الصحي هو ذاك الذي لايمتثل فيه الناس للقواعد دون أن يعرفوا لماذا يفعلون ذلك ، ولا يطيعون دون أن يعلموا لماذا يطيعون ، كما لايمتثلون امتثال خوف ، أو امتثال كسل عن ممارسة العصيان . .

الفن والشعر

١ـ على الفن أن يقدم اليوم ماكان يقدمه الجهل والأوضاع الاجتماعية في الماضي : الشعور بعدم الطمأنينة ، العنف ، الخطر .

وهذا انحراف به عن مهمته الأصلية .

٢ — إن بوسع الفنان أن يختار ألا يكون فناناً . إلا انه غير قادر على أن يكون فناناً اختار ألا يكون فناناً .

الوظيفة الحقيقية للفن ، لاتكمن في إخفاء عيوب المجتمع ، وإنما أن يشغل بالتواشج مع العلم ، القلب من الوجود الإنساني .

٣ — لأننا نعامل الفنون من الخارج ، ولأننا نذهب إلى الفن ، فاننا نعتبره فعالية خارجة عن القدم الرئيسي من حياتنا . نذهب إلى المسرح،السينما ، المتحف ، ملاعب الرياضة . وحتى قراءاتنا هي خارج مشاغل النهار . وحتى الفن الذي يدخل إلى بيوتنا فإننا نشعر بأنه يأتي من الخارج .

٤ — ليس من مهمة الفنان أن يزيد من تعقيدات العالم المعاصر . إن ماينظر إليه اليوم على انه مقياس للنقد ، ليس معنى العمل الفني وإنما المهارة والقدرة على إثارة المعنى .

٥ — يتعرض الشعر للهجوم من كل اتجاه . إنه يتعرض للهجوم من قبل العلم أكثر من سائر الفنون . ذلك أن الفن كالعلم ، يتعامل مع المعنى . هذا على الرغم من انه لايتعامل مع المعنى في المواضع نفسها التي يتعامل بها العلم أو للأهداف نفسها التي يسعى إليها العلم التقني .

وكثيراً مايعامل الشعر باستخفاف لأنه ليس فناً يمتلك لغة عالمية كالموسيقى والرسم .

إن الشعر يدفع الضريبة لأنه يمتلك أداة دقيقة . ولكن هذه الأداة هي التي تجعله فناً مفتوحاً ، تجعله أقل الفنون عرضة للاستغلال وممارسة الطغيان .

اعـــلان
عن مسابقة سينمائية عن حرب تشرين

توجيه من السيد الرئيس حافظ الاسد ، تشكلت لجنة عليا مهمتها انتاج فيلم ن حرب تشرين يكون بمثابة وثيقة تاريخية للاجيال ، ولوحة شاملة لهذه الحرب ، لا من حيث استيعاب معاركها وتفصيلاتها كلها بل من حيث تقديم بانوراما عنها تتكشف في بؤرتها أهم معارك هذه الحرب ونتائجها عسكرياوسياسيا.

ان لفيلم المنشود في التصور المبدئي فيلم روائي يقوم على قصة وحدث وليس فيلما وثقيا بحتا ، وهو ينطلق من المعارك التي دارت على الجبهة السورية ، ويعطي في التمهيد او التظليل ملامح أو مشاهد من الحروب التي سبقت ، على ان تكون قضية فلسطين ، بشكل اساسي ، محورا فكريا للفيلم يهدف الى ابراز البعد القومي اضافة الى البعد الانساني الذي يرسم او يشير الى اغتصاب اسرائيل لفلسطين واحتلالها الاراضي العربية وتشريد السكان وذبحهم ، ونسف البيوت وقصف المخيمات .

ومع أن معارك تشرين في الجولان هي النقطة المركزية في الفيلم ، الا أن هذه المعارك لن تكون بشكل تسجيلي منفصل أو مسقط او مقحم على الفيلم ، بل من نسيج حدثه العام ، تعطي دلالاتها من وقائعه ، وتنبع جزئياتها من ادوار شخصياته الانسانية ، الموضوعية والمقنعة ، مع مراعاة عدم الافتعال ، والابتعاد عن التصوير الاحادي الجانب للشجاعة او الجبن ، للبياض أو السواد ، بل ان تتداخل الالوان وتعبر بصدق عن واقع حرب كانت هي نفسها عظيمة في واقعها .

ان اللجنة العليا المكلفة بانتاج هذا الفيلم تدعو الكتاب السوريين والعرب الى الاشتراك في المسابقة التالية :

١ ـ وضع قصة سينمائية عن حرب تشرين التحريرية .

٢ ـ وضع فكرة سينمائية تكون معالجة أولية وتصلح نواة لفيلم طويل يمكن تطويرها فيما بعد .

ب ـ اذا وجد سيناريو جاهز عن حرب تشرين يمكن أن يدخل المسابقة ، ويقيم عند قبوله على أساس سيناريو كامل أو جزء من سيناريو ، اذا وجدت الجنة ضرورة لتجزئته أو تطويره أو تعديله .

ج ـ وضع أفكار أو تصورات عن الفيلم المقترح يمكن أن تفيد اللجنة في عملها .

٢ ـ يجب أن تخدم القصة أو الفكرة السينمائية أو السيناريو الاهداف العامة لحرب تشرين التي أشارت الى بعضها مقدمة هذه المسابقة ، وأن تكون مؤلفة ومستمدة من واقع هذه الحرب .

٣ ـ تاريخ المسابقة من أول آذار ١٩٧٦ الى غاية نيسان ١٩٧٦ .

٤ ـ تؤلف لجنة من الكتاب والسينمائيين العرب للنظر في مواد المسابقة وأعلان الفائز منها .

٥ ـ تمنح القصة الفائزة جائزة قدرها / ١٥٠٠٠ / ليرة سورية .

آ ـ تمنح الفكرة السينمائية الفائزة جائزة قدرها / ٥٠٠٠ / ليرة سورية .

ب ـ يمنح السيناريو الفائز جائزة قدرها / ٢٠٠٠٠ / ليرة سورية .

ج ـ اذا قررت اللجنة الاستفادة من جزء من السيناريو تقوم بتقدير المكافأة التي ستمنحها الى الكاتب .

د ـ تقدر اللجنة مكافأة الأفكار أو التصورات المرسلة عن الفيلم في حال اعتمادها أو الاستفادة منها ، وتعلم صاحبها بذلك .

٦ ـ المادة الفائزة تصبح ملكا للجنة ولها حق التصرف فيها بما يخدم أهداف الفيلم .

٧ ـ ترسل مواد المسابقة في ظرف مختوم وداخله ظرف مختوم أيضا باسم الكاتب وعادته على العنوان التالي لجنة مسابقة فيلم تشرين ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي .

دمشق
عن اللجنة العليا
وزير الثقافة والارشاد القومي
فوزي كيالي